نجدة فتحي صفوة



في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

نجدة فتحي صفوة



العراق

في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الطبعة الاولى

١٩٦٩

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

مُقـــدّمة

يعنى كثير من الساسة والقادة والدبلوماسيين في الغرب ــ بعد اعتزالهم العمل ــ بنشر مذكراتهم عن حياتهم الخاصة والرسمية ، وعن الأحداث التي عاصروها أو أسهموا فيها ، والرجال الذين عرفوهم أو عملــوا معهــم .

وكنت خلال خدمتي ــ التي قاربت ربع قرن من الزمان ــ فــي العمل الدبلوماسي ، أتتبع مذكرات الدبلوماسيين ، وأجد متعة كبرى في الاطلاع على ملاحظاتهم وتجاربهم ، وخاصة في البلاد التي كنــت أعمل فيها ، وكنت بذلك كأنني أشهد التاريخ حياً كما شهــدوه ، أو صنعوه ، أو حاولوا الدخول فيه .

وكان بين أصحاب تلك المذكرات عدد من الدبلوماسيين الذين عملوا في العراق في أزمنة مختلفة ، فتضمنت مذكراتهم فصلا أو فصولا عن عملهم فيه ، وأحداثه التي عاصروها ، ورجالاته الذين اتصلوا بهم، فرأيت أن أترجم تلك الفصول الخاصة بالعراق ، وأجمعها في كتــاب واحد يكون مادةً طريفةً للقارىء ، ومرجعاً نافعاً للمؤرخ ، ومصدراً جديداً للباحث .

وهنالك أيضا عدد كبير من السياح الأجانب الذين زاروا العراق

في أزمنة مختلفة ، وكتبوا عنه ، ووصفوا رحلاتهم اليه • وبعض تلك الرحلات مترجم الى العربية •

ولكن الدبلوماسي غير السائح •

فالسائح — مهما طالت اقامته ودقت ملاحظته — طائر عابر ، يكتفي — مضطراً — بالنظرة الخاطفة والملاحظة السريعة ، ويولي جُلّ اهتمامه زيارة المواقع الاثرية ، ووصف معالم المدن ، وما قد يتسنى له الاطلاع عليه من حالة البلد الاجتماعية وعادات أهليه ، خلال اقامته فيه ، أو بالأحرى مروره به ، ولكنه قلما يعنى بالشؤون السياسية ، وتكاد معظم الرحلات تخلو من اهتمام بها أو اشارة اليها •

أما الدبلوماسي ، فتكون اقامته أطول ، واتصالاته أوسع ، ونظرته أعمق، لأن دراسة البلد ، والاتصال بأهله وزعمائه — في الحكم والمعارضة — وتتبع سياسته واقتصادياته ، أمور من صميم عمله وواجبه • ولذلك كانت مذكرات الدبلوماسيين تضم مادة أغزر ، وحقائق أوفى ، ومعلومات لا تتيسر عادة للسائح •

واذا كان يفترض في الدبلوماسي — وهو يمارس عمله في البلد الأجنبي — أن يجامل أهله ، ويحترم عاداتهم ، ولا يبدي رأياً في شؤونهم الداخلية ، فانه لا يتقيد بهذا كله بعد اعتزاله العمل ، ومغادرته البلاد ، فلا يكتب عادةً الا ما يراه ، ولا يتحرّج في النقد ، ولا يمتدح الا ما يعجبه حقا • ولذلك فان مذكرات الدبلوماسيين عن بلادنا تتضمن آراءهم الصريحة في الغالب ، وترينا كيف ينظرون الينا ، وكيف يحللون سياستنا ، وكيف يقيّمون رجالنا • وكثيراً ما نعثر فيها على حقائق فاتتنا ، وأمور لم تثر انتباهنا ، وملاحظات لم تخطر لنا ببال ، اضافةً

الى الاتصالات والملابسات التي كانت تحاط بالسرّية في يومها •

ولا شك في أن مذكـرات الساسة والدبلوماسيين مصدر مهم من مصادر التاريخ• وهي ــ بالتعبير الاكاديمي ــ من «المصادر الأولية»، ولكنها ــ مع ذلك ــ ليست مصدراً قاطعاً ولا نهائيـا ، لأنها تدون الاحداث من زاوية شخصية معينة ، وكثيرا ما تفتقر الى « الموضوعية» والتوازن بين الحوادث ، ولذلك فهي لا تخلو ــ في كثير من الحالات ــ من تشويه للتاريخ ، أو ــ على الاقل ــ تغيير لمقـاييسه وأبعـاده • فتجد بعض الاحداث المهمة تعالج معالجة مبتسرة ، أو تتاثر بعواطف ومواقف شخصية • وبعض الاحداث الثانوية تطغي على ما هو أهـم منها ، لأن صاحب المذكرات لم يقاوم اغراء تدوينها بتفصيل أكثـر مما تستحق ، لأنه كان طرفاً فيها ، أو شاهد عيان لها ، فحازت عنده أهميةً معينة ، وكان لها في « قلبه » مكان خاص •

ومع ذلك ، فان هذه العيوب في المذكرات ــ كمصدر للتاريخ ــ هي في الوقت نفسه من مزاياها • فصاحب المذكرات غير المؤرخ • وهو اذا أراد أن يتحرّى الموضوعية التامة ، والحكم على الاحداث والرجال بـ « العقل » وحده ، أصبح مؤرخا ، وبذلك فقدت المذكرات ميزتها• وميزة المذكرات تكمن فيما تحتويه من نواح شخصية ، وتفصيـلات جزئية ، وانطباعات آنية ولاحقة • وكلما تعددت المذكرات عن الحادث الواحد ، أو الفترة الواحدة ، أو الشخص الواحد ، اتضحت المعالم ، وبرزت دقائق الامور ، واتصلت سلسلة الحقائق والاحداث • والمؤرخ الحصيف ، بعد ذلك ، يستطيع أن يقابل بعضها ببعض ، ويغربل مـا فيها من حقائق ، ويطرح منها ما يطرح ، ويستنتج ما يستنتج ، ويتمكن

من وضع الأحداث في نصابها الصحيح ، والتوصل الى الحقائق التي يبحث عنهــا •

* * *

ويحتوي هذا الكتاب على مذكرات ثمانية دبلوماسيين ، مــن جنسيات مختلفة ، عن العراق خلال ستين عاما ، من سنة ١٨٩٨ الى سنة ١٩٥٩ • وقد حرصت في اختيارها ــ حفظا لوحدة الموضــوع وانسجام مواد الكتاب ــ أن يكــون أصحــاب المــذكرات مــن « الدبلوماسيين » وحدهم ، فلم أضمّ اليها مذكرات مهمة أخرى عن العراق ، كرسائل « المس بيل » ، السكرتيرة الشرقية في دار الاعتماد ببغداد ، أو مذكرات « رونالد ستورز » الذي كان سكرتيرا شرقيــا في القاهرة ، وعُرض عليه مثل هذا المنصب في بغداد ، فقدم العراق بزيارة استغرقت اسبوعين تقريبا ، زار خلالهما كثيرا من مدنه ، وقابــل عدداً من رجاله ، وكتب عنه فصلا في مذكراته التــي نشرهــا بعنوان « مشرقيات » • وقد استبعدت تلك المذكرات لان العراق ــ في الفترة التي تناولتها ــ كان تحت الانتداب البريطاني ، ولذلك لم تتوفر في أصحابها صفة الدبلوماسي الذي يمثل بلاده في دولة مستقلة ــ حقيقةً أو حكماً ــ ولا يملك التدخل في شؤونه الداخلية ، بل انهم كــانوا من حاشية « المندوب السامي » ، وصفة « المندوب السامي » وحاشيته كانت تختلف كل الاختلاف عن صفة الممثل الدبلوماسي وحاشيته •

وكذلك استبعدت ــ للسبب نفسه ــ المذكرات التي كتبها عن العراق نفر من كبار الساسة ، مثل تشرشل ــ في مذكراته ــ ووندل ويلكي في كتابه المعروف « عالم واحد » وغيــرهما • علــى أننــي

« تساهلت » مع وزراء الخارجية ، فوضعتهم في عداد الدبلوماسيين !

وبين أصحاب المذكرات التي يضمها هذا الكتاب من لم يكونوا معتمدين في العراق ، بل ان ثلاثة منهم لم يزوروه قط ، ولكنهم كتبوا عنـــه •

أولهم « السر جيرالد لوثر » الذي كان سفيراً لبريطانية لـــدى الدولة العثمانية ، وكان مقره في عاصمتها القسطنطينية طبعا • ولكن العراق ــ بولاياته الثلاث بغداد والبصرة والموصل ــ كان على عهده جزءاً من الدولة العثمانية ، وبذلك كان داخلا في منطقة أعماله • ولما نشرت وزارة الخارجية البريطانية في سنة ١٩٢٨ مجموعة وثائقها عن الشرق الادنى بين سنتي ١٨٩٨ و ١٩١٤ (١) ، كان بين تلك الوثائق التقرير السنوي للسفير البريطاني في القسطنطينية عن منطقة أعمــاله خلال سنة ١٩٠٨ ، وقد تضمن التقرير فصلا قصيراً عن ولايات بغداد والبصرة والموصل ، رأيت من المفيد ضمه الىهذه المجموعة لانه يحتوي على ما جاء في تقرير سرّي لسفير بريطاني عن العراق ، وان لم يزره في أغلب الظن • وأحسب أن هذا التقرير السنوي لما يترجم الى اللغة العربية ، بالرغم من احتوائه على معلومات مفيدة عن الاقطار العربية التي كانت داخلة في الدولة العثمانية وقتذاك ، وحبذا لو ترجم اليهــا بأجمعه •

والدبلوماسي الآخر الذي لم يزر العراق ــ فيما أعلم ــ ولكـــن مذكراته تضمنت فصلا عنه هو « سمنر ويلز » الذي كان وكيلاً لوزارة

---

(١) *British Documents on the Origins of War, 1898-1914,* Vol. V (The Near East) Ed. by G.P. Gooch and Harold Temperly. His Majesty's Stationary Office, London, 1928.

الخارجية الامريكية في عهد الرئيس روزفلت ، ومن أعوانه المقربين ، وبقي في هذا المنصب زهاء عشر سنوات ــ بين ١٩٣٣ و ١٩٤٣ ــ وقد تضمن كتابه « أوان التصميم » (١) فصلا عن « الشرق الأدنى » وردت فيه اشارات مهمة الى العراق ــ وكذلك الى مصر وسورية وفلسطين ــ وقد رأيت من المفيد أيضا أن أضمه الى هذه المجموعة ، لان ما جاء فيه يعبر عن سياسة أمريكا ووجهة نظرها عن العراق والبلاد العربية خلال الفترة التي كان صاحبها ، بحكم منصبه ؛ من صانعي تلك السياسة ، ومن أهم الشخصيات التي توجهها • وقد استقال سمنرويلز من منصبه عندما اختلف مع وزير الخارجية « كوردل هل » •

وأما الثالث ممن لم يعملوا في العراق ، ولم يزوروه قط ، فهو « الكونت جيانو » وزير خارجية ايطاليا في عهد موسوليني ، وصهره • وقد احتوت مذكراته ــ أو بالاصح يومياته ــ (٢) بضع فقرات قصيرة عن العراق ، تنير جوانب من سياسة ايطاليا ، وموقفها من العراق خلال فترة معينة ، وتكمل بعض ما جاء في مذكرات « فريتز غروبا » وزير المانيا المفوض في بغداد • ولذلك وجدت من الطريف أن يشملها هذا الكتاب •

وأما « روبرت مورفي » فقد كان من رجال السلك الدبلوماسي الامريكي ، وقدم العراق في زيارة قصيرة وان لم يكن معتمدا فيه • وكانت آخر مناصب « مورفي » منصب « سفير الولايات المتحدة

---

(١) Summer Welles, *The Time for Decision,* (Harper & Brothers. New York, 1944).

(٢) *Ciano's Diary* Edited by; Malcolm Muggerdge. William Heinemann Ltd. London, 1947.

المتجول » ، وكانت وزارة الخارجية توفده الى البلاد التي تكون مسرحا لأحداث مهمة • فحضر الى العراق بهذه الصفة ، بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ مباشرة ، وقابل عبد الكريم قاسم • وقد دوّن في مذكراته ــ التي نشرها بعد تقاعده عن العمل بعنوان « دبلوماسي بين محاربين » [١] ــ فصلا عن تلك المقابلة ــ وجدته ينسجم مع هذه المجموعة ــ وفيه وصف دقيق لشخصية عبد الكريم قاسم والجو الذي كان يحيط به ، وسرد لما دار بينهما من حديث •

أما الدبلوماسيون الذين كانوا معتمدين في العراق ، وأقاموا فيه مدة من الزمن ــ ممن احتوت هذه المجموعة مذكراتهم ــ فهم أربعة •

أولهم « فريدريك روزن » الذي كان قنصلاً لالمانية في بغداد في سنة ١٨٩٨ • وفي مذكراته وصف شيق لرحلته التي استغرقت خمسة وستين يوماً من برلين الى بغداد ، ولحياته في بغداد ومشاهداته في عدد من المدن العراقية • وقد كتب « روزن » مذكراته باللغة الانكليزية ــ لسبب لم يذكره ــ ونشرها في نيويورك سنة ١٩٣٠ [٢] •

والثاني هو الدكتور « فريتز غروبا » الذي عيّن قائماً باعمال المفوضية الألمانية في بغداد سنة ١٩٣٢ ، ولما رفعت ألمانيا تمثيلها في العراق ــ على أثر دخول العراق عصبة الامم في سنة ١٩٣٢ ــ أعتمد أول وزير مفوض ومندوب فوق العادة لالمانيا في العراق ، وقدم أوراق اعتماده الى الملك فيصل الاول في ٢٥ تشرين الاول ١٩٣٢ •

---

(١) Robert Murphy, *Diplomat Among Warriors* Collins, London, 1964.

(٢) Friedrich Rosen, *Oriental Memories of a German Diplomatist*, E.P. Dutton and Company Inc. New York, 1930.

ان مذكرات « غروبا » هي آخر ما صدر من مذكرات الدبلوماسيين الاجانب عن العراق ، ومن أهمها ، وقد عاصر صاحبها في العراق أحداثا مهمة ، فشهد مصرع الملك غازي ، وانقلاب بكر صدقي ، وما اختلف على العراق من أحداث حتى سنة ١٩٣٩ حين قطعت العلاقات بين البلدين خلال الحرب العالمية الثانية . ولما استؤنفت العلاقات بين العراق والمانيا ـ خلال حركة رشيد عالي في مايس ١٩٤١ ـ عاد « غروبا » الى العراق لفتح المفوضية الألمانية مع عدد من الموظفين والخبراء . وقد رافقت عودته ملابسات خاصة ، تعد نادرة في تاريخ التعامل الدبلوماسي . فهو لم يحمل معه عند قدومه أوراق اعتماده ، ولكنه مع ذلك كان يعامل معاملة الدبلوماسيين المعتمدين . وأغرب من ذلك انه نزل في دار المرحوم رشيد عالي الكيلاني ، رئيس الوزراء وزعيم الثورة ، وهذه سابقة تاريخية ، اذ لم يسجل التاريخ الدبلوماسي ـ فيما أعلم ـ أن اتخذ سفير دولة أجنبية اقامته ـ ولو موقتا ـ في دار رئيس وزراء البلد الذي يمثل بلاده فيه . ففي ذلك ملابسات عديدة تتعلق بالقانون الدولي العام ، ومبادىء التعامل الدبلوماسي ، وتمس موضوع حصانات الممثل الدبلوماسي وحقوقه ، منها اعتبار محل اقامة رئيس البعثة الدبلوماسية جزءاً من اقليم بلاده ، ومنها حقه ـ وأحياناً واجبه ـ في رفع علم بلاده على محل اقامته ، ووضع شعار دولته على باب مقره .

وغادر « غروبا » بغداد للمرة الثانية في ٢٩ مايس ١٩٤١ ، فذهب الى الموصل ، وبقي فيها ثلاثة أيام سافر بعدها الى حلب فأثينا فبرلين ، وعاد الى الخدمة في وزارة الخارجية ، ثم عين خلال السنة الأخيرة من الحرب مدعياً عاماً في « مانيـكن » . وبعد اندحار المانية اعتقلته السلطات

السوفيتية وحاكمته بتهمة الجاسوسية او العمالة ، وحكمت عليه بالسجن عشر سنوات ، وأطلق سراحه بعد قضاء هذه المحكومية أو معظمها .

وقد نشر الدكتور غروبا مذكراته في كانون الاول سنة ١٩٧٦ بعنوان « الرجال والقوى في الشرق ــ ٢٥ سنة من العمل الدبلوماسي» [١] تضمنت فصولا طويلة عن خدمته في العراق .

وفي مذكرات « غروبا » معلومات سياسية وتاريخية تنشر للمرة الاولى ــ وخاصة فيما يتعلق بانقلاب بكر صدقي، وحركة رشيد عالي ــ وهي بالاضافة الى ذلك تصحح عددا من الأخطاء التي وقع فيها بعض المؤلفين الذين كتبوا عن تلك الفترة مثل مجيد خدوری ، وسومرست دي شير ، وريجاردز ، ولونكريك ، وفريا ستارك ، وحتى تشرشل في بعض ما روى في مذكراته عن العراق وأحداث سنة ١٩٤١ .

أما الدبلوماسي الثالث الذي عمل في العراق من أصحاب هذه المذكرات فهو « السر موريس بيترسن » السفير البريطاني في العراق بين سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ . وكان هذا السفير معاصراً للدكتور غروبا ، ومن الطريف ملاحظة اشارات كل منهما في مذكراته الى الآخر ، وتذمره من فعالياته ونشاطه في الدعاية لبلاده في تلك الفترة الحرجة المتأزمة التي سبقت الحرب العالمية الثانية . ونجد في مذكرات كل منهما رأيه في زميله ومنافسه ، ونستطيع أن نقارن بين نظرتيهما الى نفس الاحداث ، كل من زاويته ، وبمنظار من مصالح بلاده .

وفي مذكرات بيترسن حقائق وأحداث ذات دلالة عظيمة ، وفيها

---

(١) Fritz Grobba, *Manner und Machte im Orient*, Musterschmidt-Verlag. Gottingen, Zurich. Berlin. Frankfurt. 1967.

صورة واضحة للحالة السياسية في العراق في السنوات التي تتناولها ، وللعلاقات العراقية ــ البريطانية • ويسرد بيترسن الوقائع بصراحة تامة تجعلنا ندرك ما كان يتعرض اليه العراق في تلك الفترة من ثلم السيادة الوطنية والتدخل الأجنبي في شؤونه الداخلية • فهو ينتقد تصرفات الملك ويطلب السيطرة عليه أو خلعه ، ويعاتب رئيس الوزراء ، نوري السعيد ، على تعيين رشيد عالي الكيلاني رئيسا للديوان الملكي ؛ ويعترض على حضور وزير الخارجية مقابلاته مع الملك ، ويضع مسودة الكتاب الذي يطلب توجيهه الى السر جون وارد، مدير الموانئ، ويحمله الى رئيس الوزراء لتوقيعه ، ويطلب من وزير الدفاع أن يستقيل من رئاسة « جمعية الدفاع عن فلسطين » لأنها ــ على قوله ــ مصدر شغب على بريطانية ، ويطرد من العراق خبراء الآثار الالمان ، ويتهمهم بالجاسوسية •

ولعل بيترسن هو السفير البريطاني الوحيد الذي لم يكن على وئام مع نوري السعيد ولم يرتح اليه ، وكان يرى في عودته الى الحكم « مدعاة للقلق ، وسبباً لبعث كوامن الاحقاد وروحية الانتقام والتعطش للدماء » ، وهو يصف نوري السعيد بعدم الاستقرار والتآمر للوصول الى الحكم ، كما يصف طه الهاشمي بالغباء ، وبأوصاف نابية أخرى •

وقد أثارت هذه المذكرات ــ عند نشرها في سنة ١٩٥٠ بعنوان « جانبا الستار » [١] ــ ثائرة نوري السعيد ، فردّ عليها بمقال بعث به

---

(١) Sir Maurice Peterson, *Both Sides of the Curtain*, Constable, London, 1950.

الى الصحف العراقية [١] • كما امتعض طه الهاشمي مما نبزه به بيترسن في مذكراته ، فكتب — هو أيضا — رداً طويلا [٢] لم يتمالك أن يختمه مستشهدا بقول المتنبي :

واذا أتتــك مذمتي من ناقص
فهي الشهـــادة لي بأني كامـــل

وقد وجدت من المفيد أن ألحق مذكرات بيترسن بهذين الردين اللذين يناقش صاحباهما فيهما ما جاء في المذكرات عن شخصيهما •

ولا شك في أن قراءة مذكرات بيترسن كاملة ، ومقارنة ما كتبه عن العراق بما كتبه عن البلاد الأخرى التي كان سفيراً فيها ، تلقيان مزيداً من النور على تصرفاته في العراق ، اذ نجد أنَّ هذا السفير الذي كان يأمر وينهي ، ويتطاول ويتجبر في العراق ، يتصاغر ويهان في الــدول الأخرى • فهو حين يتحدث عن عمله سفيراً في الاتحــاد السوفيتي ، مثلاً ، يصف مقابلة له مع وزير الخارجية « مولوتوف » لأمر يتعلق بزوجات صغــار الموظفين الروسيــات ، طلبت اليه وزارة الخارجيــة البريطانية أن يقوم بها ، فيقول بهذه الصراحة :

« قابلته في ٣١ كانون الأول ١٩٤٦ ، فأظهر ضجره وغضبه لأنني أزعجتــه بمثل هذه الشؤون التي يعتبرها من الأمور التــافهة ، مما جعلني أقول له بانني اضطررت الى ذلك بعد أن أخفقت في الحصول على جواب مرض ممن هم دونه منزلة » [٣]

---

(١) انظر مثلا جريدة « لواء الاستقلال » الصادرة في ٥ كانون الثاني ١٩٥١
(٢) انظر : جريدة « لواء الاستقلال » الصادرة في ١٠ كانون الثانـي ١٩٥١
(٣) ص ٢٨١

ويتحدث عن مقابلة له مع « جاكوب مالك » أحد نواب وزير الخارجية السوفيتية ، فيقول :

« •• بعد أيام قلائل أوعزت اليَّ الخارجية (البريطانية) بمقابلة « مولوتوف » لدعوته الى حضور مؤتمر وزراء الخارجية الثلاثة في باريس • ولكن مولوتوف لم يستقبلني في هذه المناسبة ، بل استقبلني مالك في ساعة غير معقولة ، حيث حدد موعدي في الساعة ١١/٤٥ مساء » (١)

ثم نقرأ في مذكراته عن اسبانيا ، حيث نقل اليها من بغداد ، ما رواه عن استدعاء وزارة الخارجية اياه الى « برغوس » ، وطلبه تأخير هذه المقابلة ثلاثة أيام « ريثما ينهي » مشاغله في « بلباو » ، ثم مقابلته وزير الخارجية بعد هذه المدة • فنجد هذا السفير الذي كان في العراق يقابل رئيس الدولة على انفراد متى شاء ، ويريد أن تتم مقابلاته دون حضور وزير الخارجية ، يتلقى التوبيخ من وزير خارجية اسبانيا بعد ذلك بشهر واحد ، ويعتذر اليه ، ويشرح له الأسباب والظروف التي أعاقته عن الحضور ، فيقول :

« ••• وقد أثار استغرابي أنني عندما خطوت خطوتي الأولى في غرفة جوردانا ــ وزير الخارجية ــ وجدت الجنرال القصير بادي الغضب • وقد فاجأني بهذا السؤال : هل من المعتاد للسفراء أن يتأخروا عن الحضور عند استدعائهم من قبل الحكومات التي يمثلون بلادهم لديها ؟ وقد أوضحت له الظروف التي أعاقتني عن

---

(١) ص ٢٧٢

الحضور ، واعتذرت له قائلا انني لو أبلغت بدعوة مستعجلة، لحضرت فوراً فبدا لي أن هذا الجواب كان كافيا ومقنعا له » [١]

ويصف بيترسن مقابلة أخرى له مع وزير خارجية اسبانيا ، فاذا به يتضاءل أمامه الى حد الاعتراف بأن الوزير أوشك أن يطرده :

« زرت جوردانا ، ولما لم يكن هنالك من الأمور المستعجلة التي يجب أن تبحث فقد رأيت أن أثير — على الأقل — قضية ميثاق مقاومة الشيوعية • فامتعض الجنرال ، وأجابني بغلظة قائلا ان اسبانيا التي تستفيد من العبر والدروس دائما ، ليس لها قصد من الانضمام الى هذا الميثاق بأكثر مما يتضمنه اسمه • ثم لما أجبته بأن هذا الجواب غير مطمئن لاحظت أن الوزير لم يكن راغباً في بحث الموضوع ، فوقف على قدميه مشيراً الى انهاء المقابلة•ولما كنت غير راغب في أن «أصرف» بهذه الطريقة ، بقيت جالساً بضع دقائق أتحدث في موضوعات أخرى » [٢]

والعبر التي تستخلص من مذكرات « بيترسن » عديدة ، وهي تكشف عن حقيقة شخصيات كثير من الساسة في العهد الملكي ، وطبيعة علاقاتهم بالسفارة البريطانية في ظل معاهدة سنة ١٩٣٠ •

ومزية هذه المذكرات أن صاحبها يسرد الحقائق — سواء أكانت بجانبه أم عليه — بصراحة منقطعة النظير ، ودونما تكلّف ولا تحفظ ، وأنه يرى نفسه ملزماً ببسط الحقائق أمام التاريخ ، وأمام الرأي العام في عصر أصبحت فيه الصراحة من مستلزمات الديمقراطية الصحيحة •

---

(١) ص ١٨٠
(٢) ص ١٨٠

أما مذكرات السفير الامريكي « والدمار غولمان » الذي مثّل بلاده في العراق من سنة ١٩٥٤ الى سنة ١٩٥٩ ، فهي مستقاة من كتابه المعنون « العراق في عهد الجنرال نوري »[١] ، وهذا الكتاب يحتوي، بالدرجة الأولى ، على مذكرات السفير « غولمان » عن نورى السعيد الذي كان كبير الاعجاب به ، ولكنه يتضمن أيضاً مذكرات المؤلف عن العراق خلال فترات من خدمته الطويلة ـ نسبيا ـ في العراق • وقد رأيت أنها تنسجم مع هذه المجموعة من المذكرات •[٢]

وقد اخترت من كتاب « غولمان » الفصول التي وجدتها تقدم فكرة عن أهم ما شهده المؤلف وعاصره من أحداث في العراق ، وما أبداه من آراء في سياسته ورجاله • وربما يرى بعض من قرأوا الكتاب بأجمعه أن فيه فصولاً أخرى قد يجدونها أكثر أهمية ، ولكن هذا الاختيار كان اجتهادا مني ، وقد أكون مخطئا فيه أو مصيبا ، على أنني لم أتقيد بأي اعتبار سوى اختيار ما وجدته أكثر تعبيرا عن آراء المؤلف في العراق وسياسته ورجاله ، وما يتضمن من الوقائع ما هي

---

(١) Waldemar J. Gallman, *Iraq under General Nuri*, Johns Hopkins Press, Bltimore, 1964.

(٢) سبق ان ترجم كتاب « غولمان » الى العربية ، ونشر في بيروت بعنوان « عراق نوري السعيد » ، وقد قابلت هذه الترجمة مع الاصل الانكليزي صفحة صفحة ، وسطرا سطرا ، فوجدت فيها أخطاء عديدة في الترجمة ، وتغييرا لبعض معاني المؤلف ، كما وجدت في موضع أو موضعين بضعة أسطر محذوفة . ولذلك فان تلك الترجمة ، وان كانت تعطي القارىء العابر فكرة عامة عن الكتاب وما يتضمنه ، لا يمكن الركون اليها في دراسة علمية ؛ حيث يقتبس الباحث احيانا سطرا واحدا او سطرين فقط ، وقد يتضمن ذلك السطر ـ على سبيل الصدفة ـ احدى الهفوات التي أشرنا اليها .

أكثر دلالة •

ومذكرات « غولمان » لا تقل في دلالتها عن مذكرات « بيترسن » وإن لم تشب تصرفاته الشخصية ما كان في تصرفات « بيترسن » من رعونة وتعال •

فهي تكشف ما كان يدور خلال اجتماعات « ميثاق بغداد » من اتصالات ، وخاصة في سبيل حمل الولايات المتحدة على الانضمام الى الميثاق ، وتهرب الولايات المتحدة من ذلك ، وتبين تفاصيل المذاكرات التي جرت لتخفيف وقع « العدوان الثلاثي » على الرأي العام العراقي، ومحاولات نوري السعيد في هذا السبيل •

وفي هذا الصدد يصف « غولمان » زيارة قام بها عبد الآله ونوري السعيد الى السفارة الامريكية ليلاً ، ليكررا رجاءهما ويلحّا على السفير ليوافق على الاشارة الى الولايات المتحدة واحتمال انضمامها الى الميثاق في المستقبل ، في البيان الذي سيصدر عن اجتماع الدول الاسلامية الأعضاء في ميثاق بغداد • ولا شك أن هذه الزيارة ــ التي أحيطت في حينها بالكتمان ــ تلقي الضوء على طبيعة علاقاتهما بسفارات بعض الدول الاجنبية • ولئن كان نزول وزير المانية المفوض « غروبا» في دار رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني سابقة غريبة في تاريخ التعامل الدبلوماسي، فان قيام «رئيس الدولة» و «رئيس الوزراء» مجتمعين بزيارة سفارة دولة أجنبية سراً ، تحت جنح الظلام ، ليتقدما الى السفير برجاء عاجل ، فضلا عن مخالفته للتعامل المتبع ، يحمل معنى التدني والتفريط في كرامة البلاد وكرامتهما ، إذ أن من حق رئيس الدولة ورئيس الوزراء ووزير الخارجية استدعاء السفير في أي ساعة

من ليل أو نهار ، ومن واجب السفير الحضور ، وليس من المألوف أن يذهبوا هم لمقابلة السفراء •

ولعل من أهم ما تضمنته مذكرات « غولمان » هو ما رواه عن موقف نوري السعيد من إسرائيل ، وأحاديثه الخاصة معه عنها • فهو يؤكد ــ بعبارة صريحة واضحة ــ « أن تصريحات نوري السعيد العلنية عن إسرائيل كانت تختلف اختلافاً شديداً عما كان يقوله في مجالسه الخاصة » ؛ وأنه كان يرى « أن وجود دولة اسرائيل حقيقة يجب أن تقبل » ، وأن رفع المقاطعة الاقتصادية سيعود بالفائدة على كلا الطرفين • كما يرى « غولمان » أنه كان هنالك كثير من التشابه بين آراء دالاس ، وزير الخارجية الامريكية ، وآراء نوري السعيد حول مشكلة فلسطين ، ويقول إن كليهما كان يفترض أن اسرائيل وجدت لتبقى ، ويؤكد على ضرورة التعاون بين الدول العربية واسرائيل في المجال الاقتصادي ولذلك كله ، فلا عجب ان يذهب غولمان الى القول في فصل آخر من مذكراته ــ لم يدرج في هذا الكتاب ــ بان « وفاة نوري السعيد كانت خسارة لاسرائيل أيضا » [1]

ويروي « غولمان » في مذكراته أيضا انطباعاته عن بعض الشخصيات العراقية التي اتصل بها ، أما وصفه لمقابلته الملك فيصل الثاني وعبد الاله مجتمعين ، فهو أشبه بفلم سينمائي دقيق ينبض بالحياة ، ويصور كيف كان الملك وخاله يعملان ، وكيف كان عبد الاله مستمراً في الحكم ، بالرغم من تولي الملك سلطاته الدستورية شكليا •

---

(١) ص ٢٢٥

وتكشف مذكرات « غولمان » أيضا ، عن الصراع الخفي الذي كان يدور بين البريطانيين والاميركيين في العراق ، والفصل المعنـون « البريطانيون في العراق » يحتوي على معلومات نادرة وطريفة في هذا الموضوع •

* * *

أما الأسلوب الذي اتبع في ترجمة هذه المذكرات فهو تحرّي الدقة التامة ،والامتنـاع عن أي تصرف في المعنى أو التعبير ، وهذا مذهبي في الترجمة ، سواء أكان الموضوع أدبياً أم سياسياً ، لأنني لا أعتقد أن من حق المترجم أن يغير شيئا من كلام المؤلف ، أو يضع على لسانه عبارات لم يقلها ، ففي ذلك خروج على الامانة ، وإهانة للمؤلف، وتضليل للقارىء •

وكثيراً ما نجد بين الكتب المترجمـة ما تنـاول فيه المترجمون عبارات المؤلف بالحـذف أو الزيادة أو التحـريف ، وسواء أاعترف المترجم أن ترجمته كانت « بتصرف » أم لم يعترف ، فلست أفهم كيف تسول له نفسه أن ينصب نفسه رقيباً على أذواق القـراء ، وانتـاج المؤلفين • وإن توخي الدقة في الترجمة لا يفيد مطلقاً أن الكاتب يتفق مع المؤلف في كل ما يقوله ، وفي فصول هذا الكتـاب عبارات يشقّ على قلم الكاتب العراقي والعربي أن يجري بها ، وأوصاف لمدن عراقية، أو شخصيات عراقية يحمل لها (المترجم) كل تقدير واحترام • ولكنه، في الوقت نفسه ، يرى أن القارىء العربي يجب ان يطلع ، بصورة دقيقة، على ما يكتبه الاجانب عنا ، وانه لتصرف أشبه بتصرف النعـامة حين نحذف الأمور التي لا تروق لنا منها ، أو نحاول منع نشرها ،فالكتاب ينشر في الغرب ، ويباع بعشرات الالوف من النسخ ، ويطلع الغريب ،

والعدو ، والصديق ، على ما يقال فينا ، ويبقى القارىء العربي جاهلاً ما يكتب عنه ، وهو أولى بالاطلاع عليه ، وأقدر على تمييز صحيحه من مكذوبه .

ويلاحظ القارىء اختلافا في تبويب فصول هذا الكتاب . وهو أمر طبيعي ، لأن الكتاب هو مجموعة من المذكرات مُستخرجة من كتب متعددة ، لكل منها اسلوبه في التبويب ، فمن أصحاب المذكـرات من يضع عناوين لكل فصل ، ومنهم من يشير الى بعض المصادر ويناقشها، ومنهم من يدوّنها على شكل يوميات . والأمانة في الترجمة اقتضت أيضا أن نحتفظ في جميع المذكرات التي يتألف منها هـذا الكتاب بشكلها الأصلي الذي صدرت به .

أما الهوامش فهي لأصحاب المذكرات حيثما جاءت غفلا ، أمـا هوامش (المترجم) وتعليقاته فهي مذيَّلة كلها بالاشارة الى أنها له .

* * *

ولا بد لي قبل أن أختتم هذه المقدمة ، أن أسجل شكري لعدد من الاساتذة والاخوان الذين قدموا لي مساعدات مختلفة في إعـداد الكتاب واخراجه .

فقد تفضل بقـراءة مسودات الكتاب الاستـاذ حسين جميل ، فأبدى ملاحظات قيّمة ، كما جلب انتباه المترجم الى عدد من الأمور المهمة ، وتفضل بعدة اقتراحات مفيدة . ثم تفضل بقراءتها الاستاذ محمد بهجة الأثري ، فصحح كثيرا من الاخطاء ، وأبدى ملاحظـات تاريخية ولغوية كبيرة الفائدة ، زادت المعنى جلاء وأزالت ما علق بالمبنى من شوائب . فاليهما أقدم جزيل شكري وامتناني .

وكذلك أسجل شكري لصديقي الألماني ـ الذي طلب اعفاءه من ذكر إسمه ـ للمساعدة الثمينة التي قدمها لي في ترجمة مذكرات « غروبا » عن اللغة الألمانية ، والى الدكتور محمد بديع شريف ،الذي تفضل بمراجعة بعض أقسام تلك المذكرات ، ومقابلتها بالاصل الألماني ، وابداء ملاحظات مفيدة عليها .

وانني لمدين بالشكر أيضا الى الاستاذ خيري العمري ، الذي قرأ جزءاً من المسودات ، وأبدى عليها ملاحظات مفيدة ، كما تفضل باعارتي ـ من مجموعته القيمة ـ عدداً من الصور التاريخية النادرة ، لنشرها في هذا الكتاب .

وانني لأعرب عن شكري كذلك الى اخواني الاساتذة محيي الدين اسماعيل ، وخلدون الحصري ، وبلند الحيدري ، وعبد الستار فوزي ، ونصير الجادرجي (وواو العطف لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا) على ما قدّموه لي من مساعدات قيِّمة مختلفة كان لها أثرها الجميل في إنجاز الكتاب ، ووقعها العظيم في نفسي .

وغنيّ عن البيان ، أن أولئك الاساتذة والاخوان الأفاضل لا يمكن أن يعدّوا مسؤولين عما تبقّى في الكتاب من أخطاء أو نواقص ، وعما ورد فيه من آراء ، فعلى (المترجم) وحده تقع تبعتها .

ولا بد لي أيضا أن أسجل شكري لموظفي مكتبة مديرية الآثار العامة ببغداد ، وموظفاتها ، لتعاونهم بتزويدي ما احتجت اليه من المراجع المختلفة، ومجموعات الصحف، وتفانيهم في تأدية عملهم بنشاط

وترحيب يشجعان الباحث في عمله ، مما يستحقون عليه كل تقدير ٠

* * *

وبعد ، فاذا وجد القارىء العربي في هذا الكتاب شيئا من متعة أو فائدة ، فانني أعده قد حقق غاية وأدّى رسالته ٠

برمانا في ٧/١٠/١٩٦٨

نجدة فتحي صفوة

مذكرات فردريك روزن

قنصل ألمانية في بغداد سنة ١٨٩٨

(١)

تعييني في بغداد – زيارة جديدة لمصر وفلسطين وسورية – تنظيم القافلة – المسيرة من دمشق الى الفرات عبر بادية الشام – تدمر – دير الزور

في أحد أيام كانون الاول من سنة ١٨٩٧ وجدت على مكتبي في وزارة الخارجية كتابا مختوما • فلما فضضته ، رأيت أنه ينبىء بتعييني قنصلا في بغداد ، وبضرورة سفري اليها بأقل ما يمكن من التأخر •

وكنت في تلك السنة قد حصلت على اجازة أمدها بضعة أشهر ، قضيت جانبا منها في ألمانيا،وما تبقّى منها أمضيته في انكلترة وفرنسة، وكنت خلال ذاك أحاول جاهداً أن أنقل من طهران الى بلد آخر ، لأن زوجي كانت تعاني من جوّ ايران شدائد متزايـدة • ولم يكن لي ، بموجب النظام المتبع في ذلك الوقت ، ان أطمح الى أكثر من قنصلية في احدى مدن الشرق ، وكان هذا في نظر معظم الدبلوماسيين في طهران يعدّ حطّا من شأني ، ولكنه في حقيقة الأمر كان ترقية ، وكنت أرحّب

بفكرة منصب مستقل في بلد ما من تركية [1] او مصر • وقد حاولت أن أتحاشى العودة الى ايران ، اذ كنت في أغلب الاحتمال سأستبقى فيها الى أجل غير معلوم • ولذلك طلبتأن يسند الي عمل ما في وزارة الخارجية ببرلين ، وكنت مسروراً بأنني سأقضي بضعة أشهر أخرى في الوطن بعد غياب زاد على سبعة أعوام • ومع ذلك فان فرحتي لم تدم طويلا •

غادرت برلين في ٣١ كانون الثاني من سنة ١٨٩٨ الى القسطنطينية، وفيها استفسرت من السفير ، البارون مارشال فون بيبرشتاين ، هل لديه فكرة عن الغرض من ارسالي الى ضفاف دجلة ؟ فوجدته لا يعرف عنه شيئا • ولا بد ان أذكر هنا أن امتياز بناء سكة حديد بغداد ، لم يكن قد منح لشركة ألمانية بعد ، بل أن الحكومة الالمانية لم تكن قد درست موضوع الامتياز وكونه مرغوبا فيه ، او ـ لا • ولم يبحث موضوع السكة الحديد معي أو يفاتحني فيه أي شخص رسمي، لا في القسطنطينية ، ولا ابّان اقامتي في بغداد •

وكان مدير الدائرة القنصلية في وزارة الخارجية ببرلين قد طلب الي أن أسلك الى بغداد أقصر الطرق وأسرعها،وكان يرفض حتى الاستماع الى فكرة سفري على الطريق البري ، لأن ذلك على قوله سيستغرق مدة أطول • ولكنه كان مخطئا ، فان تاجرا ألمانيًا غادر قبلي ، وسلك طريق مصر فعدن فبومبي فالبصرة ، ومنها بالباخرة النهرية الى بغداد ،

---

(١) يلاحظ ان المؤلف يقول : (تركية) كلما اراد الاشارة الى (الدولة العثمانية) ، وذلك ما جرى عليه كثير من الكتاب الاوربيين في الجيل الماضي .

(المترجم)

فاستغرق سفره مئة يوم بالضبط ، وبلغها بعدي بمدة طويلة • أما رحلتي فقد استغرقت خمسة وستين يوما • وقطع طيار انكليزي مؤخرا المسافة بين لندن وبغداد في أربع وعشرين ساعة ، وهذه الحقيقة تبيّن مدى تغيّر العالم •

ولم تكن لديّ معلومات دقيقة عن السفرة البريّة ، ولذلك أبحرت من القسطنطينية الى الاسكندرية • ومنها ذهبت الى القاهرة ، لأستشير صديقا رحل مراراً عديدة ، فأخبرني هذا بكل شيء عن المراحل والمسافات ، وزوّدني كثيراً من المعلومات عن البلد والناس • ومن القاهرة ذهبت الى بيروت برفقة دوق ساكس ــ كوبورغ ــ غوثا الشاب،ابن عم الملك ادوارد السابع وشقيق الملكة ماري ملكةرومانيا• وكانت رفقة ممتعة، ولكنها لم تطل، وأسفت أن أفارق الدوق ومرافقيه اللطيفين في يافا ، حيث واصل سفره منها الى القدس • ولم أره ثانية ، فقد قضى نحبه بعد ذلك بمدة قصيرة •

وكنت أنوي قضاء يوم أو يومين مع أصدقائي القدماء في بيروت، ولكنني تأخرت فيها عشرة أيام لاعتلال صحتي • ولم أكن قد أبللت تماما حين ركبت القطار الى دمشق • ان المركبة التي سافرت فيها الى دمشق قبل بضع سنين ، وكانت تسحبها الخيول ، حلّ محلها الآن قطار بطيء متلكىء • وكان السفر عليه أقل متعة • ومن الواضح أن انشاء هذه السكة لم يكن لمصلحة المسافرين بقدر ما كان لمصلحة مضاربي باريس الذين عيّنوا رجالهم واتباعهم الكثيرين مديرين ومفتشين في إدارتها • وكان بناء السكة رديئا رداءة ترى معها ركاب القطار يهتزّون ، كأنهم في سفينة صغيرة تعبث بها عاصفة ، على حين

كانت البضائع لا تزال تنقل على ظهور الابل •

وقد يكون مبعث تسلية لمن سافروا من سورية الى بغدادبالسيارة في الآونة الاخيرة في يومين أو ثلاثة ، أن يعرفوا أية عملية متعبة وشاقة كانت تلك الرحلة قبل سنوات قلائل • ولكنني أترك للقارىء أن يحكم أيتهما أجمل وأمتع : السفرة البرية مع قافلة ، أم طريقة السفر الحديثة؟

وقضيت في دمشق أياما قليلة ، في البيت العربي الجميل الـذي يسكنه صديقي القنصل الالماني هر ليوتك ، وعني بي طبيب أمريكي حاذق ، فتحسنت صحتي تحسنا يمكّنني من احتمال السفرة البرية • ولم يبق أمامي الآن الا ايجاد « مكارين » يتعهدون التسفير عبر الصحراء و « ما بين النهرين » حتى شواطىء دجلة ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير • وفيما كنت أتجوّل في الأسواق ، في أحد الايام ، طرقت سمعي أصوات مألوفة لديّ لمحادثة باللغة الفارسية ، فاذا تلفتُّ وجدتها صادرة عن بعض المكارين الفرس • ولم تبد عليهم أية دهشة حين خاطبتهم بلغتهم ، وقالوا انهم نقلوا بعض الحجاج الى دمشق ، وانهم يعودون الآن الى خراسان ــ في الشمال الشرقي لبلاد فارس ــ مارّين ببغداد • ولم تتأخر في التوصل الى اتفاق ، وتسويد مقاولة أصولية في القنصلية الالمانية • ولما ُعرف أن قنصلا ألمانيا سيسافر الى بغداد جاءني شابان من جوّابي الآفاق ، أحدهما فرنسي والآخر انكليزي ، طالبين أن يرافقاني ، فوافقت على ذلك ، وهكذا أصبحنا مجموعة دولية مختلطة من ثلاثة أشخاص ، ومعنا طبّاخ عربي ماروني استخدمته ، اسمه (طنوس) سبق له أن قام بمثل هذه الرحلة •

ولم نتأخر عن الموعد الذي ضربناه للمغادرة الا خمس ساعات •

ولم يكن ذلك كثيرا بالنسبة الى المرحلة الاولى من سفرة طويلة . وقد سبّب التأخير أول ما سبب محاولة المكارين الفرس بيع دوابهم صبيحة اليوم المحدد لسفرنا ، فاضطررنا الى القبض عليهم في سوق الخيل . ولما عاتبتهم على فعلتهم هذه ، اعتذروا محتجّين بالأسعار العالية التي دفعت اليهم ، اذ شقّ على أنفسهم أن يرفضوها بالرغم من الاتفاقية المختومة بيننا ، والعربون الذي قبضوه منا : « إنسان بَشَرَسَت ! »

وفي صبيحة يوم لطيف الجو ، ولكنه بارد ، من أيام آذار سنة ١٨٩٨ شققنا طريقنا خلال أسواق دمشق وشوارعها ، ثم توقفنا في الغوطة ، وهي منطقة البساتين المحيطة بدمشق ، لنودّع أصدقاءنا الذين خرجوا لتوديعنا.وكان يتقدم قافلتنا الصغيرة ستة من «الضبطية» ـ وهم رجال الدرك التركي ـ مع نائب ضابط . وكانوا منتصبين على صهوات خيلهم ، وقيافتهم النابية التي تحاول أن تكون أوربية تحسّنها بعض الشيء الكوفيّة التي على رؤوسهم ـ وهي غطاء الرأس البدوي المزوّق ـ يعقلها حبل من صوف غليظ موشّى بالذهب .

وكان المكارون الفرس الذين أنفقوا ساعات من صبيحة ذلك اليوم في ترتيب أمتعتنا وتحميلها ، يسيرون في صمت كئيب ، تقطعه أحيانا بعض الشتائم التي يلقونها على بغالهم ، تلك الشتائم التي لا تستطيع لغة غير الفارسية أن تعبّر عن معانيها الحادة العميقة ، كما أنهم تمنوا أن تتلوث قبور آباء الذين صنعوا هذه الحقائب وعلب البرانيط وصناديق البنادق وآلات التصوير الخ .. ذوات الاشكال النابية من أمتعة رفيقي سفري ، وان تحترق أجسادهم في الجحيم . والأمر نفسه ، بل ما هو أسوأ منه ، كان له أن يحل بآباء أولئك

السرّاجين الامريكيين لصنعهم هذه السروج التي استصنعها رفيقاي لهذه السفرة خصيصاً . والواقع أن الفرس كانوا مصيبين ، فان أمتعة صاحبيّ اللذين لم تكن لهما خبرة بالسفر في الشرق ، كانت غير عملية وغير متسقة . فاذا وجدت في أحد الجانبين قطعة ثقيلة،لا توجد مقابلها قطعة مناسبة تعدلها او تقاربها وزناً ، وكان يستحيل ربط قطع الامتعة الصغيرة بالسروج الخاصة بالبضائع ، كما أن السروج المصنوعة للركوب أحدثت ورما في ظهر كل دابة وضعت عليها ، وكان هذا مؤسفا حقا ، لأن دوابنا كانت ممتازة ، وقدرتها على الاحتمال عجيبة .

وكان علينا ، اذا أردنا اتباع الطرق المألوفة التي تسلكها القوافل ، أن نذهب شمالا حتى حلب ، ومنها الى «مسكنة» على الفرات ، ثم نسير محاذين لشاطئه مدة تزيد على ثلاثة أسابيع ، حتى نصل الى مكان يبعد عن دجلة وبغداد بمسيرة مرحلتين ، ولكننا وجدنا هذا طويلا جدا ، ففضلنا أن نقطع بادية الشام في خط مستقيم الى « دير الزور » ، على الفرات . وفي هذه الطريق آبار حفرتها « زنوبيا » ملكة تدمر (في القرن الثالث) ، ليجد المسافرون ماء في كل مرحلة ، كما أنها شيّدت أبراجا يهتدون بها ، وتقيهم المحيد الى طرق منحرفة تنتهي بهم الى نواحي قاحلة من الصحراء ، يفتك بهم فيها الظمأ والجوع والتعب . وقد اختفت هذه الابراج منذ عهد بعيد ، وكان أدلّتنا يروون كثيرا من القصص عن قوافل تاهت في الصحراء ، حيث كان البدو الرحل يعثرون احيانا على هياكل عظمية بشرية وحيوانية .

وبعد أن اخترقنا نطاق البساتين المحيطة بدمشق ، وهي غابة كثيفة من أشجار الفواكه تفتحت أزهارها ، سرنا في أرض محروثة ،

ولكنها قاحلة ، ونزلنا ليلا في بيت نظيف جدّا • ولم تبدأ الصحراء الحقيقية الا بعد المرحلة الثانية •

وكان منظر بادية الشام خيبة كبيرة لصاحبي رحلي ، فبدلا من الرمال الصفر التي تتخللها من وقت لآخر واحة من النخيل ، كان هنالك سهل لا نهاية له ، متموج تموّجا خفيفا ، تكسوه أدغال وأعشاب ، وكان في رتابته مملاّ جدا • وكلما اجتزنا مرتفعا صغيرا من الارض وجدنا خلفه مرتفعا آخر ، مشابها له ، ولم نر عند ارتقائه أكثر مما رأينا في السابق • وكنا نجد أحيانا على الطريق أزاهير مفتّحة من الشقائق الحمر • وقد جعلتني هذه الازاهير أفكر في رباعية لعمر الخيام أرويها كما ترجمتها حرفيا عن النصّ الفارسي :

كلّ تربة نبتت فيها اليوم أزهار الشقائق
لا بدّ أن أريق عليها يوماً دم ملك من الملوك
وكل بنفسجة تفتحت من الارض
لا بدّ أنها كانت يوما خالا يزين وجه حسناء

وكان رفيقا سفرى يدعيان المسيو (ت) والمستر (هـ) • وكان (ت) فرنسيا ، يمازجه شيء من الدم الأجنبي فيما أظن ، وكان يعرف الانكليزية والالمانية ، ولكنه يفضّل التحدث بالفرنسية ، وقد سبق له أن ساح في أنحاء العالم كله ، وكان يجيد التصوير بالألوان المائية ، وله ولع شديد بالصيد • أما (هـ) فكان اسكتلنديا ــ فيما أظن ــ لطيف الطبع ، كبير الميل الى الموسيقى • ولكن لغته الفرنسية كانت ثقيلة يصعب احتمالها في سفرة طويلة • وكان طيب القلب لطيف الطبع ، وقد قام برزم أمتعته صاحبه ، وكان من (ت) بمثابة الخادم • وكنت حين

أظفر به منفردا أحادثه بالانكليزية ، فأريح بذلك سمعي قليلا • وكنت منسجما معهما للغاية •

وكان المكارون ممتازين • وانه لمنظر طريف أن ترى ستة من الفرس بطاقياتهم المخروطية من اللباد ، ونعالهم الفارسية البيض ، يسيرون مع بغالهم الضخمة في بلد لا يعرفون عنه شيئا ، ولا يرغبون في معرفة شيء • انهم لم يعرفوا ولا كلمة من العربية ، ولم يلتفتوا الى شيء يقال لهم بتلك اللغة • وكان العرب يعدّونهم سمجين غير مؤدبين وغير متحضرين • وكثيرا ما سمعتهم يقولون : « ما فيش ناس أبرد من العجم » • والصديق الوحيد الذي كسبوه في البلد هو كلب سائب كانوا يطعمونه ، فصار يتبعهم أينما ذهبوا • وقد سألوني أن أقترح للكلب اسماً ، فاخترت أسماء عدد من أشهر أبطال الفرس •• ولكنهم أخيرا أسموه : « نان دوست » ــ أي صديق الخبز ــ لأنه لم يتبعهم الاّ بسبب قطع الطعام التي يلقون بها اليه • ولما طالت المسيرات كثيرا ، تلكأ « نان ــ دوست » ثم تخلف ، وربما عاد الى قريته التي جاء منها •

وفي اليوم السابع عشر سرنا اثنتي عشرة ساعة عبر سهل قاحل يشابه سهول فارس دون أن نصادف بشرا • وفي الغسق بلغنا قرية تسمى «القريتين» ، فنزلنا في دار « الآغا » ــ أو الرئيس ــ « فارس اغا فيضي » الذي استقبلنا بحفاوة • وهو بدويّ مديد القامة بهيّ المنظر ، يحكم داره وقبيلته كبطريرك من بطاركة الكتاب المقدس • وقد قادنا ، ممسكا بيدي ، ومخترقا قاعة حجرية زينت بتماثيل جلبت من خرائب تدمر ، الى غرفة استقبال مؤثثة بأثاث أوربي • وبعد تحيات

متكررة ، وفناجين عديدة من القهوة ، صحبنا الى غرف نومنا ، حيث وجدنا أسرّة أوربية وعربية جيدة . فغيّرنا ملابسنا وقد رويت بماء المطر خلال الساعة الاخيرة من مسيرتنا ، ثم دعينا لتناول العشاء ، فاستغرق منا وقتا طويلا ، اذ قدّم بطريقة شبه أوربية ، وقد أعجبني أكثر مما أعجب رفاقي . ولم يجلس معنا على العشاء أحد غير الشيخ ، ووقف في خدمتنا نحو من اثني عشر بدويا على رؤوسهم كوفيات بيض وعقل سود ، وكانوا جميعا اخوته وأبناء عمومته وأبناء اخوته .. الخ.

وكان الحديث خلال العشاء مسليا جدا . وقد سألنا الشيخ عن قومياتنا وأدياننا طبعا ، واستغرب كثيرا أن يستطيع أناس من قوميات وأصول مختلفةالسفر معا .وحاول أيضا ـ ولكن عبثا ـ أن يستدرجني الى نقاش فيموضوعات دينية : « هل كانت مريم ،أمّ المسيح ، متزوجة أم غير متزوجة ؟ »

قلت : انني أقمت في القدس قبل سنوات عديدة . ولكن مريم ، أم المسيح ، عاشت هناك قبل زماني !

ولم نبدأ مسيرتنا في صباح اليوم التالي قبل الساعة السابعة بطبيعة الحال ، ولكن قافلتنا بدأت بداية طيبة . وقبل الرحيل تناولنا الشاي والبسكويت ، وكان الشيخ نفسه يقدمها الينا في باحة أمام داره، وهو محاط برجاله من البدو بأزيائهم الزاهية . وكان هو معتمرا بطاقية بيضاء ومرتديا « روب دي شامبر » أوربيا أنيقا .

ولما خرجنا من القرية ، شاهدنا مئات من جثث الجمال والحمير والغنم والمعز طريحة على الطرق في كل ناحية . فقد انتشر هناك وباء من أوبئة الماشية ، وحدث محل عظيم ، فقضيا على ماشيتهم كلها تقريبا.

وكان منظرا فظيعا ، اذ لم تكن ثمة كلاب وبنات آوى كافية لتأكل لحوم هذه الحيوانات الميتة .

وكانت مسيرة اليوم الثامن عشر طويلة ، وكان لا بدّ من السير اربع عشرة ساعة قبل أن نبلغ البئر التالية وسط صحراء قاحلة . وكان حرّاسنا يتألفون من ستة من البدو ، ذوي منظر جذاب ، يمتطون أفراسا جميلة . وكان رئيسهم « عبد القادر » شقيق « فارس آغا » شيخ « القريتين » يستطي فرسا مديدة القامة جميلة ، تساوى مئتي ليرة تركية ، وكانت تدعى « الصقلاوية » ، ولم تكن لتربط قطّ ، بل تسرح طليقة ، وكانت تفهم كل ما يقوله لها سيدها .

سألت عبد القادر هل تصنع نساؤهم سجّادا أو غيره من المنسوجات مثل بدويات الفرس ، فكان جوابه معبّرا عن خصال الأمتين : « لا ، والحمد لله » . فمفهوم السعادة لدى جميع الامم السامية البدائية ، هو عدم الاضطرار الى العمل، والعمل – كما جاء في الكتاب المقدّس – عقوبة الخطيئة .

ان المهمة الأولى للحرس الذي يرافق المسافرين هو الحصول على « البقشيش » ، والا فان عددا أقلّ من هؤلاء كان كافيا . وكان ما يدفعه الفرد لكل منهم « مجيديا » واحدا في اليوم ، واثنين لرؤسائهم، وهذه العادة كانت سائدة في الشرق كله .

شاهدنا بعد الظهر ألوفا من الغزلان ، ولكن عن بعد ، لأنها كانت نافرة خجولة ، وكنت قد رأيت مثل هذا العدد من الغزلان قبل هذا في مناسبة واحدة فقط ، على حدود صحراء الملح الكبرى في ايران .

ولما شارف المساء ، بدأ المطر يهطل ثانية ، وواجهنا شيئا من الصعوبة في الوصول الى دار الحراسة الصغيرة القائمة وحدها ، حيث كنا سنقضي الليلة . وقد أوشكنا أن نضل الطريق بعد أن لمحنا ناراً بعيدة . والظاهر أن أحد حرّاسنا ذهب الى هناك ، ولم يعد ، ولا نعرف ماذا جرى له ولحصانه ، فان أقرب بئر كانت تبعد زهاء ستين كيلو مترا عن المكان الذي رأيناه فيه للمرة الاخيرة . وكان هذا الحارس قد تطوّع ان يحمل عنى رمحا طويلا جلبته من دمشق لأتخذه سارية لعلم مخيمنا ، « فلم أر الفرس ولا الفارس بعدها ! »

وأدركنا الظلام ، وأصبحت الطريق غير لاحبة ، حتى لقد كنا عاجزين عن السير مجتمعين الا باطلاق الرصاص من بنادقنا لندلّ على مكان كل منا . وكان الظلام كثيفا حين وصلنا أخيرا ـ في الساعة السابعة مساء ـ الى « العين البيضاء » وهي بناية صغيرة مهجورة نزعت أبوابها واطارات شبابيكها وجعلت وقودا منذ عهد بعيد .ووصلت قافلتنا بعدنا بساعة واحدة ، وقد بللها المطر ، مهتدية بالنار التي أوقدناها على سطح « القشلة » . وهذه الابنية تشابه ما يسمى في ايران « جبار ـ خانه » ، تكون فيهادائما غرفة علوية صغيرة على السطح « بالآ ـ خانه » . وقد نزلنا فيها بعد أن أغلقنا ما استطعنا من شبابيكها . أما « العين البيضاء » فلم تكن غير بئر من الآبار التدمرية أو الرومانية . وكانت فوهتها من المرمر الابيض الذي بدت عليه أخاديد عميقة ،حفرتها الحبال التي علّقت بها الدلاء خلال القرون الستة عشر الاخيرة .

ولم نغادر قبل الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي (١٩ آذار) لأن المطر كان ينهمر بشدة . وكانت ريح شرقية قوية ترشق المطر

على وجوهنا حين بدأنا مسيرتنا • ولكن الخيل مضت بخفة زائدة ، فأوصلتنا الى تدمر في وقت مبكّر ، وكان هذا امرا غير معتاد ، لأن انعدام الامن في الطريق ، وخطر المحيد عن الطريق الصحيح ، جعلانا لا ندع القافلة تغيب عن أنظارنا •

وكان الدخول الى تدمر رائعا • فقد مررنا بما يشابه بابا من التلال المنخفضة ، يتفتح فجأة عن سهل فسيح تغطيه المعابد ، وعديد من الاعمدة المرتفعة • ان القسم الأهم من قرية تدمر الحالية يقع في زاوية معبد الشمس الكبير • وهذه الآثار الباقية من عاصمة الملكة زنوبيا ـ التي كانت مزدهرة يوماً ما ـ تتوهج جميعا بحمرة ذهبية خفيفة تنعكس عليها من الصحراء المحيطة بها • وبين الأعمدة المحيطة بالطريق العام عمودان منحوتان من قطعة واحدة من حجر « السينة » ـ التي لا يمكن الا أن تكون مجلوبة من « سينة » ـ « أسوان » الآن ـ على النيل العلويّ ، وعجزنا أن نفهم كيف أمكن نقل هذه المواد الجسيمة الثقيلة برا وبحرا عبر هذه المسافة البعيدة كلها •

وفي تدمر حللنا في دار « الشيخ » ، وهو رجل جمّ الأدب ، تعود استقبال الاوربيين ، اسمه محمد بن عبدالله •

وللشيخ قصة شعرية • فقد عمل دليلا لسيدة فرنسية غنيّة ،وكان معها يوما في وسط الصحراء فظهرت لهما من الجهة اليمنى فجأة سحابة من الغبار ، فكان تفسير الشيخ : « هذا غزو ! »

« بحق الله أنقذني ، وسأعطيك كل ما أملك ! »

فاستلّ الشيخ سيفه ، وهجم على الغزاة ، وجعل الفرسان الخمسين الذين تألفت منهم العصابة يلوذون بالفرار • ولم يكد يرجع الى

« المستجيرة به » الا ظهرت سحابة أخرى من الشمال ، قوامها خمسون بدويا أيضا • وبعد ان شتت بسالة الشيخ محمد هؤلاء أيضا ، خرّت السيدة على ركبتيها أمامه ، قائلة ان كل ما تملكه لن يكفي لمكافأته على انقاذه حياتها بهذه الجرأة ، ولذلك فانها ستجعل من نفسها هدية لمنتقذها ، وكذلك فعلت • وقد سددت أيضا ما تحمّله الشيخ من نفقات حين استأجر مئة من أصدقائه لتدبير الغزوتين ، وان لم تكن لديها ــ طبعا ــ فكرة عن الغرض الذي أنفق المال لأجله • ثم أخذت صديقها معها الى فرنسا بلباسه العربي الزاهي ، وأرته معرض باريس ، وكذلك وهبته ما بنى به الدار الحجرية التي كنا ضيوفه فيها •

ولقد وجدت محمد عبدالله أقل طرافة وجاذبية من شيخ « القريتين » ، كما أن الطعام ومحل الاقامة عنده كانا بدائيين جدا ، فكنا نتناول طعامنا في غرفة نومنا ونحن جلوس على كراسي منخفضة حول مائدة مستديرة منخفضة أيضا ، ومعنا الشيخ ، وأخوه عبد القادر ، وابراهيم أفندي ، مدير ناحية تدمر • وكان الماء المحتوي على الكبريت الشراب الوحيد على المائدة •

ان الماء في تدمر بأجمعه ، بل وجود الواحة نفسها ، كان قائما على عين الماء الكبريتي المشهورة فيها • وقد زرنا هذه العين ، بعيد وصولنا الى تدمر ، واستحممنا فيها زاحفين خلال ثغرة في التل الذي تنبع منه حتى بلغنا كهفا ، فأخذنا نسبح فيه ، لان أقدامنا لم تعد تطأ قاعه ، وقد حملنا معنا شمعة ثبتت على لوحة ، لاضاءة الكهف الذي لم يصل اليه النور من الخارج • ومكثنا في هذا الحمّام الكبريتي الدافيء بصورة طبيعية أطول مدة مستطاعة ، وعكفنا على هذه المتعة عدة مرات

في اليوم ، طوال بقائنا هناك •

وقررت أن أضع يوما للراحة من السفر ، أتيح فيه لـ (ت) ــ الرسام الفرنسي ــ فرصة لرسم بعض الصور المائية للاطلال • وفضلا عن ذلك فان يوم ٢١ آذار هو يوم النوروز ، عيد الفرس الكبير ، ومطلع عامهم الجديد الذي يصادف بداية الربيع • وقد منحت المكارين خروفا وشيئا من الرز ليحتفلوا بعيـــدهم • وكان من الغريب أن الحظ منهم قلّة امتنان لالتفاتتي اللطيفة هذه ، ولا بد أنهم ارتابوا في أنها خطة لئيمة من جانبي ، كاستقطاع المال الذي أنفق على احتفالهم بالعيد من أجرة بغالهم • ولم أتمكن من اقناعهم الا بشي من الجهد ، وانتهــى الامر بأن دعوني الى تناول كأس من الشاي معهم •

لقد جوّلنا كثيرا بين الآثار والخرائب ، وأعجبنا اعجابا خاصــا ببقايا معبد (آبولون) الضخم ، الذي يقوم على احدى زواياه معظم تدمر الحالية ، وهي مجموعة من الاكواخ البائسة • وقد داعبت سكانها مقارنا أكواخهم بما خلّفه أسلافهم من آثار رائعة ، ففسروا لي علــة عجزهم عن محاكاتها قائلين : ان هذه الابنية أقامها سليمان ــ عليــه السلام ــ وقد كان سليمان ملك الانس والجن والحيوان ، وكــان يسهل عليه أن يقيم مثل هذه الأبنية ، فما عليه الا أن يأمر الجن بجلب المواد من كل أنحاء الارض ، ثم يأمرهم بوضعها بعضا فوق بعــض بحسب مشيئته •

وغادرنا تدمر في ساعة مبكرة من يوم ٢٢ آذار ، شاكرين مضيفنا على حفاوته • وكنت قد سألت بعض اصدقائي الذين قاموا بهذه السفرة من قبل كيف أستطيع أن أجزي « الشيخ » على ما تكبده من عناء ومال،

فقيل لي ان عليّ أن أضع بضعة جنيهات ذهب في يد الشخص الـذي سيمسك بزمام فرسي حين أهم بالركوب مغادراً • وكان علي أن أفعل هذا بطريقة تمكـّن « الشيخ » من عد الجنيهات ، ليستعيدها من خادمه بعد ذهابنا • وقد نفـّذت هذا بما يرضي جميع الأطراف المعنيـّة •

والمسافة من تدمر الى الفرات أقصر قليلا من تلك التي قطعناها من دمشق الى تدمر • وكانت الصحراء تبدو قاحلة ومهجورة أكثر من قبل ، والمراحل مع ذلك كانت أكثر تباعدا بعضها عن بعض • وقـد حسبت المسافة من « سخنة » ــ وهي قرية فيها عين كبريتية حارة ــ الى « بئر قباقيب » فكانت ١٩ فرسخا ، أو ساعة تركية ، أي ما يساوي ٩٥ كيلو مترا • ولذلك كان علينا أن نغادر في منتصف الليل متلمسين طريقنا بين أزقة القرية الملتوية • ولما خرجنا منها وأصبحنا في العراء ، لم تبق لدينا فكرة عن الاتجاهات • فليس هناك أثر من أشعة الغسق في الغرب ، ولا بصيص من غبش الفجر في الشرق • وبينما كنت أحاول تعرّف الاتجاه بـ « البوصلة » ، جاءني رئيس المكارين ، وطلب أن أدع الحصان الاكبر في قافلتنا يتقدم ليهدينا الى الطريق • وكان مهرا أبيض قويم الجسم بديع التكوين ، وكان يحمل ــ دليلا على نبـل محتدة ورفعته ــ جلجلين كبيرين لهما رنة عميقة عذبة • ولم تكـد الدابة تجتازني الا اتجهت وجهة حسبت أنها ستعود بنـا الى تدمـر ولكن المكارين الفرس أكدوا لي صحة الاتجاه ، بحجة أن حصانهـم له في ادراك الاتجاهات ذاكرة لم تخنه قط • وهو اذ قطع الطريـق من الفرات الى دمشق ، لا بد واجد طريقه في العودة •

وفي اليوم الرابع والعشرين من آذار طرقت أسماعنا أصـوات

النواعير التي يستعين بها السكان لرفع المياه لاغراض الري ، وذلـك قبل أن نشاهد آثار النبت الضئيل الذي ينمو على ضفتي الـفرات . وأخيرا بلغنا بلدة « دير الزور » الصغيرة قبل الظهر ، ونزلنا في الدور الملحقة بالكنيسة الارمنية ، ثم زرنا متصرف الدير « زهدي بك » وكان معروفا في سورية كلها بنزاهته وحسن ادارته لمنطقته . ومما أنجزه فيها جسر حجري على نهر الفرات الذي يشطر المدينة شطرين ، وعدد من الابنية الحجرية للاغراض العامة . وقد استقبلني بكثير من المجاملة ، وسره أن يسمع ثناءً على جهوده في تحسين أحوال منطقته . ووعدني أن يهتم باصلاح طريق الصحراء بين دمشق والفرات ، وترميم الآبـار والقلاع الصغيرة التي اختفت . وقد أهديت له كتابا يحتوي على خارطة تبين هذه المواقع . على أن هذه الافكار الممتازة لم يتحقق شيء منها ، لانه ذهب ضحية دسائس مصدرها جواسيس عبد الحميد الذين أرسلهم الى الدير . ففي تلك الايام لم يأمن أي موظف على منصبه . وكـان الكثيرون يفضّلون قضاء الليل في مكاتبهم على أن يجدوا أحد منافسيهم يحتلها صباحا .

(٢)

الملاحة البدائية – هجوم قبيلة من البدو – التخلص بمعجزة – عانة – هيت – الفلوجة

لما كنا نجوّل على شاطيء النهر شاهدنا عدداً من السفن البدائية المستوية التي تستعمل لنقل الاخشاب من غابات الطرفاء الصغيرة قرب « دير الزور » الى وادي الفرات الاسفل ، حيث ينعدم الوقود ، فاستأجرنا سفينتين منها ، احداهما لي ، والاخرى لرفيقي سفري ، وكانتا مربوطتين احداهما بالاخرى . ويقود هذه السفينة ذات الشكل المربع ثلاثة رجال يحملون قضباناً طويلة يغرسونها في أقسام الماء التي يشتد فيها التيار . وبالرغم مما أظهره اولئك الرجال من بعض المهارة والخبرة في عملهم فان الحركة كانت بطيئة جداً ، لا تتجاوز كثيراً سرعة قافلة جيدة السير ، ولكن مزيتها كانت أن دوابنا استطاعت أن تسير على الشاطىء وهي غير محمّلة بشيء ، فقد نقلنا أمتعتنا كلها معنا الى السفينة .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، ودعنا القسوس الارمن

الذين حاولوا أن يبتزوا منا مبالغ كبيرة من المال ، بحجة أن كنيستهم نهبت في أثناء مذابح الارمن الكبرى منذ أكثر من عام . والواقع أن الارمن قد عانوا بصورة فظيعة فعلا في سنة ١٨٩٦ ، وأن كثيرين منهم لقوا حتفهم بأيدي غلاة المسلمين . وقد حاولنا في النهاية أن نعبّر عن أسفنا وعطفنا على اخواننا المسيحيين بأن ندفع لهم بقدر ما نستطيع الاستغناء عنه ، ولكن كرمنا لم يقنعهم قط .

وفي صباح ٢٧ آذار ، شاهدنا قافلتنا تسير على الشاطيء الايسر من الفرات ، ولم يبد على المكارين أثر من امتنان لتخفيفنا عنهم ، وجعلهم يقومون بنصف السفرة تقريبا بدون أحمال . ولعل الشكوك خامرتهم بأننا سنقتطع شيئا من الاجور المتفق عليها في العقد . ولكنهم تركوا « البشكاه » تتقدمهم ، والدواب الاخرى تتبعها .

وكانت الملاحة في النهر بطيئة جدا ، ولكن لم تكن هنالك واسطة أخرى تستطيع أن توصلنا الى بغداد قبلها بيوم واحد ، ولم نر في النهر ناقلة أخرى ، الا بضع سفن بدائية ، كالتي تحملنا ، بالرغم من أن سفينة بخارية ذات قعر مستو تستطيع أن تذهب حتى « مسكنة » ، وهي نقطة لا تبعد عن البحر المتوسط كثيرا . وأحسب أن ندرة الملاحة تعود أولا الى انعدام الامن في البلاد . وقد مررنا ببعض القرى الكبيرة ولكنها كانت قليلة ومتباعدة ، وأحيانا كنا نصادف ناعورا يشق بصريره المرتفع سكون البرية الكئيبة المهجورة . ولكن الاوشال التي يحملها لم تكن لتكفي الا لسقي حاشية صغيرة من الارض في نهاية الاخاديد التي شقها النهر . ومهما جنى الفلاحون المساكين أنصاف البدو من أتعابهم في الزراعة ، فان عليهم أن يشركوا في غلتهم البدو الذين يتنقلون في

الصحراء لاقتناص « الخاوة » من المقيمين ، فضلا عن الضرائب الثقيلة التي تجبيها منهم الحملات الحكومية • وكانت البلاد بصورة عامة مهجورة ، حتى لقد رأينا كثيراً من الخنازير البرية تنزل الى الساحل لارواء عطشها •

اننا طالما ضحكنا من الاوصاف التي قرأناها في كتب الرحلات ـ وكان لدينا الآن متسع كبير من الوقت لقراءتها ـ كما أننا سخرنا من اصرار المتصرف على ارسال حرس من « الجندرمة » ـ الدرك ـ لمرافقتنا في السفر • ولكننا في احدى الليالي وجدنا أن مخاوف المتصرف كان لها ما يسوّغها •

كنا قد أوينا الى فرشنا حين سمعنا أصواتا من ضفة النهر اليمنى تطلب الينا الوقوف • فلما استفهمنا جلية الأمر أخبرونا انهم يريدون أن يجبوا منا مكسا من (الحبوب) وقالوا انهم سيطلقون علينا النار اذا مضينا في السير ، وعلى أثر ذلك سمعنا صوت بندقية تطلق من الجهة اليمنى ، وبدا لنا أن أشخاصا يتابعون سفينتنا التي كانت تنحدر ببطء نحو فرع ضيق من النهر ـ وضحل كما رأينا فيما بعد ـ ، فحاولنا أن نعود الى منتصف النهر ، وفي هذه المرة كان سكان الضفة اليسرى من النهر ـ أو سكان جزيرة طولها عدة أميال ـ قد هاجوا ، واشتركوا في الصياح : حَبّ ! حَب !

وكان التيار ضعيفا ضعفا جعل الاسراع في السير مستحيلا ، على أنني لم أحسب الامر خطيرا ، فاستلقيت ثانية تحت الغطاء أو الخيمة التي نصبت لي على ظهر السفينة • ولكن الأصوات ازدادت اقترابا ، وتعالت ، وأصبحت في الوقت نفسه أكثر تهديدا • وفجأة انهال علينا

وابل من الأحجار وكرات الطين الكبيرة ، سقط بعضها على فراشي •
وخلال ذاك تمكنت جماعة من أشخاص ذوي منظر أشبه بالمتوحشين ، أن تسبح مستعينة بجلود منفوخة ، وتصل الى سفننا محاولة تسلقها ، فأصيب أحد نوتيتنا بجرح في وجهه من ضربة رمح ، وتلقى آخرون ضربات من هراوات تحمل في أحد طرفيها كرات من القار الصلب[1] •
ومع ذلك فقد دافع رجالنا عن أنفسهم وانتزعوا من يد رئيس المغيرين رمحه الذي ما زلت احتفظ به تذكارا •

وبعد أن قفزت من فراشي ، وتسللت من تحت ما كان أشبه بالخيمة ، وجدت الاعراب محيطين بنا من كل جانب ، وكانوا ــ لحسن الحظ ــ مسلحين بالرماح والهراوات فقط • وكانوا جميعا عراة ،وبيد كل منهم جراب منفوخ يستعين به على السباحة كلما زاد عمق الماء عن طوله • وكانوا مجتمعين بعضهم على بعض حتى بدا النهر وكأنه مملوء بهم • وفي تلك اللحظة أخذ شيخهم يهزج بأنشودة الحرب : « الله قوّينا عليهم ! » فردد الاخرون : « يا رب قوينا عليهم » • وبينما كان خادمي يخرج طلقات بندقيتي من مكانها ، كنت أقطع الخيوط عن لفافة تحتوي على السيف الذي هو جزء من بزتي الرسمية • فالعدو لن يعرف انه سيف أصم ، وقد أفاد فعلا في الضرب على مفاصل المغيرين كلما وضعوا أيديهم على حافة السفينة • ويبدو ان جميع الجهود التي بذلناها لتفادي اصطداح مسلّح لم تجد نفعا • فقد جادلنا ، وهددنا ،

---

(١) تعرف هذه الهراوات في العراق باسم (المكوار) واصلها (المقوار) ، مشتقة من القار الذي يوضع في أحد طرفي الهراوة القصيرة مدببا . (المترجم)

وأطلقنا النار في الهوا ، ولكن الجماعة الهائجين ازدادوا اقترابا منا بعد كل مقطع من أنشودتهم الحربية •

واستنفدت كل بلاغتي العربية دون أن أستطيع منع رفيقي من ارسال طلقتين من خيرة عتاد الصيد على اثنين من رؤوس المغيرين • ومن المدهش أن أثر ذلك فيهم كان واهيا • وكل ما فعلوه هو أنهم غطسوا في الماء لحظة ، ثم ازدادوا هياجا وغضبا • وكانت أصوات البنادق قد اجتذبت مزيدا من الناس ، وأصبحت الحالة خطيرة الى حد بعيد •

وكانت أنشودة الحرب : « الله قوينا عليهم ! » تتردد من جميع الجوانب ، وبصعوبة كبيرة تمكنت أن أمنع أحد رجال الدرك عن اطلاق بندقيته العسكرية على زمرة من الرجال كانت واقفة في الماء الضحل الذي بلغ ركبهم على بعد ثلاثة أذرع فقط •

ومن حسن الحظ أن دخل للوساطة بيننا في هذه اللحظة صاحب سفينة أخرى كانت ترافق سفينتنا حتى الان ، حاملة ثلاثة من الدراويش فقفز الى الماء وجذب رئيس الجماعة المغيرة علينا من يده الى سفينتنا ليريه أننا لا نحمل حبوبا • ثم قال لهم اننا أجانب مسافرون الى بغداد ، ولا نحمل أية بضائع • فلم يكن الشيخ ليصدق ، بل أراد أن يرى بعينيه ولكنه رفض أن يصعد سفينتنا الا مصحوباً بعشرة من رجاله ، ثم اقترح أن نبقى في مكاننا حتى الصباح ، حيث تسهل عليه رؤية ما في السفن • وقد استمرت هذه المفاوضات أكثر من ساعة ، وكانت تسودها بصورة عامة روح من الود والتفاهم المشترك بين الجانبين : الملاّح والشيخ ، وهما واقفان في الماء وأحدهما ممسك بيد الاخر ، وان كانت تقاطعهما أحيانا بعض المحاولات العدوانية المتفرقة ، أو مقاطع جديدة من أنشودة

الحرب . وكان الشيخ يستشير من وقت لآخر المسنين من قبيلته ، ثم يعود حاملا مطاليب جديدة من الحبوب تعويضا عن جرح اثنين من رجاله . وعلمنا خلال المحادثات ان هذه القبيلة تدعى (أبو حمام) ، وأن أفرادها أنصاف بدو ، ولكنهم يمارسون أيضا شيئا من الزراعة في البقعة التي ينحسر عنها النهر عند انخفاض مياهه . وكانت هذه القبيلة تجبي اتاوة من جميع السفن المارة ، كما أنها هي نفسها تدفع اتاوة الى القبيلتين البدويتين القويتين « شمّر » على الضفة اليسرى من النهر ، و « عنزة » على اليمنى ، فضلا عن الضرائب التي تجبيها الحكومة التركية .

نصحني جميع العرب في ركبنا أن أصفّي الامر مع قبيلة (أبي حمام) بدفع شيء من المال ، وراحوا يفاوضونهم على ذلك ، ولكن هؤلاء لم يعرفوا العملة الذهبية ، ولم يقبلوا الليرة التركية ، وألحّوا على « المجيدي » الفضة الذي لم يكن معنا منه الا القليل . فقررت أن نمضي في سيرنا بالرغم من تحذير الجميع بأننا لن نستطيع ذلك دون اراقة دماء .

وكانت سفننا خلال ذلك قد انحدرت تدريجيا مع التيار ،وابتعدت قليلا عن مقر القبيلة ، وقد بدا رجالها أقل تصميما على اعادة هجومهم بسبب الاسلحة التي شاهدوها في أيدينا ، أو لان جرحاهم أخذوا الآن يشعرون بآلامهم . ومع ذلك بقينا ملاحقين مدة أخرى ، ولكننا لما خرجنا من الممر الضحل ، ودخلنا التيار القوي للنهر الاصلي ، انقطع الازعاج ، وتضاءلت أنشودة الحرب شيئا فشيئا .

وكانت جماعتي تحثني على تقديم احتجاج على قبيلة (أبي

حمام) لمطالبتها بالاتاوة ، ولجوئها الى العنف ، ولكنني لم ألق الى هذه الفكرة بالا ، لانها لن تؤدي الا الى تجريد حملة من الجنود والمتطوعين الذين سيعتصرون آخر قرش لدى اولئك البائسين الذين كان فقرهم — الى حد كبير — نتيجة لسؤ ادارة تلك الحكومة التي ستكون مستعدة لمعاقبتهم •

ومرت الايام التالية من غير حادث ، وأخذ الجو يزداد حرارة ، وقد تمتعنا بالسباحة يوميا في مياه الفرات الصفراء • وكانت احدى المحطات التي مررنا بها ، وهي « الكائن »[1] تتألف من قلعة طينية صغيرة وحاميتها قوامها رجلان • وقد شاهدنا أمامها أناسا كانوا من أفقر من رأينا في رحلتنا ، فهم يعيشون في حفر احتفروها بأيديهم في الارض الطينية ، ونشروا عليها قطعا من أقمشة الخيام الغبر البالية اتقاء للشمس • وكان الرجال انصاف عراة والاطفال عراة تماما ، تكسو جلودهم الأقذار والاكزيما •

وحين استدرنا في صباح اليوم الحادي والثلاثين في زاوية حادة تحيط بتل صخري تتوجه قلعة ، وجدنا أنفسنا فجأة في منطقة ذات طبيعة مختلفة كل الاختلاف عن الارض التي اجتزناها بعد دمشق • وكانت أمامنا قرية (عانة) التي تمتد طويلا ، وهي عبارة عن بستان من النخيل وأشجار الزيتون يحيط بالساحل الصخري للنهر على امتداد البصر • والنواعير الكبيرة التي تتقاطر منها المياه كانت مغطاة بحشائش السرخس • وكانت القرية تمتد أميالا عديدة في جانبي النهر ، ولكنها

(١) كذا وردت في الاصل ، ونعتقد ان المؤلف يقصد (القائم)
(المترجم)

لا تحتل الا الحاشية الضيقة بين الصخور ونهر الفرات ، اما السهل الصحراوي فيبدو أنه انتهى .

وكان قائم مقام (عانة) رجلا متقدما في السن ، لطيف الطبع، وقد ساعدنا في زيارة الآثار التاريخية لهذه المدينة القديمة . وكان معظمها من عهد الحكام الفرس الساسانيين (٢٢٦ ــ ٦٤١) الذي سبق الحكم الاسلامي . وتقع أجمل الابنية في الطرف الشمالي لجزيرة في النهر تبدو كأنها مؤلفة من مساقط الماء فقط . وفي صبيحة سفرتنا كانت القلعة الساسانية القديمة التي تتوهج بأشعة الشمس وهي تبزغ ، تؤلف منظرا رائعا حين انطلقنا مع النهر في سرعة غير مألوفة . وكان علينا أن نذهب الى الطرف السفلي من الجزيرة الطويلة حيث كان النزول محاطا بشيء من الصعوبة . وبعد أن تسلقنا بضعة جدران عالية دخلنا غابة لطيفة من النخيل وفي وسطها برج مثمن الزوايا . ومن قمة هذا البرج تمتعنا بمشاهدة منظر بديع للجزيرة وضفاف النهر ببساتينها وخرائبها ، وكانت جميعا أشبه بأحد المناظر الطبيعية التي تشاهد في التصاوير . وأغلب الظن أن هذه الجزيرة هي أقدم أقسام (عانة) التي عرفت في تلك العهود القديمة . وقد ذكرها « كزينوفون » ، وعلى صخورها فقد الامبراطور الروماني « جوليان » أسطوله النهري . وكان الشيخ الذي رافقنا يعزو كل بناء قديم الى الملوك الساسانيين ، وخاصة بقايا جسر قديم كان في السابق يربط الجزيرة باليابسة . وكان جوابه الرتيب عن أسئلتي كلها : « عمّرها أردشير بن بابك ، وهو ملك من ملوك الفرس» وقبل أن نغادر الجزيرة دعانا الشيخ وجماعته الظرفاء الطيبون الى تناول الشاي والقهوة معهم في فناجين وأكواب صغيرة .

وجرفنا التيار القوي في ساعات قلائل الى جزيرة أخرى عليها أطلال وخرائب تشابه في طرازها ما شاهدناه منها في (عانة) ــ وقد نبهنا ملاحونا الى صخرة مستوية على الجانب (العربي) من النهر ، وكانت تبدو وكأن دما يتدفق من جانبيها ، تسمى « المصلبة » ، ولم أتمكن من معرفة الشهيد المفترض • وكانت أطلال جزيرة أخرى مررنا بها وهي حديثة عليها نفس الطابع الذي رأيناه في « عانة » ، وقد أعطاني الشيخ نفس الجواب حين سألته عن أصلها •

وكانت هنالك جزر عديدة نمت فيها النخيل ، كما كانت ضفاف النهر محاطة بها أيضا ، ولكن المحل الوحيد الذي يثير شيئا من الاهتمام الخاص هو « هيت » ، تلك القرية القديمة المعروفة منذ القدم بينابيع القار التي فيها ، وهذا القار هو الذي ذكر في « سفر التكوين » ، واستعمله « نوح » في طلاء سفينته • وهو يتفجر من الارض في أماكن مختلفة ، فيملأ القرية وما يحيط بها برائحته الحادة • ويستعمل هذا القار في تعبيد شوارع « هيت » وساحاتها ، وفي البناء أيضا ، ولكنه يستعمل بصورة رئيسة في طلي السفن الكبيرة والصغيرة ، ومنها تلك السلال المستديرة الغريبة الشكل المسماة (قفافاً) [1] والتي تغالب النهر في بغداد • وقد سبق أن ذكرت الهراوات ذوات الرؤوس الكروية من القار الصلب •

وفي اليوم الخامس من نيسان بلغنا « الفلّوجة » ، فكانت نهاية ملاحتنا ، وفيها التقينا بمكارينا الذين قالوا انهم كانوا يرقبوننا طوال الوقت ، ولذلك استطاعوا أن يكونوا بانتظارنا ساعة نزولنا في الفلّوجة•

(١) واحدتها : قُفّة

وقد مكـّننا هذا من الادلاج في الساعة العاشرة من الليلة نفسها مستغلين ضوء القمر الساطع لنقطع مرحلتين الى بغداد ، بدلا من واحدة . ولما أشرقت الشمس ، وقفنا على ساقية ماء كانت الوحيدة بين الفــرات ودجلة ، فأطعمنا دابتنا ، وتناولنا فطورنا على حافة الساقية التي أوقدنا بجانبها نارا من الأشواك . ودعاني المكارون الى شرب فنجــان من شايهم اللذيذ .

(٣)

الوصول الى بغداد — القنصلية الالمانية — والي بغداد — المعتمد البريطاني — القنصل الروسي — الحياة والاعمال — قضية سكة حديد بغداد — الجاليه الالمانية

كانت المسافة من الفرات الى دجلة كلها مفازة منبسطة رتيبة ، ولكن « عكركوف » ـ عقرقوف ـ وهي أطلال برج بابلي شاهق ، تذكّر المرء بأن هذه المنطقة كانت يوما ما أخصب بقاع العالم . وأخيرا حين بدت للأنظار القباب والمنائر الزرقاء لمسجد الكاظمين ، يممنا شطر تلك الضاحية التي تقوم على ضفة النهر اليمنى ، وبعض سكانها من الفرس . وعبرنا جسر القوارب الطويل ، فلم نلبث أن وجدنا أنفسنا وسط أزقّة بغداد وأسواقها الضيقة الملتوية . وكانت القنصلية الألمانية في أقصى الجانب الشرقي من المدينة . وقد صرفت المكارين بعد أن سدّدت ما لهم عليّ ، ومنحتهم أيضا هبة سخيّة لقاء ما تجشّموه من عناء ومع ذلك فان دهشتهم كانت أكبر من امتنانهم . والظاهر أنهم كانوا يتوقعون ـ على أي حال ـ أن أقتطع مقادير كبيرة من أجورهم،

وودعوني مع كثير من الدعاء وكثير من الحيرة لسخائي الذي كان غير مألوف لديهم .

والقنصلية الألمانية بناية لطيفة ، ذات طراز شرقي جيد ، تنم الزخرفة الداخلية لغرفها على صناعة فارسية . وأحد جوانب الدار تغسله مياه دجلة ، وكانت في ذلك الموسم مرتفعة بحيث يتمكن أصحاب الزوارق من الاستعانة بالقضبان الحديدية في الجدار على سحب زوارقهم في اتجاه معاكس للتيار القوي . وكان فناء الدار حديقة أو بالأحرى ساحة فيها مشتل للزهور ونخلة واحدة مرتفعة . وهنالك في الجانب الآخر مجموعة من النخيل تتفيؤها أشجار البرتقال والليمون . وكان في الدار من الأثاث ما يكفي لجعل سكناها مريحا في وقت لم يكن الصيف قد بدأ فيه بعد .

وكان والي بغداد « عطاء الله باشا » [1] شيخا تركيا وقورا ، ذا لحية بيضاء مرسلة . ولم يتكلم غير لغته التركية . وكان مساعده الأول ساسون أفندي [2] ، وهو رجل يهودي لطيف المظهر أصهب الشعر ، يجيد الألمانية والانكليزية والفرنسية إجادة تامة . ولا شك أن التعامل معه كان مريحا لو كان هناك أي عمل . ولكنني سرعان ما وجدت أنه لم يكن لديّ ما أقوم به مطلقا . وكان ساسون يزوّدني

---

(١) كان واليا على بغداد بين سنتي ١٨٩٦ و١٨٩٩ ، وقد وصفه « لونكريك » بأنه كان قاضيا سابقا ، ومدققا في القانون ، وطاعنا في السن (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ــ تعريب جعفر خياط ، بغداد ، ١٩٦٢ ــ الطبعة الثالثة ، ص ٣٠٥)

(المترجم)

(٢) وزير المالية في أوائل تأسيس الحكومة العراقية

(المترجم)

الجرائد والمجلات التي ترد عليه من انكلترة وفرنسة وأمريكا • وقد سرّني أن أقابله بعد ذلك بأكثر من اثنتي عشرة سنة في القسطنطينية ، حيث كان عضوا بارزا في البرلمان التركي •

وكان ألطف زملائي ، بل ألطف من قابلتهم في بغداد جميعا هو القنصل العام أو « المقيم » البريطاني ، الكرنل لوخ • وقد تسلمت منه دعوة لتناول العشاء معه ومع موظفيه قبل أن يتاح لي الوقت لزيارته ، أو حتى ترك بطاقتي له • وقد أصبحنا صديقين توّا ، واتفقنا على اللقاء يوميا في مسيرة نقوم بها على الأقدام أو على ظهور الخيل ، ما سمح الموسم بذلك • أمّا في الجو الحار ، فقد قررنا الخروج في جولات نهرية في زورق دار الاعتماد البخاري •

وكان لقب « المعتمد » من بقايا أيام « شركة الهند الشرقية » التي كانت تعيّن تجارا مقيمين في مدن شتّى خارج الهند • وقد أنيطت بهؤلاء واجبات وامتيازات قنصلية ، ان لم تكن دبلوماسية • وكانت حكومة الهند تدفع نسبة كبيرة من رواتبهم ، وتمدّهم بحرس من الفرسان الهنود الى جانب يخوت وبوارج صغيرة في المدن الساحلية • وقد أضفى ذلك على الممثل البريطاني مكانة تفوق كثيرا مكانة القناصل الآخرين •

ومن سوء الحظ أن نزهاتنا مع الكرنل لوخ انقطعت بصورة مفاجئة ومحزنة • فقد تسلم برقية تنبئه أن زوجه لقيت حتفها محترقة في منزلهم باسكتلندة ، فغادر بغداد على الفور في اجازة ، ولم أره بعد ذلك قط •

وكان القنصل الفرنسي من الأوربيين المتوطنين في حوض البحر

المتوسط ، ومن مدينة القسطنطينية ، وكانت صلتي به قليلة جدا . أما القنصل الروسي المسيو كروغلوف ، فقد كان خصما لدودا لكل ما هو انكليزي . وكان يرتاب في أن لي عطفا على انكلترة ، أو ميلا لها ، ويكاد يعاملني معاملة العدو ، ولا يراني جديرا بالدخول في زمرة أصدقائه من الأرمن والقفقاسيين . ولم تكن هنالك دولة أخرى ممثلة بقنصل مسلكي في بغداد غير امبراطورية النمسا والمجر ، ولكن ذلك لي يجدني كبير نفع من الناحية الاجتماعية ، حيث عهد الي أنا رعاية الشؤون النمساوية . وبسبب هذه الصفة المزدوجة كنت أرفع العلم النمساوي الى جانب العلم الألماني أيام الآحاد وفي المناسبات الخاصة . ومع ذلك وجدت في أحد الايام أن من واجبي أن أقابل الجالية النمساوية . ففي العاشر من أيلول اغتيلت امبراطورة النمسا بيد فوضوي ايطالي ، فنكّست كلا العلمين ، وأرسلت الى الرعايا النمساويين منشورا طلبت فيه حضورهم الى القنصلية دون تأخير . فلم يظهر الا رجل طاعن في السن ، أوحى الي منظره أنه مصاب بصمم شديد . وبالرغم من هذه العاهة الظاهرة أخبرته بالنهاية المؤلمة التي لقيتها امبراطورته ، وأضفت بضع عبارات للتعزية مما أملته المناسبة . فلمّا أنهيت خطابي قال الرجل العجوز :

« هل لك أن تعيد ما قلته بالانكليزية ، فانني لا أفهم كلمة من الالمانية » .

فاذا به دانيماركي هرب من سفينته في البصرة قبل أربعين عاما تقريبا ، وحصل بعد مدة قصيرة على حماية تاجر خمور يوناني كان يعمل في الوقت نفسه نائب قنصل للنمسا . وهكذا تبدد أملي في أن

تتاح لي حماية رعايا تلك المملكة المزدوجة .

أما الجالية الالمانية ، فكان قوامَها تاجران شريكان في العمل ، وكلاهما متزوج ، كما كان هنالك طفل صغير واحد . ولكنهما لم يسببا لي عملا يذكر ، لأنهما كانا يديران تجارتهما دون حاجة الى مساعدة القنصل . ولم تكن هنالك أية مراسلات تقريبا ، لأن التجارة الالمانية كانت تبدو محصورة في نشاط الشركة الالمانية الوحيدة التي ذكرتها. وكثيرا ما حسبت أن وزارة الخارجية في برلين نسيت وجودي، ومع ذلك فان الأحداث أظهرت لي أن ظني هذا لم يكن صحيحا . ولكن كان يصعب عليّ أن أكتب التقارير ، لأن سلطات برلين في ذلك الوقت لم تكن قد استقرت على رأي بشأن الاسهام في مشروع بناء سكة حديد تمتد من آسيا الصغرى الى بغداد فالخليج . وكنت - شخصيا - أرى مثل هذا المشروع خياليا ، ولم أشأ أن احبّذه . وكنت أدرك الصعوبات السياسية الكبيرة التي يحتمل أن يواجهها مشروع ألماني في هذه المنطقة النائية ، حيث لا تستطيع حكومتنا أن تعززه الا بحماية ضئيلة ، ان استطاعت شيئا . [1] ولكنها كانت على الاخص الحالة المتردّية التي وجدت البلاد فيها خلال اجتيازي أراضيها، وافتقارها الى السكان والزراعة ، هي التي حملتني على الاعتقاد بأن

---

(١) ان الحملة العنيفة التي شنت ضد مشروع سكة حديد بغداد بعيد منح امتيازه لشركة المانية في سنة ١٨٩٨ كانت - مع ذلك - غير محققة ، اذ بدأها أحد أعضاء السفارة الروسية في لندن ، فوجهت الحملة لمصلحة روسيا القيصرية الرامية الى عرقلة أي تقدم كان في تركية ، اكثر منها لمصلحة انكلترة التي كانت تستطيع أن تتوصل الى اتفاق مع الشركة الالمانية بسهولة ، وهذا ما حدث في النهاية فعلا .

مشروعا للسكك الحديد عبر صحارى شمال البلاد العربية لن يكون مربحا • وان استثمار منطقة « ما بين النهرين » ـ التي كانت يوما ما خصبة ـ ومن ثم زيادة عددسكانها المشتغلين بالزراعة ، كان يتطلب اصلاح قنواتها القديمة التي تقوم الآن جافّة • ولم يكن مشروع السر ويلكوكس للري قد عرف بعد ، أيام كنت في بغداد •

وبسبب هذه الظروف جميعا ، وجدت أنه يجب أن أوطن نفسي على قضاء ستة أشهر في بغداد بدون أي عمل ، وحتى دون أن أتمكن من ايهام نفسي بأنني مفيد لبلادي في شيء • ان الوقت الذي قضيته هناك كلفني عاما كاملا ، ولم يعد على أحد بفائدة ، وكان عليّ أن أقضيه كما يقضي المرء فترة من السجن الانفرادي • وكنت أعلن أن حلول الحر الشديد سيجعل ركوب الخيل مستحيلا ، ولم أجد رفقة آنس اليها ، لا بين الاوربيين ولا بين أهل البلاد الاصليين •

ولكن الجو الحار لم يكن قد حل بعد ، وفكرت أن أستغل ما تبقّى من أيام طيّبة بعض الشيء في رحلة أرحلها الى التلال على الجانب الآخر من الحدود الفارسية •

(٤)

المخيّم بجوار اطلال طيسفون (ايوان كسرى) – دراسة تاريخ بغداد – قصة عن فتح علي شاه – تأليف كتاب عن اليهود والفينيقيين

لن أذكر الا القليل عن الحياة في بغداد خلال أشهر الصيف الحارة كما كانت في تلك الايام .

يقضي الجميع لياليهم على سطوح دورهم ، وكثيرا ما يكون شيء من النسيم البارد منعشا جدا . أما النهار ، فكنا نقضي معظمه في « السرادب » ، وهو بهو نصفه تحت الارض ، وفي أحد جوانبه (العاقول) الذي يرشّه أحد العبيد بالماء باستمرار . ولم تكن المروحة الكهربائية معروفة ، وكانت تسد مسدّها (البانكة) الهندية من الطراز القديم ، التي يجب أن يشد حبلها شخص منكود الحظ يجلس على كرسي مرتفع خارج السرداب . وحين يقترب المساء يجتمع معظم أعضاء الجالية الاوربية الصغيرة في ساحة « التنس » لينالوا قسطا من الرياضة . أما ركوب الخيل ، فلا يكون متعة الا اذا كان المرء مستعدأ أن ينتهي منه قبل شروق الشمس .

وقد استأجرت قصّاصا ـ أو راوية ـ يروي لي القصص العربية في الأماسيّ، فلم يكن مرضيا • وكثيرا ما كان هذا «الشهرزاد» الذكر سكران سكرا تصبح قصصه معه غير مفهومة • ولكنني سررت لعثوري على كتاب عربي طريف ألفه أحد أعيان المدينة ، وطبع على مطبعة حجرية في بومبي منذ عهد بعيد [1] • وهو عن تاريخ بغداد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر ، وكان بطله داوود باشا الذي كان والياً على ولاية بغداد التي ضمت في تلك الأيام متصرفيّتي الموصل والبصرة • وقد أعددت ترجمة ألمانية لهذا الكتاب النادر الطريف • وقد أعطاني هذا الكتاب شيئاً من المعلومات عن تطوّر العراق في فترة كانت صلته بالعاصمة العثمانية خلالها واهية جدا ، ورقابتها عليه محدودة ، وهي حالة شجّعت داوود باشا أن يطمح الى اقامة دولة شبه مستقلة • كما فعل زميل له ـ أوفر منه حظا ـ قبيل ذلك في مصر ، فامتنع عن ارسال الضرائب التي يجمعها ، وأخذ يستعملها في تحسين أسلحته • وفي كانون الاول سنة ١٨٣٠ أرسل الباب العالي مفتشا الى بغداد لاقناع الوالي بتسديد ما تراكم عنده من واردات ، فخامرت داوود باشا الشكوك

---

(١) لم يذكر المؤلف عنوان الكتاب ولا اسم مؤلفه ، ولكن يبدو من وصفه أنه (مختصر كتاب مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود) لابن سند البصري ، وقد اختصره الشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني ، وطبعه في بمبي الهند ، وتلك الطبعة فقدت نسخها وأصبحت في ندرتها كالكتب المخطوطة . وطبع الكتاب مرة أخرى في سنة ١٣٠٤ هـ (١٨٨٦م) بالمطبعة الحسينية بالقاهرة ، ثم طبع أخيرا في سنة ١٣٧١ هـ (١٩٥١ م) طبعة حديثة حققها وعلق حواشيها الاستاذ محب الدين الخطيب،وطبعت بالمطبعة السلفية بالقاهرة .

(المترجم)

بأنه ربما كانت لدى المفتش أيضا تعليمات بحمل رأسه ، وهو إجراء لم يكن غير مألوف في بغداد ، ورأى أن خير ما يمكنه أن يفعله هو افتراض وجود هذه الخطّة مقدّما ، وتدبير مقتل المفتش بعد عشاء الترحيب به مباشرة • وقد كتب الى السلطان بعد ذلك ملتمسا الصفح عن فعلته هذه ، ومؤكدا ولاءه واخلاصه • فلمّا تسلم السلطان هذه الرسائل ، ظن أنها ستعقبها مبالغ كبيرة من المـال ، حتى اذا تبـددت ظنونه أعلن عصيان داوود باشا ، وسيّر اليه علي باشا ، والي حلب ، على رأس حملة تأديبية • وكان داوود باشا قد أخفى أمواله لدى البدو الذين كان يعتمد على اخلاصهم له ، فقابله هؤلاء بالخيانة ، وسلّموا كنوزه الى علي باشا • وعلى أثر ذلك دخل علي باشا بغداد ، وسـاق داوود باشا سجينا الى القسطنطينية •

ان الوالي العاصي الذي لقي نهايته المحزنة والبطوليـة في آن واحد ، قام طوال سنوات عديدة بدور مهم في سياسة آسيا الغربية ، وكانت له ــ كشأن بعض أسلافه ــ منازعات كثيرة مع الفرس الذين كانوا يطمحون في السيطرة على العتبات الشيعيّة الأربع المقدّسة قرب بغداد • وفي احدى الفترات بدت الحرب مع « فتح علي شاه » ، أول ملوك القاجاريين في بلاد فارس ، وشيكة الوقوع • ولكن أمكن تفادي هذه الكارثة بفضل مهارة رسول مسيحي أوفده داوود باشا الى طهران • وقد اطلعت على كثير من تفاصيل هذه الحادثة من ابن هذا المبعوث ، واسمه ــ كاسم أبيه ــ كسبرخان • سألته كيف جاءه اللقب الفارسي (خان) فحدّثني عن بعثة أبيه الى بلاط ملك الفـرس ذي البـريق والأبهة • ولم يقتصر نجاحه على حل المشكلات التي كادت تؤدي الى

الحرب ، بل استطاع أيضا أن ينال صداقة الشاه الذي استبقاه زمنا في بلاطه بعد انتهاء مهمّته . قال كسبرخان : « وفي أحد الأيام كان والدي يتنزه مع (فتح علي شاه) بالقرب من قصره الذي شيّده حديثا ــ قصر قاجار في طريق شمران ــ فشاهد « قرانا » (وهو عملة فضية صغيرة تساوي في ذلك الوقت شلنا واحدا تقريبا) ملقى على التراب أمام قدميه . فأدهشه أن يحني الشاه ظهره الجليل فيلتقطه ويشرع في تنظيفه ومسحه بجانب سترته المصنوعة من الشال الكشميري الثمين . فلمّا أعرب والدي عن دهشته لأن ينحني عاهل غني وذو سلطان ، ومن هو ملك الملوك وظلّ الله في الأرض ، ليلتقط من التراب ومن بين أوساخ الطريق شيئا بهذه القيمة الضئيلة ، أجاب فتح علي شاه : « سترى حالا كيف أنتفع بهذا القران لمصلحة الخزينة الامبراطورية ــ أدامها الله مليئة ! » ثم استوقف الملك قروياً يحمل التفاح الى سوق طهران ، فأعطاه القران ، واشترى منه حمل حمار من التفاح ، ونادى (الفرّاش باشي) ــ أو رئيس الفراشين ــ وأمره أن يضع التفاح في سبعة صحون من الذهب يحملها الى سبعة من أعيان الدولة هديّة منه وعربونا لرضاه الامبراطوري . وكانت العادة أن يقابل هؤلاء التفاتة مولاهم بأن يرسل كل منهم اليه مبلغا من المال لا يقل عن مئة تومان ــ أي ألف قران »

وكنت في ذلك الوقت أجمع المواد لاعداد دراسة عن تاريخ بلاد فارس الحديثة . والى جانب جمع الطرف ذات الدلالة الخاصة مما لا يمكن العثور عليه في الكتب ، وجدت في كتاب « تاريخ بغداد » السالف ذكره ، كثيرا من المعلومات القيّمة عن العلاقات ــ الحربية

والسلمية ــ للحكام المتأخرين من سلالة زند ــ خليفة كريم خان ــ مع تركية ، وخاصة مع ولاية ما بين النهرين •

ولكنني انصرفت عن هذه الدراسات تدريجيا ، وركزت اهتمامي كله على كتاب عن الفينيقيين واليهود في بداية العهد المسيحي • وكان والدي قد بدأ بكتابته ، وحاولت اكماله بعد وفاته • واذ لم يكن لي في بغداد أي عمل رسمي تقريبا ، أردت أن أبحث في ضواحي بغداد عن أرض أستطيع أن أخيّم فيها ، حيث لا يزعجني أو يعكر سكينتي أحد• وقد خدعت بنسمة من الهواء البارد في بداية أيلول فنصبت خيامي قرب قرية (الداوودية) على شاطىء دجلة ، وهي تبعد عن بغداد خمسة أميال الى الجنوب ، قريبا من آثار (سلمان باك) الرائعة • اخترت هذه البقعة بسبب غابة صغيرة من نوع من أشجار الصفصاف تمتد مسافة ميلين تقريبا في محاذاة النهر • وهنالك ابتنيت كوخا من أعواد الخيزران والاغصان الاخرى تحت أشجار مرتفعة يمكن التفيؤ بها • ولكنني سرعان ما وجدت أن انتقالي الى خارج المدينة كان سابقا للأوان ، وأن الحر عاد فترة أخرى من الزمن بشدة لم تخفّ • ولكن الليالي كانت باردة جدا ، والكوخ تحت أشجار الصفصاف التي كانت مظلة واقية من أشعة الشمس ، فأمكنني العمل خلال القسم الاعظم من النهار • وهنالك أعدت النظر في جميع ملاحظاتي ومذكراتي الخاصة بالكتاب عن الفينيقيين واليهود ، وكتبتها جميعا •

(٥)

نقلي الى طهران مرة اخرى – سفرة الى الحلة وكربلاء – المسيرة على اطلال بابل – « فهد » الزعيم البدوي الكبير – كربلاء

في اليوم التالي لفراغي من هذا العمل التمهيدي ، تلقيت برقية من برلين فيها تعليمات للتوجّه الى طهران دون تأخير . وكان هذا نهاية عهدي ببغداد . فتطلعت الى العودة الى مدينة أستطيع أن أجلب اليها عائلتي ، ولي فيها كثير من الاصدقاء الممتازين . ولكنني لم أشأ أن أفارق أرض ما بين النهرين قبل أن أقوم بزيارة لأطلال بابل ، وما كان يظن في ذلك الوقت أنه برج بابل المشهور ، وكذلك – ان أمكن – مدينة كربلاء المقدّسة .

هذه الحملة التي رافقني فيها نائبالقنصل الألماني الدكتور (هـ)، وتاجر هنغاري شاب ومحبوب هو الهر (و) ، كانت ملذّة من عدّة وجوه ، بالرغم من أن الحفريّات التي يقوم بها مواطني الدكتور كولديوي في خرائب بابل ، لم تكن بدأت . ولذلك كان كل ما رأينا منها سلسلة طويلة من التلال مؤلفة من أنقاض الدور القديمة وبقايا لا تحصى من حطام الخزف القديم . وحين كنا نسير بجانب رؤوس هذه

الروابي ، كنا نعلم أن تحت حوافر خيلنا تختفي معابد نبوخذنصّر المشهورة ، والقصر الذي مات فيه الاسكندر الأكبر وبجانبه زوجه الفارسيّة الجميلة « روكسان » .

وفي رحلتنا ، على شاطىء الفرات ، تمتعنا بضيافة أسرة يهودية وضعت أحد سطوح الدار المستوية تحت تصرّفنا . وقد فاجأنا ولدا صاحب الدار فتحدثا الينا بلغة المانية سليمة . وكانا قد حصلا على جزء من تعليمهما في فينّا . أما نساء البيت فلم يظهرن ، بل بقين محجّبات بحسب العادة الشرقية . ومن الحلة زرنا (بريز نمرود) أو (برج نمرود) ، وهو بقية برج عرف خطأ بـ (برج بابل) . ومن قمّة التل المؤلف من حطام الاحجار التي كان كل واحد منها يحمل ختما قيل انه ختم نبوخذنصّر — كنا نستطيع ان نشرف على الصحراء التي تتخللها الأهوار والبحيرات ويمتد بنا البصر حتى الهضبة المنخفضة التي تتألق عليها في ضوء الشمس القبّة الذهبية لمرقد عليّ في النجف .

ولكننا مع ذلك — لم نفكر في زيارة تلك القبة ، بل أردنا زيارة كربلاء ، موقع المعركة التي قتل فيها الحسين : القدّيس والشهيد العظيم، ابن علي . وكان ينتظرنا على الطريق منظر طريف . فقد بهرنا العدد الكبير من الجمال البيض وهي ترعى في السهل الذي لم يكن قاحلا هنا كما هو في الجانب الآخر من الفرات . وهذا « الجمع » غير الاعتيادي من الجمال كان بسبب وجود « فهد بك » ، الرئيس الأكبر لبدو « عنزة » في المنطقة . وتترحّل « عنزة » في امتداد الارض على الضفة اليمنى من الفرات ، ويرهبها الحضر « من أبواب دمشق حتى أبواب البصرة » ، وهم يعيشون في خصام مستمر مع « شمّر » الذين

يحتلون « الجزيرة » بين الفرات ودجلة ، الى جانب تلك الجماعة من قبيلتهم التي تسكن نجدا ، وهي هضبة الجزيرة العربية • وكنا ــ بطبيعة الحال ، تتطلع الى رؤية « فهد » الذي سمعنا عنه كثيرا من القصص والاوصاف فوجدناه جالسا في ظل مضيفه ، وهو خيمة ــ او بالاحرى سقف خيمة ــ مصنوعة من شعر المعز الاسود ، يسندها عمود أفقي يمكن تطويله بحسب عدد « الضيوف » ، وحين يريد شعراء العرب الاشارة الى كرم أحد الشيوخ يقولون انه « طويل القناة » • وكان مضيف فهد بك يمتدّ أكثر من ثلاثين ذراعا ، وعرضه خمسة أذرع فقط • وتحته كان يجلس القرفصاء صفّان من أبناء الصحراء الذين جلس فهد بك بينهم كمضيّف لهم ، وفي الوقت نفسه كان يقضي بينهم • وحين أعلن القوّاسون الذين كانوا برفقتي قدومي ، نهض لاستقبالنا وقادنا الى خيمة تركيّة صغيرة بيضاء ، فرشت حالا على الجانب الظليل منها السجاد لنجلس عليها معه ، وأمر كذلك باحضار عدد من سروج الجمال المزيّنة بمسامير ذهبية توضع في جوانبنا ، لنسند اليها أيدينا ، وكرر كلمة : مدّ ! مد ! أي كان علينا أن نمدّ سيقاننا بدلا من أن نثنيها تحتنا على طريقة أهل المدن ، لأن القانون الوحيد في الصحراء ــ كما أضاف قائلا ــ هو التحرر • وبعد شرب القطرة المعتادة من القهوة المرّة من فنجان صغير ، قدّمت له «سيكارا»، وقد بدا أنه أعجب به بسبب حجمه وطول اشتعاله • وبعد أن دخّن نصفه أعطى أتباعه ما بقي منه ، فسحب كل منهم بضعة أنفاس منه حتى تفتتت بقيّته في يد بدوي غريب الشكل • وقد جلب اتباهي أن فهد بك لم يكتف بقبول لقبه « بك » التركي فقط ، بل كان يحرص كثيرا

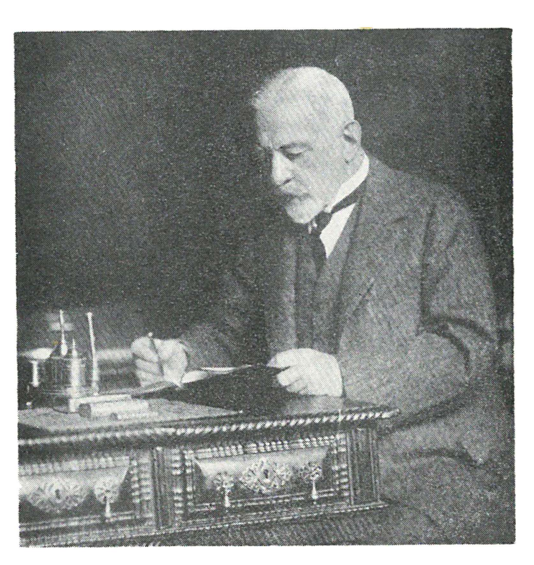
على التحدّث بالتركية الى خادمه الخاص • وكان واضحا أنه كان يلذ له التحدث بلغة الأمة الحاكمة التي لم يبد أنه كان يعاني من نيرها كثيرا• وفي محادثته معنا تكلم العربية فقط ، وقد أبدى آراء صائبة ، وسأل أسئلة وجيهة جدا • وبعد أن استفهم عن معدّل النفقات السنوية للقنصلية الالمانية في بغداد ، كانت النتيجة التي خرج بها أنه لا يجد فيها من الفوائد ما يعادل كلفتها • ولم أكن قادرا على دحض حججه •

وبعد أن حمّلنا على أن نذوق شيئا من اللحم الذي شوى لنا — والفكرة هي ألاّ نغادره دون أن نأكل شيئا من ملحه — تمشينا خلال مضاربه ، وأبدينا اعجابنا بابله • وكانت من جنسين مختلفين : « الذلول » أو الابل الراكضة ، و « الابل » — وهي التي يُحمّل عليها • وهذان النوعان ، في عيني العربي من الصحراء متمايزان بعضهما عن بعض تمايز السمكة والقطة في نظرنا ، ولكننا عجزنا عن التمييز بينهما بصورة جازمة • وكانت خيرة « ذلل » فهد غائبة في غزوة لشمّر يقودها ابنه « متعب » • وفي هذه المناسبات يترادف رجلان جملا واحدا ، ويجعل ثانيهما وجهه الى الخلف • وقد سمعنا فيما بعد أن هذه الغزوة منيت باخفاق ذريع ، وأن متعبا هزمته شمّر هزيمة منكرة ، وعاد منها مع قلّة من رجاله ودابّته •

وكان وصولنا الى كربلاء ، بعد زيارتنا لـ « عنزة » ببضع ساعات أشبه بتغيير في المشاهد في احدى المسرحيات ، فقد وجدنا أنفسنا فجأة في وسط مدينة يغلب عليها العنصر الفارسي — ومعظم أهلها من « الزوّار » • وكان خدمنا قد استأجروا لنا دارا صغيرة نظيفة المظهر وأعدوا عشاءنا • وقد سررنا بلقاء موظف شاب من بغداد — اسمه

شاكر أفندي ــ وكنا نعرفه معرفة جيدة ، فدعوناه أن يشاركنا العشاء • ثم طاف بنا شاكر أفندي بعد العشاء في المدينة كلها • وقد أدهشنا ما رأينا من رونق وبهاء لم نتوقعهما • وبينما كانت بغداد ــ كمعظم مدن الشرق ــ أشبه بالمقبرة بعد غروب الشمس ، كانت كربلاء تطفح بالحياة وتزخر بالحركة • وكانت الشوارع والاسواق الكبرى مضاءة ومعظم المخازن (الدكاكين) مفتوحة • وجماهير الزوار ــ وأكثرهم من الفرس وهم يتكلمون اللغة التركية ويأتون من أذربيجان ومن خراسان ــ تعج بهم الشوارع وتمتليء المقاهي • وقد تمتعنا بالمناظر الزاهية للحياة الشرقية الحقيقية ، ولم نلق أية مضايقة أو ازعاج ، وربما كان ذلك بفضل وجود شاكر أفندي معنا ، ولكن لم يسمح لنا بدخول مرقدي الحسين وابن عمّه العباس • والأخير مرقده في جامع واسع من القاشاني الأزرق • أما الاول فمن طراز مماثل ، ولكنه أجمل منه ، وتعلوه قبّة من النحاس المطلي بالذهب • ولما نظرنا اليه في اليوم التالي من سطح بناية مجاورة ، اضطررنا أن نضع على أعيننا نظارات سوداً لحمايتها من بريق القبّة المذهبة •

ان الزوار الذين يتدفقون على « العتبات المقدّسة » في العراق يجلبون معهم بقايا موتاهم ويدفنوهم في ثرى كربلاء المضمخ بدماء الشهداء • وهذه الجثث التي تلف باللباد تشاهد متدلّية من ظهور الابل بمجموعات من أربع جثث أو خمس جثث • وبالرغم من هذه العادة فان الزيارة الى كربلاء تجمع بين متع النزهة ، ومتطلّبات العبادة • ولما كانت المدينة خالية من الفنادق فان معظم الزوار الذكور يؤجرون خلال موسم الزيارة دارا خالية ، ويفرشونها بما معهم من فرش وسجّاد •



فريدريك روزن

قنصل ألمانيا في بغداد سنة ١٨٩٨

(صورة التقطت سنة ١٩٣٠)



الدكتور فريتز غروبا

وزير ألمانيا المفوض في العراق ١٩٣٢ — ١٩٣٩ ،
ثم في مايس ١٩٤١

تقرير السّر جيرالد لوثر

سفير بريطانية لدى الدولة العثمانية

عن الأحوال العامة في ولايات بغداد والبصرة والموصل سنة ١٩٠٨

إتّسمت سنة ١٩٠٨ ــ في أرض ما بين النهرين بأجمعها ــ بانعدام الأمن ، والخروج على القانون ، بنسبة أكبر من المعتـــاد • وقد عمل ذلك مضافا الى ما أعقبه من أحداث أخرى وراء الحدود الفارسية ، والعمليات العسكرية التالية ــ على شلّ حركة الحج والتجارة في ولايتي الموصل وبغداد • وقد عانت إدارة الولايات الثلاث من آثار الركود المالي كثيرا •

وكانت الملاحة في دجلة وشط العرب خلال معظم السنة غـــير مأمونة ، وفي ٢ نيسان أطلق الرصاص على بواخر شركة « بلوس لينج » في الفرات ، وعلى بواخر شركة الملاحة البخارية لنهر دجلة في منطقتين قرب العمارة ، فأصيب أحـــد الوقّادين وثلاثة من المسافـــرين الذين كانوا على سطح الباخرة بجروح خطيرة ، كما أصيبت الباخرة بخمسين طلقة على الاقل • وامتدت منطقة الخطر من (أم الحنّـــة) شمـــال العمارة ، الى (أبو سدرة) في جنوبها ، وتسكن هذه المنطقة قبائـــل (بني لام) و (البو محمد) ، وكان رئيساها « غضبان » و « صهيود » مسؤولين عن الاضطرابات • وكان القصد من الغارات هو الاعـــراب ــ بصورة مؤثرة ــ عن استياء العشائر بسبب إصلاحات معينة تجريها في العمارة لجنة برئاسة ناظم باشا تهدف الى الحدّ من سلطة هـــذين الشيخين ، ولصالح شيوخ أقل منهما خطرا ، عن طريق إعادة توزيع الاراضي الاميرية على المستأجرين • ولا شك أن الذي شجع «غضبان»

على عمله هو أنه لم يعاقب على عصيانه على «الخليفة» في سنة ١٩٠٦ .

وربما كانت سياسة ناظم باشا حكيمة من حيث المبدأ ، ولكنه نسي أنه لا يستطيع أن يتفوق على حسن باشا ــ والي البصرة ــ الذي كان « يقبض » من غضبان ، والذي انتهز فرصة استتباب الامن والنظام في النهر بصورة آنية ، فأثرى بالغاء جميع اصلاحات ناظم باشا ، لقاء رشاوى ووعود بحسن السلوك .

وفي حزيران اقترح قنصل صاحب الجلالة في بغداد قمع أعمال « غضبان » بصورة فعالة ، وبذلك وضع حد لما جرى عليه الاعراب من اتخاذنا « حصان طروادة » في معاملاتهم مع الحكومة العثمانية . وقد ذكر أنه لن يكون من الضروري الدخول في حرب مع قبيلة (بني لام) بأجمعها ، لان لغضبان أعداء كثيرين يمكن الحصول على تعاونهم حالما يتضح أن الاتراك مصممون على معاقبته . ومع ذلك ، فلم تتخذ أية اجراءات ضد « غضبان » لانعدام الامكانات في الولاية جزئيا ، وبسبب الأزمة السياسية التي حدثت في الأقاليم الاوربية من الامبراطورية (العثمانية) .

وفي حزيران حدثت حروب بين العشائر على ضفاف دجلة .

نجح الكرنل « رامزي » في تسوية الخلاف القائم منذ مدة طويلة بشأن دار « التنقيب » المجاورة لدار الاعتماد بتعويض مرض .

وفي مايس انتشر الطاعون في بغداد ، واستمر طوال السنة بصورة خفيفة وفي حالات فردية متفرقة .

استقبلت إعادة الدستور في بغداد بحماسة ، وتآخى الشعب على اختلاف عقائده في البداية ، وطالب ضباط الجيش بفصل صدقي باشا ،

قائد الجيش السادس ، فكان لهم ما أرادوا • وسرعان ما تبين أن ناظماً ــ وكيل الوالي ــ لم تكن لهسلطة • وفي آب أجبره الغوغاء على منع تصدير الحنطة ، وان حالة الهياج التي كان عليها الشعب جعلتالاصرار على حقوق المصدرين البريطانيين أمرا لا تؤمن عاقبته ، اذ كان يُخشى أن يثور الشعب ضد الاجانب • ونهب الثائرون ــ في أيلول ــ بعض مخازن الحبوب • وفي تشرين الاول حدثت اضطرابات موجهة ضد اليهود بسبب تردد الوالي ، والدعاية التحررية غير الحكيمة لجماعة « تركية الفتاة » التي أظهرت عدم احترا ملشعائر الديانة الاسلامية خلال شهر رمضان •

وفي الموصل لم يلق الدستور ترحيباً الا لأنه كان وسيلة للتخلص من الوالي مصطفى بك الذي لم يكن محبوبا • وقد استثار ممثلو « جمعية سلانيك » ــ الذين قدموا في تشرين الاول ــ مشاعر السكان المسلمين ضد اليهود والمسيحيين بما ألقوه من خطب بعيدة عن الكياسة واللباقة •

وكان قنصل جلالته في البصرة طوال السنة يخبر عن حوادث القرصنة في شط العرب ، بينما كانت السلطات التركية عاجزة عن معالجتها كل العجز • وكثرت الاعتداءات على وسائل النقل المائية في أواخر العام ، فاقترح المستر «كراو» أن تتعاون البارجتان البريطانيتان مع « الدوريات » التركية في الشاطىء ، على قمع هذا الازعاج • وأخيرا ــ وبنتيجة اتصالات السفارة المتكررة ــ غادرت البوارج التركية القسطنطينية في كانون الثاني متجهة الى البصرة •

استقبلت أنباء اعلان الدستور في البصرة بالاستغراب وعدم

التصديق أولا ، ثم أعقبت ذلك دهشة لم تلبث أ نانتهت الى حالة من عدم الاكتراث ، فقد شعر الأهلون أنه ليس للأمر تأثير محسوس في حالتهم • ان الحادثة التي نجمت عن معاملة سلطات « القطيف » غير اللائقة لضباط سفينة صاحب الجلالة « لابويك » في صيف سنة ١٩٠٧ ، قد تمّت تسويتها في آذار أخيرا ، حيث قدم قائم المقام اعتذارا كاملا الى العقيد البحري « غولد سمث » الذي زار القطيف لهذه الغاية •

حاصرت جماعة الأعراب ، في شهر آب ، مدينة القطيف ، والمفرزة التركية الصغيرة فيها ، وكان يخشى أن يتعرض السكان لمذبحة ، ولكنهم تمكنوا من المقاومة حتى نهاية الشهر ، فوصلت النجدة الى المدينة من بغداد والبصرة •

وفي « الأحساء » حدثت اضطرابات عديدة ، واستولى الأعراب في احدى الحالات على مدفع تركي • وأخيرا طلبت سلطات البصرة تدخل ابن السعود لتسوية هذا النزاع القبلي •

مذكرات سمنر ويلز

وكيل وزارة الخارجية الأمريكية من سنة ١٩٣٣ الى سنة ١٩٤٣

على الساحل الغربي من البحر المتوسط ، وعلى امتداد الشرق الأدنى سيواجه عالم المستقبل مشكلات مشابهة جدا لمشكلات البلقان. وإن استعراض هذه المشكلات الناجمة عن الظروف المعقدة في البلاد العربية يتطلب بالضرورة القاء نظرة على القرارات التي اتخذها الحلفاء المنتصرون ــ بشأن الشرق الاوسط ــ في سنة ١٩١٩ والسنوات التي وليتها مباشرة .

ان خيبة الزعماء العرب بعد مؤتمر فرساي ، وخيبة كثيرة من العسكريين البريطانيين اللامعين الذين حاربوا الى جانبهم خلال الحرب العالمية الاولى ، لا تحتاج الى مزيد من التأكيد ، ويكفي أن يذكر فقط أن الزعماء العرب باتوا مقتنعين بأن الحكومة البريطانية نكثت عهودها لهم ، وهذه الحقيقة هي مبعث غير قليل من التعقيدات والشكوك التي تشوب التاريخ العربي في الآونة الأخيرة .

ان السبب الاكبر للشكوى هو عدم وفاء بريطانية بالوعود التي يدّعي العرب انها وردت في المراسلات المتبادلة في سنة ١٩١٥ بين السر هنري مكماهون والشريف حسين ، والد الامير فيصل الذي أصبح فيما بعد أول ملك على العراق . ان قسما مما يدعى باتفاقية مكماهون يؤلف ميثاق معونة متبادلة ، كما ان هذه الاتفاقية اشترطت أن تعترف بريطانية ــ بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ــ بالخلافة العربية وباستقلال جميع البلاد العربية باستثناء « عدن » . وقد قطع لبريطانية، مقابل ذلك ، وعد بأن تكون لها الأفضلية في العلاقات الاقتصادية .

ان الاتفاقية السرّية بين بريطانية وفرنسة وروسية خرقت هذا الترتيب خرقا فاضحا ، فقد قضت بألا تمنح روسية القسطنطينية

والمضايق ، بل قضت أيضا ــ وهذا أهم بكثير من وجهة نظر أولئك الذين رسموا خطة الاستقلال العربي ــ بأن تحصل فرنسة على سورية ولبنان مستعمرات مباشرة لها ، اضافة الى حقول نفط الموصل التي هي ضمن العراق الآن • وفي الاصطدامات المباشرة التي وقعت بين بريطانية وفرنسة في مؤتمر باريس وخلال السنوات الثلاث التي وليتها حول مصالحهما في الشرق الادنى ، خابت الآمال العربية في اتحاد عربي فدرالي مستقل • وفي مؤتمر سان ريمو الذي عقد سنة ١٩٢٠ أهملت المطالب العربية اهمالا نهائيا بقرار دول الحلفاء الكبرى ، وبموافقة عصبة الامم ، على أن تتولى فرنسة سلطة الانتداب في سورية ولبنان، وان يوضع العراق تحت الانتداب البريطاني • وكذلك منحت بريطانية الانتداب على فلسطين •

وتاريخ الدول العربية منذ ذلك العهد هو قصّة من عدم الانسجام وعدم الارتياح • وقد لجأت الدول المنتدبة باستمرار الى السياسة التي تمليها الضرورات أكثر من السياسة التي تتوخى حل القضايا الأساسية• فحملة فرنسة الانتقامية على فيصل ، وانتخاب البريطانيين اياه فيما بعد أول ملك للعراق ، ونصب ولد آخر من أولاد الشريف حسين لادارة مقدّرات شرق الاردن ، وتعزيز الملك ابن سعود سيطرته على العربية السعودية بقوّة شخصيته فقط ، كل هذه قصص رويت مرارا • على أن أيّاً كان من هذه التطورات ليس دائما بالضرورة ، فلا وجود لاتحاد فدرالي عربي مستقل ، بل حتى مجموعة من الدول العربية • وليس هنالك حتى الآن أي نظام أو ترتيب يحقق لمجموع الشعوب العربية أمانيها التي تتطلع اليها والتي حاربت من أجلها • كما أن مطالباتها

بحقوقها في تقرير المصير ، وما يتبع ذلك من امتيازات ، هي في تزايـد سريع • واذا لم تتمكن الدول المنتصرة في نهاية الحرب العالمية الثانية من تسوية المشكلات التي تركتها غير محلولة بصورة مخيبة في نهايـة الحرب العالمية الأولى ، فستقوم في قلب الشرق الأدنى بؤرة لمخاطـر كبيرة تهدد استقرار العالم •

وهنالك الى جانب مشكلة فلسطين الدقيقة جدا ، أمور ستتطلب حلاّ نهائيا ، وهي قضية النفوذ الفرنسي في سورية ولبنان ، ومستقبل وضع العراق ، ومستقبل العلاقات بين سورية ولبنان ، وبين العراق وشرق الاردن ــ والمملكة العربية السعودية ، وكذلك العلاقات بين هذه الدول العربية ــ ومعها مصر ــ وبين دولة فلسطين في المستقبل •

ومصر نسيج وحدها ، بالرغم من أن سياسة الحكومة المصرية في السنوات الاخيرة اتجهت بقوّة واطراد نحو خلق اتحاد فدرالي عربي وادخال مصر فيه • واذا كان مركز مصر البارز في العالم الاسلامي ، ومكانة جامعة الأزهر ، سيضمنان لها دون نزاع مكانة رئيسية في أية مجموعة من البلاد الاسلامية ، فان روابطها بالدول العربية الواقعة في شرقيها (من بعض النواحي) ليست وثيقة مثل تلك الروابط التـي قامت في الماضي بين مراكش والدول المحيطة بالأماكن المقدّسة •

وبعد كفاح استمر بضع عشرات من السنين ، وكثير من التلكؤ من جانب بريطانية العظمى ، عقدت مصر في سنة ١٩٣٦ مع الحكومـة البريطانية معاهدة منحت مصر الجزء الأعظم من مطالبها في الاعتراف التام بسيادتها ، وقد اعترف العالم أجمع باستقلالها على أثر دخولهـا عصبة الامم سنة ١٩٣٧، وموقف مصر لم يضعف خلال الحرب الحالية،

بل ازداد قوّة ، برغم الصعوبات التي لم يكن من قيامهـا بد بسبب وجود القوات البريطانية فيها .

ان الجهود الطويلة التي بذلها الوطنيون المصريون بلا كلل ،والتي بذلها « الوفد » بالدرجة الاولى ، قد آتت ثمارها في النهاية . ولا شك أن مشكلة مصر الآنيّة بعد انتهاء الحرب الحالية [1] ستكون تعديل معاهدتها القائمة مع الحكومة البريطانية ، وان بعض الخلافات الشديدة التي نشبت في العلاقات البريطانية ـ المصرية (ولا بدّ من الاعتراف بأن هذه كثيرا ما كانت ذات طابع شخصي) قد تركت أثرا عميقـا في نفوس المسؤولين المصريين ، وفي نفوس المسؤولين البريطانيين كذلك من غير شك .

على أن مشكلة مصر الاساسية في معظمها قد حلت ـ فان فقر الشعب المدقع ، والانخفاض المؤلم في مستوى التعليم والصحة وظروف الحياة العامة قد تحسن الى حد كبير خلال العقود الأخيرة من الحكم البريطاني . والتقدم الرئيسي الذي أحرز في اقتصاديات البلاد العامة خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة يبشّر بالرخاء في السنوات القادمة .

وأغلب الظن أن مصر بعد انتهاء الحـرب الحـالية ستعود في علاقاتها مع بريطانية العظمى الى ما كانت عليه قبل الحرب ، وسيكون لها مركز الدولة المستقلة ذات السيادة اسميا ، وسترتبط ببريطانيـة بمعاهدة تحالف تمنح بريطانية بموجبها الحق في اتخاذ اجراءات واسعة لحماية قناة السويس ، وفي أن تضع في مناطق معيّنة من مصر القوات

---

(١) يريد الحرب العالمية الثانية التي كانت قائمة عند صدور الكتاب. (المترجم)

البريطانية التي تحتاجها لهذه الغاية . ومهما بدت ترتيبات هذه المعاهدة ضرورية وحيوية لحماية المصالح البريطانية ، فان الوضع الذي تحسب مصر نفسها فيه نتيجة لتحالفها هو وضع شاذ كما أظهرت الحرب الحالية ذلك مرارا. ان ظروف هذه الحرب قد أنعشت الوطنيية المصرية، وأصبح من المؤكد أن الأحزاب السياسية المصرية ستطالب في الفترة التي تلي الحرب بمزيد من التعديلات في معاهدة التحالف الحالية . وسيكون الحل النهائي والمرضي الوحيد بأن تتولى منظمة دولية حقـوق الأمن وامتيازاته التي احتفظت بها بريطانية لنفسها منفردة حتى الآن .

ان أي عرض للانتداب الفرنسي على سورية ولبنان لا يمكن أن يكون مادة ممتعة للقراءة . فنظام الانتداب ، كمـا كان متصورا في مؤتمر باريس ، والطريقة التي طبّق بها في هذه الحـالة ، كانا أمرين مختلفين كل الاختلاف . وتاريخ علاقات فرنسة مع شعوب سوريـة ولبنان يجب أن يدرس على ضوء خيبة فرنسة بسبب اخفاقها في الحصول على السيادة الكاملة في هذه المناطق وما أعقب ذلك من محـاولات الحكومات الفرنسية المتعاقبة لتفسير مسؤولياتها كدولة منتدبة بصورة تمنح فرنسة حقوق السيادة على الشعوب المعنيّة . وقـد سبق أن أشرت الى المعاهدة التي تفاوض بشأنها المسيو فرانكلين بويون ، عن الحكومة الفرنسية ، مع الحكومة التركية ، والتي ضمّت بموجبهـا منطقة من سورية الى تركية . وكان الوضع قد أصلح اصلاحا جزئيـا على الاقل بنتيجة معارضة بريطانية العظمى ، ومفاوضات سنة ١٩٢٣ في لوزان ، ولكن فرنسة ، في السنوات الأخيرة للانتداب ــ بالاتفاق مع الحكومة التركية ــ ضمّت اليها فعلا ذلك الجزء من سورية الذي

يحتوي على منطقة الاسكندرون المهمة •

لم يكن الانتداب الفرنسي في الشرق الأدنى مرضيا ، وتاريخه حافل بالأخطاء المؤسفة في السياسة وفي التقدير من جانب المندوبين الفرنسيين • فالرأي العام في الشرق الأوسط لم ينس مثلا أن التضارب المستمر في السياستين البريطانية والفرنسية أدى في سنة ١٩٢٥ الى مذابح قتل فيها الدروز والمسلمون أكثر من عشرة آلاف مسيحي في المناطق الواقعة تحت الانتداب الفرنسي • ولم يكن ذلك مأخذا فظيعا على الطريقة التي كانت عصبة الأمم تطبق بها نظام الانتداب فحسب ، بل انه كان كذلك سببا في استياء مرّ من سلطة الدولة المنتدبة وكفايتها• وقد مارست فرنسة سلطتها في المستعمرات مع شعوب افريقية الوسطى والغربية ومراكش بالروح التعاونية التي قصد مؤسسو عصبة الأمم أن تسود علاقات الدولة المنتدبة بالشعوب التي وضعت تحت وصايتها أو حمايتها — ولكنها لم تظهر مثل هذه الروح في الشرق الأدنى •

وكانت النتيجة أن أخذت الشعوب الراقية المتمدنة والكفوءة والمحبة للحرية التي يتألف منها معظم سكّان سورية ولبنان تطالب باستقلالها بصورة متزايدة وبعنف أشد • ولقد لقيت نداءاتهم تجاوبا من رجال الدولة الفرنسيين ذوي الآراء المتحررة • وخلال الأشهر الاولى من وزارة ليون بلوم — مثلا — ارتبطت الحكومة الفرنسية ، والسلطات الممثلة لها في سورية ولبنان بمعاهدة صيغت على غرار المعاهدة التي سبق أن عقدت بين بريطانية العظمى والعراق ، وبموجبها وعدت كل من سورية ولبنان بالاستقلال في سنة ١٩٣٩ •

وقد منع نشوب الحرب الأوربية فرنسة من تنفيذ التزاماتها

بموجب هذه المعاهدات ، وان كراهية اللبنانيين والسوريين للمعاملة التي عوملوا بها على يدها ، وعداوتهم لبريطانية التي اججتها دعاية دول المحور من غير شك ـ لم يكن لها ان تؤدي الى وضعهم أية عقبات جدية في طريق حكومة فيشي في ربيع سنة ١٩٤١ ـ حين ظهرت قضية منح المانية قواعد جوّية وتسهيلات عسكرية أخرى في سورية • وقد استفحل الخطر استفحالا أدّى بالقوات البريطانية ـ بالرغم من الصعوبات التي كانت بريطانية تواجهها في ذلك الوقت ـ الى احتلال سورية مع القوات الفرنسية الحرّة ، واخراج ادارة سورية ولبنان من يد حكومة فيشي • وفي الوقت نفسه ضمنت كل من سلطات بريطانية وفرنسة الحرّة استقلال شعوب سورية ولبنان بعد الحرب ، كما أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية أكّدت في أوراق الاعتماد التي أصدرتها لأول ممثل دبلوماسي لها في سورية تأييدها الرسمي لتلك الضمانات •

ولذلك كان مما يزيد في الأسف أن تسمح لجنة التحرير الوطنية الفرنسية في الجزائر ـ في سنة ١٩٤٣ ـ تحت حماية الجنرال ديغول لمندوبها السامي في سورية بسجن رئيس الجمهورية المنتخب حديثا مع أعضاء الوزارة السورية الجديدة • فقد كان ذلك واحداً من الأعمال النابية التي ارتكبت مؤخرا ، ومن أكثرها حماقة • وقد الغيت هذه العملية على أثر اللوم والانذار الشديدين من كل من لندن وواشنطن• وسمح للحكومة السورية بممارسة عملها مرّة أخرى ، ولكن تأثيرها في الرأي العام السوري ليس مما يصعب تصوّره • ولن يزيل ما يشعر به السوريون نحو الغرب من نفرة وعداء طويلين الاّ تأكدهم من

ضمان استقلال بلادهم في المستقبل من قبل منظمة دولية ، وانحسار نفوذ فرنسة عن منطقتهم •

أما السياسة البريطانية في العراق ، فقـد كانت ــ خـلال ربع القرن الماضي ــ أكثر استنارة • صحيح ، أنه كانت هنالك صعوبات واصطدامات بسيطة ، ولكنّ بريطانية رتّبت انهاء انتدابها على العراق متطوّعة مقابل ضمان أمنها ــ عندما تكون مهـددة بالخطر ــ وذلك بأن تحصل في الأراضي العراقية على « جميع التسهيلات والمساعدات ومن ذلك استخدام السكك الحديدية والأنهر والمواني والمطـارات ووسائل المواصلات » [1] • وهذه إحدى الحالات القليلة التي يعمل فيها نظام الانتداب ، كما ورد في ميثاق عصبة الأمم ، لمصلحة القطـر الذي هو تحت الانتداب •

وبالرغم من السياسة الحكيمة التي اتبعتها الحكومة البريطانية فان الروح الوطنية في العراق أخذت تقوى بأطراد ، ولما أسقط رشيد عالي ، المؤيد للألمان ، حكومة العراق في مايس ١٩٤١ ــ نتيجة للاعمال الهدّامة الألمانية ــ وأرسلت القوات البريطانية للقضاء على الخطـر الذي نشب بهذه الصورة ، بما يتفق كل الاتفاق مع شروط المعاهدة ، فان العدوان الشعبي جعل نجاحهم مشكوكا فيه • ولم يمكن ــ الاّ بعد شهرين من القتال الجدّي ــ إزاحة الحكومة المغتصبـة ، وان تتمكن المفوضية الأمريكية المحاصرة ، التي التجأ اليها كثير من الموظفين

---

(١) المادة (٤) من «معاهدة التحالف بين العراق وبريطانية العظمى» لسنة ١٩٣٠.

(المترجم)

البريطانيين من اخراج نزلائها • وأكثر من ذلك ، فقد كان يبدو مؤخرا أن جانبا من أسوأ مظاهر نظام المحور أخذ يسود العراق • فالعداء الشديد الذي أظهرته الحكومة العراقية تجاه اليهود خلال السنتين الأخيرتين مرارا ، أصبح حاداً بحيث أن صديقا للامم المتحدة مستنيراً وصلباً كنوري باشا ، رئيس الوزراء ، رفض قبل سنة واحدة ان يسمح بمرور خمسمئة طفل من أطفال اليهود اللاجئين الى فلسطين عبر العراق • وكان الأطفال قد أتيح لهم أن يهربوا الى القسطنطينية من البلاد التي احتلتها دول المحور • وكان المعتقد في ذلك الوقت أنه ليس من المأمون ارسالهم الى فلسطين بطريق البحر • ولم يكن في العراق ـ في السنوات الماضية ـ أي شعور معاد للساميّة • وكان اليهود المقيمون هناك يعاملون بدون أي تمييز ، ولم تثر أية صعوبة بسبب أية مشكلة عنصرية • ولذلك فان الموقف الذي اتخذتهالحكومة مؤخرا سيكون تعقيدا جديد في تقرير حالة فلسطين المستقلة •

مذكرات الدكتور فريتز غروبا

القائم بأعمال المانيا ثم وزيرها المفوض في العراق

من سنة ١٩٣٢ الى سنة ١٩٣٩ ثم في مايس سنة ١٩٤١

مقدمة

سألني كثير من أصدقائي في ألمانية وانكلترة والبلاد العربية ان أكتب مذكراتي . ولما كنت في بغداد للمرة الأخيرة في أيلول سنة ١٩٦٣ كتبت الجرائد هناك انني ربما أنشر مذكراتي باللغة العربية ، ليتمكن العرب من قراءتها .

ولم يشجعني على كتابة مشاهداتي خلال اقامتي سنوات طويلة في بلاد الشرق هذه الطلبات من أصدقائي فقط ، ولكن رغبتي في تسجيل هذه المشاهدات للمستقبل أيضا .

ان ما سأدوّنه يستند بصورة رئيسية الى صلاتي بالشخصيات المهمّة ، فقد أتيح لي أن أكوّن علاقات شخصية بالملوك أمان الله في كابل ، وفيصل الأول في بغداد ، وابن سعود في الرياض ، وأن أحادثهم أحاديث طويلة .

ومن المهم عندي أيضا حين كتبت مذكراتي الأخطاء التي وقع فيها مختلف الكتّاب الألمان والانكليز الذين كتبوا عن الأحداث في الشرق . وقد حاولت تصحيح هذه الأخطاء .

ومصدر مهم آخر لي كان الوثائق الموجودة الآرشيف السياسي لوزارة الخارجية وقد وضعها مديرها الذي توفي للأسف « مستشار

السفارة اولريخ » تحت تصرّفي بصورة تستوجب الشكر .

وبالرغم من أنني أعلم أن ليس في الاسلام منصب « المفتي الأكبر » فأنني دعوت الحاج أمين الحسيني بالمفتي الآكبر، لأنه معروف في ألمانيا كذلك .

وستكون مذكراتي واسطة للتعبير عن شكري للكثير من أصدقائي في البلاد الشرقية الذين يحافظون على هذه الصداقة حتى اليوم .

حكمت سليمان في الحكم

في ٢٩ تشرين الآول سنة ١٩٣٦ تسلّم حكمت سليمان الحكم عن طريق حركة مسلّحة نفّذها الجيش بقيادة بكر صدقي •

وحكمت سليمان سليل أسرة تركمانية ، وأخ غير شقيق لمحمود شوكت باشا الذي قاد الجيش التركي من سلانيك الى القسطنطينية في سنة ١٩٠٩ وأجبر السلطان عبد الحميد الثاني على التنازل عن العرش•

تلقّى حكمت سليمان دراسته في بغداد أولا ، ثم أكمل الجانب الأهم منها في استانبول ، وكان عضوا له نفوذه في جمعيّة (الاتحاد والترقّي) التركية ، ومن المعجبين بكمال آتاتورك • وكان خلال الحرب العالمية الاولى في بغداد ، فعيّن نائبا للوالي بترشيح من الماريشال « فون درغولتز » في سنة ١٩١٩ [١] ، وفي السنوات الأخيرة من الحرب بقي في برلين ، ومنذ ذلك الوقت أخذ يتكلم شيئا من الالمانية • وفي سنة ١٩٢١ عاد الى بغداد ، واشترك في وزارات عديدة،

---

(١) كان العراق في سنة ١٩١٩ تحت الاحتلال البريطاني ، ولذلك فلا بد من وجود خطأ في السنة التي يشير اليها المؤلف .
(المترجم)

وأصبح عضوا في البرلمان ، ورئيسا له فترة من الـزمن [1] • وبعـد توقيع المعاهدة العراقية ـ البريطانية في سنة ١٩٣٠ أسس السياسيون العراقيون الذين كانوا يرون أنهـا لا تحقق الأماني الوطنيـة حـزبا للمعارضة باسم « حزب الاخاء الوطني » فانتمى حكمت سليمان اليه ، وأصبح عضوا في لجنتهالتنفيذية • وكان زعيم الحزب يسين الهاشمي، ومن أعضائه رشيد عالي الكيلاني ومحمد زكي • وكان هذا الحزب على صلة وثيقة بحزب جعفر أبي التمّن القديم « الحـزب الوطني » الذي كان هدفه ـ كهدف حزب الاخاء الوطني ـ انهاء الانتـداب وتحقيق الاستقلال •

وتمكن « حزب الاخاء الوطني » من الوصول الى السلطة في ٢٠ آذار ١٩٣٣ عندما اختار الملك فيصل الأول رشيد عالي الكيلاني رئيسا

---

(١) عين السـيد حكمت سليمان بعد عودته الى العراق مديرا عامـا للبريد ، فمديرا عاما للبريد والبرق ، ثم انتخب عضوا في مجلس النواب وعين وزيرا للمعارف في وزارة عبد المحسن السعدون الثانية ، ثم وزيرا للداخلية بالوكالة على أثر انتخاب وزير الداخلية رشيد عالي الكيلاني رئيسا لمجلس النواب ، ثم أصبح وزيرا للداخلية ، ولما استقال الكيلاني من رئاسة المجلس انتخب حكمت سليمان خلفا له ، وبقي في الرئاسة حتى افتتاح دورة المجلس التالية (في أول تشرين الثاني ١٩٢٦) حيث رشحته الوزارة لرئاسة المجلس ثانية ، ولكن الاكثريـة انتخبت رشيد عالي الكيلاني ، فعد السعدون هذه النتيجـة خـذلانا لوزارته وقـدم استقالته . ثم اشترك حكمت سليمان في وزارة السعدون الثالثة وزيرا للعدلية ، وبقي فيها الى حين استقالته في حزيران ١٩٢٨ ، وعندمـا ألف السعدون وزارته الرابعة عرض على حكمت سليمان وزارة الـري والزراعة ، فطلب حكمت وزارة الداخلية ، ولذلك رفض الاشتراك في الوزارة ، وبقي خارج الحكم حتى ألف رشيد عالي الكيلاني وزارته الاولى في اذار ١٩٣٣ فاشترك فيها وزيرا للداخلية ، وكذلك في وزارة الكيلاني الثانية ألفت في السنة نفسها .

(المترجم)

للوزراء . أما الأعضاء الآخرون في الحكومة فكانوا يسين الهاشمي (وزيرا للمالية) وحكمت سليمان (وزيرا للداخلية) .

وفي عهد حكومة (الكيلاني - يسين) حدث عصيان الآثوريين في تموز وآب سنة ١٩٣٣ ، ورفضت الحكومة أن تعترف «للمار شمعون » بالسلطة الزمنية - خلافا لمقترحات الملك فيصل الداعية الى اللين والتفاهم . أما مطلبه الآخر فكان إفراد منطقة خاصة بالآثوريين في العراق . وقد تمكنت الحكومة من القضاء على حركة الآثوريّين بصورة دمويّة . وكان حكمت سليمان موافقا على الاتجاه العام للسياسة التي اتبعها أمير اللواء بكر صدقي تجاه الآثوريين [١] .

وكان حكمت سليمان يتمتع بمزايا عظيمة . وقد تمكن بموقفه الحازم في الموصل من الحيلولة دون تعرّض المسيحيين لمذبحة عامة[٢] .

تعرّض رشيد عالي لسخط بعض رجال حزبه الذين لاموه على تهاونه في تعديل المعاهدة العراقية - البريطانية لسنة ١٩٣٠ خلافا لأهدافه التي سبق أن أعلنها بصورة رسمية . وبغية تقوية موقف الحكومة إزاء هذا الوضع طلب موافقة الملك على حل المجلس . ولكن الملك رفض هذا الطلب ، فقدّم وزير الداخلية حكمت سليمان ووزير العدل محمد زكي استقالتهما احتجاجا على ذلك في البداية ، ثم أعقبهما رشيد عالي أيضا في ٢٨ تشرين الأول سنة ١٩٣٣

ولم يتمكن جميل المدفعي وعلي جودت اللذان خلفا رشيد عالي في الحكم من الاحتفاظ بالسلطة الا ّ لمدة قصيرة ، لأن الوزارة في

---

(١) خدورى ، ص ٤٢
(٢) ستافورد ، ص ١٩٤

عهديهما كانت تعاني من ضعف داخلي ، وهزمت أمام ضغط عشائر الفرات الأوسط الشيعية التي كان يحرّضها حزب الاخاء الوطني • ولما فكر علي جودت في قمع ثورات الشمال بالقوة رفض أمير اللواء بكر صدقي الذي كان قائدا للقوات الشمالية ــ بايعاز من حكمت سليمان ــ أن يدعم الحكومة دعما فعّالا [١] ، فاضطر علي جودت الى الاستقالة في ٢٣ آذار سنة ١٩٣٥ [٢] ، وعهد الملك غازي بتأليف الوزارة الى رئيس حزب الاخاء الوطني يسين الهاشمي •

عرض يسين وزارة المالية على حكمت سليمان فلم يقبلها ، وأراد وزارة الداخلية ــ ذات النفوذ الأكبر ــ ولكن الهاشمي بسبب بعض الشكوك التي ساورته ، لم يرغب في أن يعهد وزارة الداخلية التي تسيطر على الصحافة والشرطة الى حكمت سليمان • بل عرضها على رشيد عالي • فأصبح حكمت سليمان معارضا لزميله القديم في الحزب يسين الهاشمي ، وأخذ يلومه على عدم رعاية مصالح العراق تجاه الانكليز بدرجة كافية ، وانضم الى جماعة « الأهالي » التي كانت تتبع ــ بزعامة كامل الجادرجي وجعفر أبي التمن ــ منهاجا ديمقراطيا

---

(١) خدوری ، ص ٥١

(٢) ان كل ما ذكره السيد علي جودت في مذكراته عن اسباب استقالة وزارته (الاولى) هو انه كانت قد اثيرت في عهدها قضية الحدود بين العراق وايران ، فاضطرت الحكومة العراقية الى مراجعة عصبة الامم لحسم الخلاف .. « وبينما كان الوفد العراقي (برئاسته) يسعى جاهدا لتثبيت حق بلاده في العصبة الاممية ، كانت المؤامرات ضد الوزارة تحاك في بغداد ، ولا سيما في محلة الصليخ ، وفي بيت رشيد عالي الكيلاني ، من غير ان يحسب الحساب لما قد ينجم عن ذلك من آثار مضرة بمصالح العراق » ــ (انظر : علي جودت « ذكريات » ، بيروت ١٩٦٧ ص ٢٢١ ــ ٢٢٢)

(المترجم)

واشتراكيا ، كما أصدر جريدة (البيان) التي هاجمت يسين ورشيد عالي لتساهلهما أمام الانكليز في مصالح العراق الاقتصادية المهمة. وقد عطّلت هذه الجريدة بأمر من يسين الهاشمي ، وحاول وزير الخارجية نوري السعيد أن يتوصل الى تسوية بين الحكومة وجماعة (الأهالي) ولكن حكمت سليمان رفض . وبدلا عن « التسوية » المقترحة أسس حكمت سليمان علاقات مع القائدين المتنفّذين في الجيش ، اللواءين : بكر صدقي وعبد اللطيف نوري .

ولا شك أن حكمت سليمان كان في ذلك الوقت يفكر في الاستعانة بالجيش لاسقاط الحكومة ، لأن الحكومة كانت تتمتع بتأييد أغلبية قوية في البرلمان ، ولا يمكن ــ بموجب الدستور ــ اسقاطها الا بالتصويت بحجب الثقة عنها . ولذلك لم يكن من الممكن تغيير الحكومة الا بانقلاب ، وقد حقق حكمت سليمان هذا الهدف بواسطة علاقته بالجيش .

وكان بكر صدقي رجلا فعّالا وطموحا،وقد أخمد في سنة ١٩٣٣ ثورة الآثوريين ، وثورات عديدة في منطقة الفرات الاوسط ، وكان يعتقد أنه لم يكافأ على خدماته بما يستحق . وقد تعاون خلال ثورة الآثوريين في سنة ١٩٣٣ مع حكمت سليمان ، وكان حكمت سليمان هو الذي حال دون ما طلبه الانكليز من تنزيل درجة بكر صدقي واحالته على المجلس العرفي العسكري . واتفق الاثنان على القيام بانقلاب عسكري منذ ذلك الوقت .

وعندما كان بكر صدقي رئيسا لأركان الجيش بالوكالة خلال غياب طه الهاشمي في تركية ، اجتمع الرجلان في يومي ٢٦ و٢٧ تشرين

الأول (١٩٣٦) ــ ومعهما قائد الفرقة الثانية أمير اللواء عبد اللطيف نوري الذي كان يتمتع بثقة بكر صدقي ــ وتم الاتفاق على الخطوات الضرورية • فعسكرت الفرقتان الاولى والثانية في « قرەغان » و « بلدروز » القائمة قرب السكة الحديد بين بغداد وكركوك • وأعد بكر صدقي وعبد اللطيف نوري كتابا الى الملك غازي ، طالبا فيه باقالة الوزارة يسين الهاشمي واناطة الوزارة بحكمت سليمان الذي كان موضع ثقتهما • وكانت هذه الرسالة موقعة باسم « القوة الوطنية الاصلاحية » ، وقد أرسلت بصورة سرّية الى حكمت سليمان لكي يسلّمها الى الملك شخصيا •

وكنت في يوم ٢٨ تشرين الاول مدعوّا الى العشاء لدى رؤوف الجادرجي ، المستشار القانوني لشركة النفط العراقية ، وصديق يسين الهاشمي ، فحضر حكمت سليمان بعد العشاء ، وكان مرتبكا جدا ، فاختلى الرجلان ، ودار بينهما حديث طويل •

الانقلاب

في ليلة ٢٨/٢٩ تشرين الاول توجّه بكر صدقي على رأس قوّاته الى بعقوبا ، وأصبح على مقربة من بغداد فجرا •

وكان أعضاء البعثة العسكرية البريطانية ، وضابط الاستخبارات البريطاني « لاسيتر » ــ الذي كان حاضرا في قرەغان ــ هادئين ، نعلمهم أن هناك مناورات ليلية •

وأرسلت الى قرەغان يوم ٢٨ تشرين الاول خمس طائرات من القوة الجوية العراقية ، مزوّدة بالقنابل •

وفي الصباح الباكر من يوم ٢٩ تشرين الاول ، كنت خارجا على

ظهر حصاني في مسيرة على السدّة في شمال بغـداد في حوالي الساعة السادسة والنصف ، كعادتي ، فشاهدت في السهول الممتدة شرقي السدّة قطعات مجهزة تجهيزا كاملا وعرفني الضباط، فتركوني أستمر في مسيرتي.

ولم تساور يسين باشا أية شكوك . فحضر في الساعة الثـامنة صباحا الى دار جاري جميل المدفعي ، وكان يحاول حمله على الاشتراك في الوزارة . وكان المفروض أن يزورني أيضا في الساعة الثامنة والنصف لمباحثتي في بعض القضايا الاقتصادية . ولكنه لما كان مع جميل المدفعي، أخبر هنالك بتوزيع مناشير في المدينة . وكان نص هذه المناشير ـ التي تحمل توقيع بكر صدقي « رئيس القوة الوطنية الاصلاحية » ـ كما نقلته جريدة « بغداد تايمس » الصادرة في ٣٠ تشرين الاول ، يقـول ان الجيش « .. طلب الى صاحب الجلالة الملك المعظم اقامة الوزارة القائمة ، وتأليف وزارة من أبناء البلاد المخلصين برئاسة السيد حكمت سليمان الذي طالما لهجت البلاد بذكره الحسن ومواقفه المشرّفة . وبما أنه ليس لنا قصد من هذا الطلب الا تحقيق رفـاهكم وتعزيز كيـان بلادكم ... » [١] الخ .

أما تطورات الانقلاب الاخرى، فقد وصفها خدورى بالتفصيل [٢].

وفي اليوم نفسه وصل بغداد الامير محمود خان ، وزير الدفاع الافغاني ، فزرته في البلاط الملكي فقال لي انه يأسف لوقوع هـذا الانقلاب ، لأنه يعتقد أن أي انقلاب عسكري فيه أضرار كبيرة .

وفي يوم ٢ تشرين الثاني ، خرجت مظاهرة ، نظمتها الحكومة ،

---

(١) نقلنا هنا النص العربي للمنشور (المترجم)

(٢) خدورى ، ص ٨٠ ـ ٩٢

فطافت في شوارع بغداد الكبرى اظهارا لسرور الشعب بالتغيير الوزاري • ووزعت مرة أخرى مناشير تدّعي أنها تعرب عن رغبات الشعب ، وكان لهجة هذه المناشير تذكر بالمقالات الافتتاحية لجريدة « الأهالي » التي تعبر عن مصالح العمال ، وكان الذي يساهم في تحرير هذه الجريدة هو وزير الاقتصاد والمواصلات كامل الجادرجي • ولكن بعض اللافتات التي رفعت في المظاهرات كانت تتضمن عبارات شيوعية مثل : « تعيش الجبهة الشعبية » و « تسقط الفاشستية » ، وشوهدت في المظاهرات أيضا أعلام حمر •

أخبرني حكمت سليمان فيما بعد ان الحكومة الجديدة ترغب في اقامة علاقات اقتصادية وثقافية مع ألمانيا ، ووصف تلك اللافتات الشيوعية بأنها أخطاء مؤسفة ، كما أعرب لي عن رأي مشابه لذلك وزير الخارجية ناجي الأصيل ، وأضاف أن الحكومة الجديدة ليست معادية لليهود ، بل انها ترى أن اليهود العراقيين لهم حقوق متساوية كسائر المواطنين العراقيين ، وأنها ستحميهم ما ظلوا بعيدين عن النشاط الصهيوني •

مقتل جعفر باشا

لقد كان عبئا قاسيا على الحكومة الجديدة التي بدأت عملها بكثير من حسن النية أن يقتل في يوم الانقلاب وزير الدفاع في الحكومة السابقة جعفر باشا (العسكري) الذي كان محبوبا جدا من الجيش ومن الشعب • وقد اقترح على الملك أن يسلّم الى بكر صدقي شخصيا

رسالة منه يطلب فيها الا يزحف على بغداد مع قواته [1] • وبالرغم من أن الملك حاول أن يثنيه عن هذه الفكرة ، فانه ألح عليها لاعتقاده بأنه يستطيع أن يغيّر رأي الضباط ، لما يتمتع به من محبة في الجيش • فخرج بالسيارة يصحبه ضابط لمقابلة القوات في طريق بعقوبا ، فلما التقى بها على بعد ١٢ كيلومترا تقريبا من المدينة، طلب اليه أحد الضباط أن ينزل من سيارته ويركب معه في سيارة أخرى • وكان هذا الضابط هو الذي قام في سنة ١٩٣٣ مع جماعته من حملة الرشاشات بمذبحة في « سمّيل » [2] • وانحرفت هذه السيارة عن الشارع وسارت في

---

(١) ان نص هذه الرسالة التي قيل ان الملك غازي كلف « رستم حيدر » بكتابتها ليوقعها هو ـ كما اثبته الاستاذ عبد الرزاق الحسني في « تاريخ الوزارات العراقية » (الطبعة الثانية ، ج ٤ ، ص ٢٠٥) ـ ما يأتي :

« عزيزي بكر صدقي

« تتسلمون هذا الكتاب من يد السيد جعفر العسكري الذي سيلاقيكم بصورة خصوصية لاجل بحث الموقف . لقد بلغني الآن ان بعض الطيارات القت ثلاث قنابل فاستغربت جدا لهذا الحادث الجديد ، بعد أن سبق لي أن أخبرتكم تلفونيا بلزوم ايقاف كل حركة بينما أتدبر الوضع الحاضر . ان كل حركة أخرى سوف لا تخلو من أن تؤثر اسوأ الاثر على مستقبل البلاد وسمعة الجيش ، اذ ليس من حاجة البتة لشيء من ذلك ، وسوف تفهمون التفاصيل من جعفر . »

٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦

القائد العام

غازي

ومن غريب ما يلاحظ ان كاتب هذه الرسالة (رستم حيدر) والموقع عليها (غازي) وحاملها (جعفر العسكري) والشخص الذي ارسلت اليه (بكر صدقي) ماتوا كلهم مقتولين .

(المترجم)

(٢) « سميل » اسم موقع احدى المعارك التي جرت في أثناء قمع حركة الآثوريين ، والضابط المقصود هو « اسماعيل عباوى » المعروف باسماعيل توحله ، أو ابن توحله ، والمتوفى في سنة ١٩٦٨

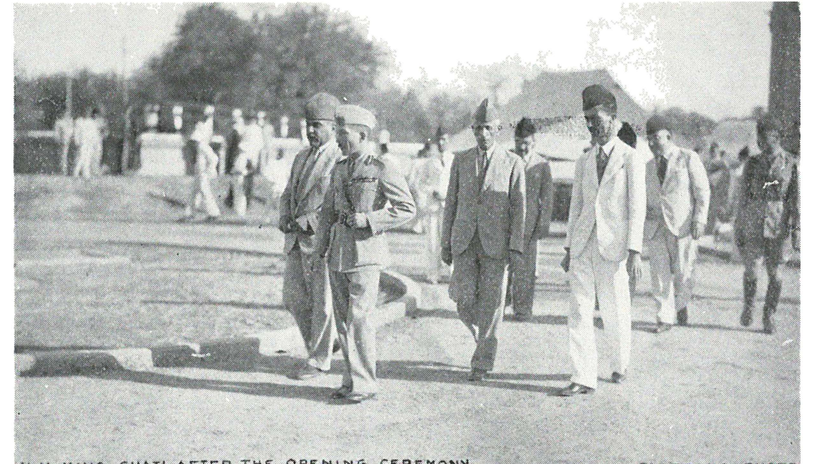
(المترجم)

طريق صحراوي ، ومنذ ذلك الوقت أصبح جعفر مفقودا • وقد علم بعد بضعة أيام أنه قتل بالرصاص ودفن بصورة مستعجلة في الصحراء

كانت الحيلولة دون حصول لقاء بين جعفر باشا والجيش مسألة حياة أو موت لبكر صدقي • ولا شك انه هو الذي أصدر الأوامر بقتله ، وبهذا العمل أصبح ذوو قرابة جعفر باشا ، وصهره نوري السعيد ، وكثير من أصدقائهم ، أعداء ألدّاء لبكر صدقي وحكومة الانقلاب •

كان جعفر باشا من أصل تركماني ، ولكنه كان وطنيا عراقيا كبيرا وقوميا عربيا مؤمنا • تلقى تعليمه في الجيش التركي ، وأرسل في سنة ١٩١٠ مع عدد من الضباط الى ألمانيا ، وبقي هناك في الخدمة في كتيبة « بادن » في مدينة « كارلتزروه » • وكان جعفر بعد ذلك على صلة دائمة مع كثير من رفاقه في ذلك الزمن ، وكان يتكلم الالمانية جيدا • وقد قال مرة ان السنوات التي قضاها في « كارلتزروه » كانت أسعد سنوات حياته •

وحارب جعفر خلال الحرب العالمية الاولى كضابط تركي في ليبيا، ونال في سنة ١٩١٥ وسام « الصليب الحديدي » • ثم أسره الانكليز ، فأخذ الى قلعة القاهرة • وبعد محاولة هرب مخفقة ، انحاز الى جانب الانكليز ، فنقلوه الى « مكّة » ليكون مع الشريف حسين الذي كان قد ثار على الأتراك في سنة ١٩١٦ ، فتسلّم منصبا قياديا في الجيش الذي أسسه ـ بنقود الانكليز ـ النجل الثالث للملك حسين : فيصل الذي توّج ملكا على العراق فيما بعد • ونال جعفر من الانكليز وسامي « سنت مايكل » و « سنت جورج » •



الملك غازي والى يمينه ياسين الهاشمي (رئيس الوزراء) ، والى يساره محمد امين زكي (وزير الاشغال والمواصلات) فعبد الاله ، فمحمود صبحي الدفتري في حفلة تدشين مشروع اسالة الماء الجديد في (الصرافية) ببغداد سنة ١٩٣٦



جعفر العسكري

وفي أيلول سنة ١٩١٨ ذهب مع فيصل الى دمشق وعين قائـدا عسكريا لمنطقة حلب • فلما أعلن الانكليز فيصل ملكا في بغداد في سنة ١٩٢١ ، ظهر جعفر باشا هناك أيضا ، وعين وزيرا للدفاع وقائدا عاما للجيش العراقي الجديد • وفي سنة ١٩٢٥ عين ممثلا دبلوماسيا للعراق في لندن ، وفي تشرين الثاني سنة ١٩٢٦ اختير رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجيــة •

ومن سخرية التاريخ القاسية ــ وخدّورى مصيب في هذا (١) ــ أن يكون جعفر باشا الذي عمل جاهدا في سبيل تأسيس جيش وطني ، أول ضحايا ذلك الجيش عند ثورته • وقد نقل جثمانه ــ الذي دفن في البداية في مكان اغتياله ــ الى بغداد في ٥ تشرين الاول سنة ١٩٣٧ في أيام وزارة جميل المدفعي ، ودفن باحتفال مهيب الى جانب قبـر الملك فيصل •

منهاج الوزارة الجديدة

وصفت الحكومة الجديدة نفسها بأنها « حكومة مؤلفـة وفق رغبات الشعب » ، وكان ذلك في منهاجها الذي أعلنته يوم ٥ تشرين الثاني على لسان وزير المالية جعفر أبو التمّن، في حديث اذاعي، وقالت إنها « •• قائمة بما يكفل احلال الطمأنينة التامة لعامة أبناء الشعـب وجميع السكان ، عاملة كل ما به استتباب الأمن وتأمين الراحةوتطبيق

---

(١) خدورى ، ص ٨٠

العدل على الجميع .. والمحافظة على أموالهم ونفوسهم وحريّـاتهم واحترام معـابدهم ومشاعرهم الدينيـة بدون التفريق بين الأديـان والمذاهب » .

أما في السياسة الخارجية، فان الحكومة مستهدفة تحسين الصلات الودية مع الدول بصورة عامة والدول المجـاورة بصورة خاصـة ، وتوثيقها الروابط مع الأقطار العربية والتعاون المثمر معها » .

وبالرغم من هذا التصريح من الحكومة الجديدة بأن الحكام السابقين اتّبعوا « سياسة التحزب وتقديم المحسوبين عليها والمنسوبين اليها وتحقيق المصالح الشخصية والمنافع الذاتية مما زاد في الاستيـاء العام وسخط الجمهور العراقي » [1] ، فان هذه المآخذ جميعا لم تكن تسوّغ ــ بحسب الرأي السائد ــ القيام بانقلاب لتصفية الحكومة غير المرغوب فيها ، ولذلك كان المرء أميل الى الاعتقاد بأن الأسباب الحقيقة للانقلاب تعود الى الطموح المجروح للقائمين به .

فحكمت سليمان كان ساخطا ، لعدم اصغاء أحد اليه ، ولاغـلاق جريدته (البيان) . وبكر صدقي كان يعتقد أن كفايته وانقاذه البلاد بصورة متكررة لم يقدّرا حق قدرهما.وقائد القوة الجوية كان مستاء، لأن الملازم الجوي « صباحا » ــ ابن وزير الخارجية نوري السعيد ــ رفّع خلال مرضه الى رتبة ملازم أول ثم الى رئيس ، وعين مرافقـا للملك .

ان الحكومة الجديدة بتأكيدها على حماية جميع الأديان افترقت

---

(۱) استعملنا ــ بقدر الامكان ــ العبارات الواردة في النص العربي للخطاب . (المترجم)

عن سياسة الحكومة السابقة في معاداة اليهود ، وقام رئيس الوزراء حكمت سليمان بزيارة رئيس الحاخامين في ٩ تشرين الثاني [١] مؤكدا له حماية الحكومة لليهود في العراق •

وعين قائد الانقلاب العسكري أمير اللواء بكر صدقي رئيسا لأركان الجيش بدلا من طه الهاشمي الذي أقصي عن هذا المنصب •

وقد راجت بعض الاشاعات التي تقول بأن الملك غازي قد تعاون مع قادة الانقلاب ، وكانت هذه الاشاعات تستند الى الفتور الذي حصل بين الملك غازي ويسين الهاشمي بعد زواج أخت الملك من نُدُل يوناني ، ووضع الملك تحت رقابة صارمة • على أن هذه الاشاعات ربما لا تكون صحيحة ، لأن زعماء الانقلاب لم يروا من الضروري اخبار الملك بخطتهم [٢] •

---

(١) يظهر من مراجعة الصحف العراقية الصادرة في تلك الفترة ان الزيارة كانت في السادس من تشرين الثاني وليس في التاسع منه (انظر ، مثلا : « البلاد » الصادرة بتاريخ ١٩٣٦/١١/٨) (المترجم)

(٢) قال الاستاذ عبد الرزاق الحسني : « يرى بعض الساسة ان لجلالة الملك غازي علما بحركة الجيش ، ولكن السيد رستم حيدر ، رئيس الديوان الملكي ، اكد لنا ان الملك كان مضطربا كل الاضطراب ، من هذه الحركة ، وانه بقي مضطربا ، لا يأكل ولا يشرب ، حتى كلم جلالته الفريق بكر صدقي من (مخفر شرطة المفيسيل) مؤكدا ان الجيش سيبقى على ولائه لصاحب التاج . اما السيد حكمت سليمان ، فقد قال لنا ان الملك غازي لم يكن مسبوقا بالحركة ولكنه قابلها بالارتياح ، لان (الوزارة الهاشمية الثانية) كانت قد فرضت رقابة شديدة على تصرفاته الشخصية » (تاريخ الوزارات العراقية ، ج ٤ ، ص ١٩٩ ، الطبعة الثانية ، صيدا ، ١٩٥٣)

بينما دون طه الهاشمي في مذكراته في يوم ٢٢ تشرين الاول ١٩٣٧ ما يأتي : « ... ويقول صفوت العوا انه دخل على الملك بعد الانقلاب فرآه منبسطا منشرحا يتبجح بأنه رتب الانقلاب وهو الذي دبر مؤامرة الجيش ، فيزعم صفوت بانه قال للملك انك لا تعلم عن الامر شيئا ، فلماذا تلقي نفسك في ورطة وواجبك ان تبقى على الحياد ؟ » (مذكرات طه الهاشمي ، ص ٢٢٤) (المترجم)

وأدلى وزير الخارجية ناجي الأصيل بتصريح عن أسباب الانقلاب الى مندوب جريدة « التايمس » اللندنية [1] ، قال فيه ان البلاد قبل الانقلاب كانت تغلي استياء ، وان من أبسط الادلة على ذلك قيام القبائل بخمس ثورات متعاقبة في عهد الوزارة السابقة ، وقد وجد الجيش نفسه في شبه حرب مستمرة مع اخوانه ، وان الامتعاض الوطني بلغ أعلى درجات الحرارة لا بين القبائل وحدها ، بل في المدن والقرى ، حيث كانت وزارة يسين الهاشمي لا تتحمل المعارضة ولا تصبر على وجود المعارضين وأحزابهم • وكانت قبائل كثيرة ذات ظلامات حقيقية ثابتة ترفع أمرها الى الوزارة فلا تجد سامعا ولا مجيبا وان العراق برمّته كان يشعر بخيبة مريرة ، مع أن الهاشمي توصّل الى السلطة وهو متمتع بشهرة بعيدة كزعيم وطني • أما موت جعفر فهو أمر مؤسف ، ولكنه هو الذي سبّبه ، فقد حذّره الملك في حينه فورا من مغبّة حمل الرسالة الى القوات الثائرة بنفسه [2] • ان الحكومة ستتبع نهجا دستوريا ، وأن الجنرال بكر صدقي لا يرغب في التدخل في السياسة • اما السياسة الداخلية للحكومة فستنبع من ايمانها بعدم التمييز بين العراقيين سواء أكانوا من أصل عربي أم كردي أم تركي •

وتحدث عن السياسة الخارجية قائلا ان الحكومة ترغب في المحافظة على الصداقة والتعاون الوثيق مع بريطانية العظمى ، وتقوية

---

(١) « التايمس » ، لندن ، ١ تشرين الثاني ١٩٣٦

(٢) نشرت جريدة « البلاد » الصادرة في بغداد بتاريخ ١٩٣٦/١١/١٢ نص هذه التصريحات — نقلا عن مراسل الاهرام الخاص في لندن — بعد ان حذفت منها الفقرة الخاصة بمقتل جعفر العسكري .

(المترجم)

الصداقة مع تركية التي أظهرت عطفها على العراق ، وكان موقفها منه جيدا للغاية في السنوات الأخيرة . كما أن الحكومة ترجو أن تتوصل قريبا الى تسوية مع ايران حول الخلافات القائمة ، وخلق أسس جديدة للصداقة والتعاون بين البلدين ، وأنه يأمل أن تحقق معاهدة الصداقة مع المملكة العربية السعودية مزيدا من الخير للبلـدين والصـداقة والتقارب بينهما ، وتقضي على جميع أسباب الخـلاف المحتملة . ان الشعب العراقي ينظر باهتمام الى مستقبل فلسطين ، وفي هذا الصدد تعتبر البرقية التي أرسلها الملك غازي الى الهيئة العربية العليا مؤخرا نقطة انطلاق [١] ، وأن الوزارة تأمل أن ينال عرب فلسطين العدالة

---

(١) الاشارة هنا الى البرقيات التي أرسلها الملوك العرب الى اللجنة العربية العليا عندما قامت ثورة سنة ١٩٣٦ في فلسطين ، وعم الاضراب جميع مرافق البلاد ، فقررت الحكومة البريطانية ان توفد الى فلسطين لجنة ملكية ــ برئاسة اللورد بيل ــ « للتحقيق في أسباب القلق الاساسية وشكاوى العرب واليهود ــ من غير تعرض لنصوص الانتداب ــ ولترفع التوصيات لازالة الظلامات ومنع تكرارها » . وقد أعلن وزير المستعمرات « اورمسبي غور » عندما كانت الثورة في أوجها ، أن حكومته ستنفـذ توصيات اللجنة « اذا وجدتها جـديرة بالتطبيق » ، ولكن التجـارب الماضية كانت قد علمت العرب أن كل توصية لاية لجنة مصيرها الاهمال اذا كانت في مصلحة العرب ، فضلا عن ان اللجنــة لم تخول صلاحيـة مناقشة صك الانتداب ، ومعنى ذلك أنها كانت مرغمة على الالتزام بوعد بلفور والوطن القومي اليهودي دون مناقشة . ولذلك قرروا مقاطعـة اللجنة والمضي في الثورة . ولكن الحكومات العراقية والسعوديةوالاردنية الحت على اللجنة العربية العليا ــ بايعاز من بريطانية ــ ان تتصلباللجنة وتتعاون معها بحجة عدم اضاعة هذه الفرصة في عرض قضية العرب ، ووردت برقية من الملك عبد العزيز آل سعود الى اللجنة العربية العليـا يقول فيها ان الحكومة البريطانية وافقت على أن يوجه ملوك العـــرب وامراؤهم نداء يدعون فيــه العــرب الفلسطينيين الى وقف الاضراب والعودة الى السكون مبدية استعدادها للنظر في مقترحاتهم ، فأجابت اللجنة العليا ــ بعد استشارة وفود اللجان القومية ــ باستعداد الامـة

←

دون الحاق الظلم بأحد ، كما تضمر المشاعر الودية نحو سورية وترجو أن تتحقق لها معاهدتها الجديدة مع فرنسة السلم والحظ السعيد • وأنه يرجو بصورة عامة أن يصبح العراق مصدر قوة وعون للبـلاد العربية جميعا ، وان الوزارة تعتقد أن خير وسيلة لتحقيق هذه الغاية هي أن يصبح العراق دولة قوية واثقة من نفسها •

وكان ما يجلب الانتباه في هذا التصريح الايضاحات التي تضمنها عن سياسة الحكومة ـ الداخلية والخارجية ـ في المستقبل • وخلافها لجميع الحكومات السابقة التي كان العنصر العربي السني سائدا فيها ، والتي وجهت اهتمامها الكبير الى قضية الوحدة العربية ، فان الاركان الثلاثة في الحكومة الجديدة لا يمكن أن يقال عنهم انهم عرب خلّص • فرئيس الوزراء حكمت سليمان كان يدعى تركيا ، ووزير المالية جعفر أبو التمّن ، الزعيم السياسي للشيعة ، يقال انه من أصل ايراني ،ومدبر ثورةالجيش ورئيس أركانه الحالي بكر صدقي،كان كرديا•ولذلك كان من

لتلقي النداء ، اذا كان الملوك مطمئنين الى حسن العاقبة . وحينئذ أرسل كل من الملك غازي ، والملك عبد العزيز السعود ، والامام يحيى و (الامير) عبدالله برقيات متماثلة سبق الاتفاق عليها ، وهذا نصها :

« الى ابنائنا عرب فلسطين ـ بواسطة رئيس اللجنة العربية العليا

« لقد تألمنا كثيرا من الحالة السائدة الان في فلسطين فنحن بالاتفاق مع اخواننا الملوك والامير ندعوكم للاخلاد الى السكينة ، حقنا للدماء ، معتمدين على حسن نيات حليفتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة في تحقيق العدل. وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم ـ غازي»

ويلاحظ من صيغة البرقية انها مترجمة عن الانكليزية !

وقد تمخضت أعمال اللجنة الملكية عن «مشروع التقسيم» المعروف الذي خيب آمال العرب واثار استنكارهم ، وأشعل الثورة في فلسطين من جديد في أيلول سنة ١٩٣٧

(المترجم)

المفهوم أن تؤكد الحكومة الجديدة على المساواة في الحقوق بين جميع العناصر والاديان في العراق ، وان تجعل من أهدافها تقوية العراق بدلا من الاستمرار في السياسة العربية • ولما تحدث وزير الخارجية عن السياسة الخارجية في تصريحاته عن خطة الوزارة الجديدة ، وضع في البداية ضرورة المحافظة على الصداقة والتعاون مع بريطانية بموجب المعاهدة العراقية ـ البريطانية • وقد اختلف في هذا عن زميله وزير المالية الذي لم يذكر بريطانية اطلاقا في بيانه الذي نشر في اليوم نفسه عن منهاج الوزارة الجديدة • وفي معرض تعداد الدول ، لم يتبع الترتيب الذي سارت عليه الحكومات السابقة من ذكر الدول العربية المجاورة في البداية ، وانما ذكرت تركية وايران أولا ، كما أشير الى تركية بعبارات ودّية خاصة •

وقد أظهر تصريح وزير الخارجية بوضوح أن الحكومة العراقية الجديدة خرجت عما اتبعته العناصر العربية السنية من اعطاء الاولوية لأفكار الوحدة العربية ، وانها ستعمل على الاستفادة بنسبة متساوية من جميع عناصر البلاد القادرة على بناء الوطن لأجل تقوية الدولة العراقية وتشغيل فئات الشعب على اختلافها •

وصرح رئيس أركان الجيش بكر صدقي لصحفي تركي [1] انه هو وزملاؤه قدنبّهوا وزارة يسين الهاشمي الى الاستياء الذي تسببه

---

(١) الصحفي التركي الذي صرح له بكر صدقي هو « جلال ساهر » وكان في بغداد في صحبة وزير الدفاع الافغاني ، وقد ارسل التصريحات الى جريدة « خلق » التركية ، فترجمتها جريدة « صوت الاحرار » البيروتية ، ونقلتها عنها جريدة « البلاد » الصادرة في بغداد في ١٩٣٦/١١/١١

(المترجم)

الادارة السيئة في البلاد ، ولكن الوزراء تجاهلوا تحذيرهم ، ولذلك كانوا مجبرين على الاستعانة بالقوات العسكرية ، فطالبوا الوزارة بالاستقالة ، فلما تجاهلت هذا الطلب ، اضطروا الى القاء القنابل ،وانه ليست هنالك أية نية لخلق دكتاتورية في البلاد ، وان الجيش لم يقم الا بواجبه في صيانة الحقوق الوطنية وحرية الشعب ودستوره •

أما رئيس الوزراء حكمت سليمان ، فقد أعرب لممثلي الصحافة العراقية واللبنانية ، عن رأيه على النحو الآتي :

« ان العراق محاط بدولتين قويتين تسيران في طريق التقدم سيرا حثيثا ، وهما تركية وايران ، وهو متخلف عنهما ، وعليه أن يلحق بهما ، ولذلك فانه لواجب على الحكومة أن تهتم بتقدم البلاد السريع ليبلغ مستوى المدنية « الحقيقية » • ودرأ عن نفسه التهمة بأنه (بولشفيك) وقال ان هذه التهمة لها أسبابها ، وهي استنكاره منح الاراضي الاميرية الى الوزراء والاغنياء الذين كانوا قادرين على بناء القصور الفخمة ، بدلا من توزيعها على الطبقات الفقيرة ، لأن أغلبية السكان كانت تعيش في أسوأ الظروف ، وان يسين الهاشمي أخفق اخفاقا تاما ، ولم تكن هنالك وسيلة للتخلص منه ، لأن البرلمان كان يتألف بأجمعه تقريبا من أتباعه • ولذلك كان الجيش هو الأمل الوحيد، وقد طلب الى الجيش تنفيذ هذا الواجب في ثلاثة أيام ، ولكنه أنهى ذلك في أقل من ثلاث ساعات » [١] •

وكان أهم ما يلفت النظر في هذا التصريح الذي أدلى به حكمت سليمان ، قوله انه هو الذي وضع الخطة لاسقاط الحكومة بالقوة ،

(١) «Iraq Times» ١٤ و٢٦ تشرين الثاني ١٩٣٦

وانه هو الذي طلب الى الجيش أن ينفذ الخطة •

وأعلنت الوزارة منهاجها في بيان رسمي صدر في ٨ كانون الاول فلم تكن فيه جوهرية عن منهاج الوزارة السابقة،ففي سياستها الداخلية أعلنت أنها ستستمر على احترام المبادىء الاساسية للحكومة السابقة وهي توسيع الجيش ، وتنمية موارد البلد ودفع التطور الصناعي وتحسين المواصلات واصلاح النظام التعليمي وزيادة العناية الصحية•

أما في السياسة الخارجية فتضمّن المنهاج تعزيز روح التآزر بين العراق وبريطانية العظمى ، وتحكيم أواصر الصداقة مع تركية وايران والأفغانستان ، والعمل على التعجيل بالتوقيع على ميثاق عدم التعدي بين العراق وهذه الدول ، والسعي لتوثيق هذه العلائق الأخوية مع الاقطار العربية •

وكان السفير البريطاني ، السر آرجيبالد كلارك كر ، ثائرا في البداية بسبب اسقاط الحكومة السابقة ، وخاصة بسبب اغتيال جعفر باشا ، ولكنه عاد الى الهدوء مرة أخرى ، وأعرب لي عن اعجابه بشخصيتي حكمت سليمان وناجي الأصيل وتقديره العظيم لهما •

التعاون مع المانيا

كانت الحكومة العراقية الجديدة راغبة في زيادة التعاون مع المانيا في الميادين العلمية والثقافية • وقد أعرب لي عن هذه الرغبة جميع الوزراء تقريبا ، وخاصة رئيس الوزراء حكمت سليمان ، ووزير الخارجية ناجي الأصيل ، ووزير المالية جعفر أبو التمّن ، ووزير

المعارف يوسف عز الدين ابراهيم ، ووزير الدفاع عبد اللطيف نوري .

وكانت لديّ قائمة بالمواد التي ترغب الحكومة العـــراقية في شرائها من الشركات الالمانية ، قــدمها لي حكمت سليمــان . وكان البروفسور بريكس ، الخبير في هندسة المدن ، والبروفسور مــارخ الذي استقدم لتشييد بناية المتحف الجديد ، موجودين في بغداد بدعوة من الحكومة السابقة ، وكانت مقابلة الوزراء الجدد لهما ودية للغاية ، حيث أكدوا لهما تأييدهم لمهمتهما . وكان صالح جبر ، وزير العدل في الوزارة الجديدة ، قد استقــدم في سنة ١٩٣٤ ــ حين كان وزيــرا للمعارف في وزارة جميل المدفعي ــ الهر « سودهوف » لاستشارته في تأسيس مدرسة صناعية فنية [١] ، وقد قابل صالح جبر سودهوف مرة آخرى في ٢٦ كانون الاول سنة ١٩٣٦ ، فكان لطيفا معه في مقابلتهالتي أبدى له خلالها تأييده لتأسيس مدرسة صناعية فنية عراقية ــ المانية . وكان يعمل في مدارس العراق منذ سنة ١٩٣٦ ثلاثــة من المدرســين الالمان . وفي هذه الفترة أيضا تسلمت من الحكومة العراقية طلبــات لشراء محطات توليد كهربائية لبعض المدن العراقية ، كما دخلت وزارة الدفاع في مفاوضات مع الشركات الالمانية حول صفقات كبيرة . وكانت الوزارة محتاجة الى أسلحة جديدة بسبب التوسع المزمع في الجيش العراقي ، وعدم تقدم انكلترة بأي عرض حول طلبات العراق المتكررة ، مما حمل بكر صدقي ــ رئيس أركان الجيش ــ أن يتجه نحوي ونحو

---

(١) انظر ما كتبه السر موريس بيترسون ، السفير البريطــاني في بغداد في الفترة نفسها ، عن هذه المدرسة في مذكراته .

(المترجم)

زميلي الايطالي ، ويعرب عن رغبته في أن يحضر الى بغداد ممثلـــون عن الشركات المنتجة للاسلحة • وعلى ذلك حضر ممثلون عن شركتين المانيتين هما (راين ميتال ــ بورزيك) من برلين ، و (اوتو ــ وولف) من كولون ، فأعطتهما وزارة الدفاع قائمة بالاسلحة التي تحتاجها ، بقيمة خمسة ملايين « رايخسمارك » • وقد طلبت الوزارة من (راين ميتال ــ بورزيك) ثمانية عشر مــدفعا مضادا للطــائرات ، قطرهــا سنتمتران ، مع ١٨ ألف اطلاقة ، تبلغ قيمتها ١٨ ألف رايخسمارك •

وكان بكر صدقي يزورني كل يوم تقريبا ، ليبحث هذا الموضوع معي ، وفي أحد الايام قال انه يود ان يستقدم ضابطا ألمانيا من ضباط الأركان ، ليعهد اليه مهمة وضع خطة للدفاع عن « كردستان » في حالة احتلال الانكليز لبغداد • وعلى أثر ذلك حضر الى بغداد « ر• هاينتز» ــ وهو ضابط كبير متقاعد ــ منتحلا صفــــة جيولوجي [1] • وفي المحادثات التي كانت تدور بين بكر صدقي وهاينتز كل يوم تقريبا ، طلب اليه بكر صدقي أن يقدّم اليه اقتراحات للدفاع عن «كردستان» على نطاق واسع، وعن مقاومة أي هجوم محتمل من الجانب الايراني• وتنفيذا لرغبة بكر صدقي هذه ، سافر هاينتز الى ايران للاطلاع على وضع الحدود ، وتكوين فكرة عن العــدو المحتمــل • كما ذهب الى « كردستان » مرتين ، وتحادث هناك مع شيوخها في موضوع الدفاع

---

(١) يقود خدوري في (ص ١٧٣) من كتابه ان هاينتز قدم الــى بغداد منتحلا صفة مستشــار أو خبير لشركة المانية . وهذا خطأ . وانه لخطأ أيضا ان الكابتن المدفعي ــ السابق ــ « مورلــوك » كان مدربــا عسكريا في بغداد ، وانه انتحل صفــة ممثل لشركــة « راين ميتــال ــ بورزيك » ــ فقد كان « الكابتن » المذكور موظفا في تلك الشركة فعلا ، وبعد انتهاء مهمته في العراق سافر الى كابل في مهمة مماثلة .

عن «كردستان» (أي مواقع المدفعية والرشاشات وكيفية بناء الاستحكامات وأماكنها) • واطّلع على الحدود الايرانية ، وأبدى مقترحاته بشأن فتح الطرق الستراتيجية ، كما تباحث هاينتز مع بكر صدقي في كيفية تأسيس جيش كردي ، والاستعدادات اللازمة لتسليحه وتموينه (١) •

وقد حاول هاينتز مرارا أن يؤثر في بكر صدقي ، ويثنيه عن موقفه العدائي من بريطانية وخططه ضدها • وكان ذلك بناء على نصيحة خالد سليمان ــ شقيق حكمت سليمان ــ الذي كان وزيرا مفوضا للعراق في طهران •

---

(١) دون طه الهاشمي في مذكراته ليوم ١٤ شباط ١٩٣٨ :
« يقول أمين العمري ان جمال جميل ــ مرافق بكر ــ أخبره بأن بكرا جلب ضابطا المانيا بواسطة الدكتور غروبة ، فأرسله للكشف على الحدود من راوندوز الى خانقين ، وبعد الكشف قدم اليه تقريرا بالالمانية مترجما للانكليزية ، وأعطى نسخة منه الى غروبة . أما نسخة بكر فبقيت عنده بصورة شخصية وسرية ، ولما ازمع على السفر الى تركية تحدث مع علي غالب وقال له : لدي ورقة سرية وشخصية اريد أن احتفظ بها ، فأشار عليه هذا بأن يحفظها بدار أخته ، الا أن بكرا لم يقنع وأخذ التقرير معه فوضعه في حقيبته الخاصة . ولم يعثر على هذا التقرير في خزانة رئيس أركان الجيش ، وقد قدم جمال جميل ملحوظاته بذلك » (مذكرات طه الهاشمي ، ص ٢٤٢)
ويروى الاستاذ خلدون الحصري الذي نشر مذكرات طه الهاشمي وحققها ، ان طه الهاشمي أخبره في حديث خاص بأن شاكر الوادي وضع يده على هذه الخطة بعد مقتل بكر صدقي وقام بتسليمها الى الانكليز ، وان طه كان يعتقد ان اتباع هذه الخطة من قبل الجيش كان يضمن عدم سقوط بغداد في يدهم في ١٩٤١ ، أو يؤخر ذلك » (المرجع السابق ، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣)

(المترجم)

خطة بكر صدقي لتأسيس دولة كردية

لمّا فاتحني بكر صدقي بخططه في الدفاع عن « كردستان » ، أخبرني أيضا ــ ولكن بصورة سرية ــ أنه كردي ، وأنه يهدف الى خلق دولة كردية تضم السكان الاكراد في العراق وايران وتركية ، وأن هذه الدولة يجب أن تكون قادرة على صيانة استقلالها عن اعتداء جيرانها ، وقال : ان هذه القضية مهمة عنده ، لانها في قلبه ، وربما كانت هي السبب في رغبة بكر صدقي في الحصول على تقرير من أحد الخبراء حول موضوع الدفاع عن كردستان • أما تصريحه بأنها يجب أن تكون قادرة على الدفاع عن نفسها ضد بغداد في حالة احتلال الانكليز اياها ، فكان من قبيل التغطية فقط •

ويبدو أن بكر صدقي قد صرح بهذه الفكرة ليس لي فقط ،وانما صرح بها لآخرين أيضا • وهذا يفسر عداء القوميين العرب له ، كما يفسر اغتياله فيما بعد •

التعديل الوزاري

كانت في حكومة حكمت سليمان كتلتان : الاولى كتلة رئيس الوزراء ورئيس أركان الجيش ، وهذه تميل الى السيطرة والبطش • والاخرى تتألف من اليساريين المتحررين، وينتمي اليها جعفر أبو التمن، وكامل الجادرجي ، ويوسف عز الدين ابراهيم • وكان لهذه الكتلة منهاج يوافقها حكمت سليمان في بعض بنوده التقدمية ، كنشاط نقابات

العمال ، وحرية الصحافة ، وخلق قُدَر جديدة للعمل لمعالجة البطالة ، ووضع خطة لتقوية الصناعات المحلية ، والتعاون مع الحركات الشعبية في الاقطار العربية ، والمساواة في الحقوق بين العراقيين جميعا ،وتوزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين الذين ليست لهم ارض • وقد اتخذت هذه الكتلة المتحررة لنفسها اسم « جماعة الاصلاح الشعبي » •

ولكن خطط هذه الجماعة أثارت مخاوف بكر صدقي وأعوانه ، كما أثارت مخاوف القوميين الذين قالوا ان نزعة الحكومة ليست عربية • وأثارت خطط الاصلاحيين مخاوف فئة أخرى ، وهم أصحاب الاراضي الكبيرة ، وشيوخ العشائر المستغلون • وكانت العشائر والشيوخ الشيعة في الفرات الاوسط معارضين لسياسة الحكومة ، ولا سيما سياستها الخاصة بالاراضي ، كما كانوا ضد التجنيد الاجباري •

استعان بكر صدقي على هذه العشائر بالجيش ، وزجّ شيوخها في السجون ، فحمل هذا الاجراء وزير العدل صالح جبر (وكان شيعيا) على الاستقالة • وانضم اليه الوزراء « الاصلاحيّون » الثلاثة: جعفر أبو التمن ، وكامل الجادرجي ، ويوسف عز الدين ابراهيم ، فاستقال الأربعة في ١٩ حزيران ١٩٣٧[١]

---

(١) ان عرض قضية الاستقالة على أن أول من فكر فيها هو صالح جبر للسبب الذي ذكره المؤلف وان الثلاثة الآخرين انضموا اليه ، غير صحيح. روى لي الاستاذ حسين جميل (نقلا عن كامل الجادرجي) ان فكرة الاستقالة دارت في ذهن كامل الجادرجي اولا ، فعرضها على جعفر أبي التمن الذي طلب اليه التريث في البداية ، ثم اقتنع بها بعد مدة قصيرة ، فقال لكامل الجادرجي ان الاستقالة قد آن اوانها ، فاتفقا عليها ، كما قررا مفاتحة زميلهما يوسف عز الدين وزير المعارف ، فاتفق معهما ، ثم عرضا الفكرة على صالح جبر فقبل بها أيضا ، فقدم الاربعة استقالة مشتركة بتاريخ ١٩ حزيران (وليس تموز كما ذكر المؤلف)

(المترجم)

وقد أجملت أسباب الاستقالة في الكتاب الموجه الى رئيس الوزراء، وجاء فيه أن سياسة الحكومة لا تحقق المبادىء التي تقررت عند تأليف الوزارة . وكانت الناحية المهمة في هذا الكتاب هي أن سياسة الحكومة لا تهدف الى احلال السلام في البلد ، ولكنها تتجه الى القتال واراقة الدماء . وقال الوزراء في كتاب استقالتهم أيضا انهم كانوا يجهلون اجراءات الحكومة ضد العشائر في الفرات الأوسط . ولا شك أنهم بذلك كانوا يلقون اللوم على رئيس اركان الجيش بالدرجة الأولى .

وكان اثنان من الوزراء الاربعة المستقيلين ، من الشيعة ، وهما : وزير المالية جعفر ابو التمن ، ووزير العدل صالح جبر . أما وزير الاقتصاد والمواصلات كامل الجادرجي، ووزير المعارف يوسف عز الدين ابراهيم، فكانا يختلفان مع رئيس الوزراء في فلسفتهما ونظرتهما الى الحياة . ولم تكن اختلافاتهما صغيرة ، بل كانت كبيرة جدا . فقد كان هذان الوزيران اشتراكيين ، بل انهما كانا يتقبلان الافكار الشيوعية أيضا . على حين أن رئيس الوزراء ، ورئيس أركان الجيش كانا عدوين عنيدين للشيوعية . ولهذا السبب حدثت اصطدامات بين رئيس أركان الجيش ووزير الاقتصاد والمواصلات . وان الوزارة — على ما أخبرني به رئيس أركان الجيش في ٢٢ تموز ١٩٣٧ — اقترحت على كامل الجادرجي أكثر من مرة أن يدلي بتصريح يستنكر فيه المبادىء الشيوعية ويتبرأ منها ، فرفض .

وكان صالح جبر من أعداء الاشتراكية أيضا ، وكان ممن هاجموا الوزراء الاشتراكيين في اجتماعات مجلس الوزراء ، وخاصة في أثناء اضرابات العمال . أما استقالته ، فكانت بسبب الخلافات التي نشأت

بينه وبين حكمت سليمان وبكر صدقي ، وهي خلافات من نوع آخر • فقد قتل رئيس سابق في الجيش ـ قبل بضعة أسابيع ـ عبد القادر السنوي مدير الاملاك والاراضي الاميرية ، بسبب قضية تخصه كانت معروضة على مجلس الانضباط العام ، وكان القتيل عضوا فيه • فحكم على القاتل بالاعدام • وقد أراد وزير العدل تنفيذ الحكم ، ولكن نفوذ بكر صدقي كان قويا جدا ، فأعادت محكمة التمييز قضيته الى المحكمة التي أصدرت هذا الحكم ، لتعيد النظر فيها ويفحص المتهم عقليا • وكان المعتقد أن القاتل لن يعدم ، ولكن سيسجن في مستشفى الأمراض العقلية •

وأخذت الخلافات تشتد : داخل الوزارة من جهة ، بين وزراء الجناحين اليميني واليساري ، بسبب اجراءات الحكومة المناهضة للاشتراكية (كاقصاء مدير الدعاية والنشر حسين جميل الذي كان معروفا بميله الى الاشتراكية ، ونفي رئيس نقابة العمال صالح قزّاز) ومن جهة أخرى ، بين أعضاء الوزارة من الشيعة ، ورئيس أركان الجيش بسبب اجراءاته ضد العشائر الثائرة •

أخبرني رئيس الوزراء في ١٥ تموز أنه بعد تصديق الميزانية في المجلس ، سيجرى تعديلا في الوزارة ، وتم هذا التعديل في ١٩ تموز فعلا •

وكان ثمة سبب آخر للخلافات بين الوزراء الاشتراكيين المستقيلين من جانب ، ورئيس الوزراء ورئيس أركان الجيش من الجانب الآخر ، وهو أن حكمت سليمان وبكر صدقي ، كانا يعملان على التقارب مع المانيا وايطاليا • وقد ابتاعت الحكومة العراقية من

ايطاليا طيارات ودبابات ، وفاوضت شركات ألمانية في شراء أسلحة • وأعطت الشركات الالمانية تسهيلات مهمة • وتوالت الانتقادات بأن سياسة رئيس الوزراء ورئيس أركان الجيش تبتعد عن بريطانية ابتعادا متزايدا • وكان الانكليز يشجعون هذه الانتقادات ويروّجونها •

أخبرني رئيس أركان الجيش في ٢٢ حزيران سرا أن الملك قبل استقالة الوزراء الأربعة ، وأمر رئيس الوزراء بملء الوزارات التي شغرت ، فكان الوزراء الجدد : علي محمود الشيخ علي للعدل ، ومحمد علي محمود للمالية ، وعباس مهدي للاقتصاد والمواصلات ، وجعفر حمندي للمعارف • وقد اشترط هؤلاء الوزراء الجدد قبل تعيينهم شروطا منها أن الوزارة يجب أن تقاوم « جمعية الاصلاح الشعبي » وتغير موقفها من الشيعة •

وبتعيين الوزراء الجدد ، تغير الاتجاه السياسي للوزارة كلها ، فأصبح أكثر قومية ، وزاد انفصال حكمت سليمان عن جماعة «الاصلاح الشعبي » في قوة بكر صدقي ونفوذه في البلاد ، وسرت الاشاعات أن بكر صدقي يعمل على أن يكون دكتاتورا في البلاد •

وقد سألته ، بعد استقالة الوزراء الاربعة ، لماذا لا يؤلف وزارة جديدة ؟ فأجاب أن حكمت سليمان أنسب لهذا المنصب ، وأنه اذا ألف الوزارة فستقوى الاشاعات الجديدة القائلة انه يحاول ان يكون دكتاتورا ، وان الملك ربما لا يوليه ثقته ، لأنه يعلم بهذه الاشاعات • ولكن بكر صدقي — كما سبق أن ذكرت — كان يرمي الى هدف آخر ، وهو خلق « كردستان » مستقلة ، ولهذا السبب كان يعمل على تأليف جيش يحتوي على عناصر كردية قوية • (١)

---

(١) كان خدوری يجهل خطة بكر صدقي عن « كردستان »

أما في السياسة الخارجية ، فقد نجحت حكومة حكمت سليمان في عقد اتفاقية مع اليمن ، وقّعت في صنعاء في ٢٩ نيسان ١٩٣٧ ،وبهذه الاتفاقية ـــ التي أمضاها جميل المدفعي عن العراق ـــ انضمت اليمن الى معاهدة التحالف القائمة بين العراق والمملكة العربية السعودية •

وكذلك أنهت وزارة حكمت سليمان مشكلة الحدود القديمة مع ايران بمعاهدة الحدود التي أمضيت في ٤ تموز ١٩٣٧ ، كما أن هذه المعاهدة مهدت السبيل لعقد ميثاق سعد آباد الذي أمضي أيضا في ٨ تموز ١٩٣٧ •

ووجه الملك غازي الدعوة الى الأمير سعود ، ولي عهد المملكة العربية السعودية ، لزيارة العراق ، تأكيدا لنيّات الحكومة العراقية الطيبة تجاه الدول العربية الأخرى ، وتوثيقا للصداقة العراقية ـــ السعودية ، وكذلك ليظهر للمملكة العربية السعودية قوة العراق وتقدمه • ولا شك أن توجيه هذه الدعوة وقبولها كانا بوحي من الحكومة البريطانية ، لأنها كانت مهتمة بتوثيق العلاقات بين البلدين ، بعد أن ظهر أن الاتفاقية التي سبق أن أمضيت بينهما بمساعدة الانكليز لم تحقق النتائج التي كانت الحكومة البريطانية ترجوها،وهي خلق تعاون عسكري وثقافي بين البلدين •

قدم الأمير سعود الى بغداد في مارت آذار ١٩٣٧، فحل في البلاط الملكي في شمال المدينة ، وكان الملك غازي يقيم بعيدا في قصر الزهور• وهذا التباعد في المكان لم يترك أثرا طيبا في نفس ولي العهد الذي استاء لعدم زيارة الملك غازي اياه واستفساره عنه يوميا ، كما كان أبوه الملك عبد العزيز يفعل مع ضيوفه • وكان الملك غازي صغير

الجسم ، منكمشا في المجتمع وليس منطلقا ، وقد بدا خجولا أمـام ولي العهد السعودي ذي الجسم الضخم، فكان يرى ضيفه في المناسبات الرسمية وفي الحفلات ويتبادل معه المجاملات الشكلية فقط . ولا شك أن غاية حكمت سليمان في اطلاع الزائر على ما أحرزه العراق من تقدم في الميادين العسكرية والعمـرانية ، قد تحققت ، ولكن ولي العهـد السعودي افتقد حرارة العناية الشخصية ، ولذلك أخفقت هذه الزيارة في خلق جو من الصداقة الحقيقية والتقارب الشخصي .

اليهود في العراق

ان الجالية اليهودية في بغداد ــ التي تدّعي أنها تنحدر من عهد الاستيلاء البابلي دون تقديم دليل على ذلك ــ كان لها نفوذ قوي في الحياة الاقتصادية ، وكانت علاقات اليهود بالعرب حسنة ، فوزيـر المالية في أول وزارة ألفت في عهد فيصل سنة ١٩٢١ كان اليهـودي ساسون حسقيل ، ولم يلق ذلك اعتراضا من الناس . وقد حاولـت بعض المنظمات اليهودية الانكليزية والفرنسية مرات عديدة أن توطّن في العراق مجموعات من الفلاحين اليهود من أوربا الشرقية ، لاتساع الأرض ووفرة الماء في العراق مع قلة السكان الذين يقومون بزراعتها . وفي سنة ١٩٠٧ أوفدت « جمعية التوطين اليهودية » (ICA) ــ التي مقرها لندن ، وتتعاون تعاونا وثيقا مع « الآليانس ايزرائيليت » في باريس ــ اليهودي الفرنسي نيبغو « NIEGO » الى بغداد لدراسة موضوع التوطين ، وقد بقي « نيبغو » أربعة أشهر أو خمسة في بغداد،

وأعد تقريرا أبدى فيه رأيه في امكانيات التوطين ، وكان مؤيدا لـه • وقد اقترح أن يبدأ توطين اليهود في أراضي قاسم باشا ، صهر عبد الحميد ، في شمال بغداد ، واقترح توطين خمسين ألف يهودي ، روسي وبولوني ، فأيد المشروع وزير مالية تركية جاويد بك ـ وهو يهودي دخل في الاسلام ـ ولكن عبد الحميد رفضه •

ولما أخذت الحركة الصهيونية تنشط ، خشي عبد الحميد أن تمتد أطماع الصهيونيين الى العراق أيضا • ولا شك أن عبد الحميد الذكي لم يكن مخطئا في مخاوفه • واذا طالب اليهود بفلسطين التي تركوها قبل ألفي سنة ، فمن الممكن أيضا أن يطالبوا بأراضي « ما بين النهرين» (مدينة أور في دولة الكلدانيين) التي هاجر منها ملكهم ابراهيم الى فلسطين ، والتي كانت فيها جالية يهودية كبيرة أيام السبي البابلي •

وكذلك تسلم الملك فيصل الأول خلال زيارة له الى لندن في آيلول سنة ١٩٣٣ اقتراحا بتوطين مئة ألف يهودي في دجلة السفلى ، في المنطقة بين العزيزية وكوت الامارة ، وعرضت على الحكومة العراقية في حالة قبولها بعض الفوائد المالية ، وخاصة تسهيلات في الحصول على قرض كبير • وكان المفروض أن يكون قسم من هؤلاء المئة ألف يهودي من مهاجري ألمانيا ، وقد أشير على الملك فيصل بالفوائد الكبيرة التي تعود على العراق من الذكاء الالماني ، فأرسل الملك فيصل هذا الاقتراح برقيا الى الحكومة العراقية للنظر فيه • ولكنه لم يكرر الاقتراح بعد عودته الى بغداد • وقد قيل فيما بعد انه علم أن الحكومة الوطنية سترفض مثل هذا الطلب •

ان اليهود العراقيين لم يكونوا صهيونيين ، ولما ناشد حاخام

القدس الاكبر يهود العالم على مقاطعة البضائع الالمانية ، زارني الحاخام ساسون خضوري ، رئيس الحاخامين في بغداد ، وأخبرني أنه شجب هذه المقاطعة ، لأن المقاطعة ليست اجراء اقتصاديا فقط ، بل هي دائما اجراء سياسي أيضا • وأن اليهود في العراق أقلية صغيرة فقط ضمن أكثرية عربية كبيرة ، وان عليهم أن يتجنبوا النشاط السياسي • وبناء على نصيحتي تكلم مع الأعضاء اليهود في غرفة تجارة بغداد • وكانت نتيجة محاولاته ، ومحاولات رئيس غرفة التجارة قاسم باشا الخضيري ــ الذي كنت قد كلمته أيضا ــ أن توقفت المقاطعة اليهودية للبضائع الالمانية في العراق بعد مدة قصيرة • وفي هذا الوقت هاجمتني جريدة « برلينر لوكال آنتزايكر » لأنني استقبلت الحاخام •

عاش اليهود بعد ذلك آمنين ، ولكن في سنة ١٩٥٤ [1] ، وبعد خلق اسرائيل ، هاجر ١١٥ ألف من يهود العراق الى اسرائيل • وكان السبب أن قنابل يدوية القيت قرب الكنيسة اليهودية وفي مكانين آخرين ، وأن يهوديين قتلا ، كما جرح عدد عدد منهم • وقد اكتشفت الشرطة العراقية منظمة صهيونية سرية كانت تعمل على حث اليهود العراقيين على الهجرة الى اسرائيل •

وقد حكم بالاعدام على اثنين من أعضاء هذه المنظمة التي قتلت أبناء دينها بالقنابل ، كما صدرت أحكام تتراوح بين خمس سنوات وثماني سنوات على آخرين ، فقضوا هذه المحكومية • وعلى أثر ذلك نشر عبد الجبار فهمي ، مدير شرطة بغداد في ذلك الوقت ، كتابا بعنوان

---

(١) الصواب هو : سنة ١٩٥١

(المترجم)

(سموم الأفعى الصهيونية) تضمن وقائع المحاكمة ، والاحكام الصادرة ، وتصاوير المجرمين ، والاسلحة التي وجدت معهم • وهذا الكتاب مفقود في العراق الآن ، ولا بد أن الجهات التي يهمها الأمر قد جمعته ، واشترت كل نسخة •

ان العرب بصورة عامة ليسوا أعداء لليهود ، وهم ينظرون الى الصهيونيين فقط كأعداء لهم ، لأنهم احتلوا البلد العربي « فلسطين» • وكذلك حارب أجدادهم قبل سبع مئة سنة فاتحي فلسطين في ذلك الوقت ، وهم « الصليبيون » وطردوهم منها أخيرا بقيادة زعيمهم صلاح الدين •

مقتل بكر صدقي

ان الزعماء القوميين الذين لا بد أنهم علموا بخطط بكر صدقي لخلق دولة كردية مستقلة ، وكانوا راغبين في التخلص منه ، استغلوا بقاءه في الموصل يوم ١١ آب ، حيث كانت الحراسة عليه أقل منها في بغداد ، لاغتياله • وقد سمعنا بروايات متعددة مختلفة عن تفاصيل اغتياله •

فبينما يقول خدوری ان جنديا أطلق عليه الرصاص في المطار ، قيل لي في وزارة الخارجية ان بكر صدقي كان جالسا في فسحة « نادي ضباط القوة الجوية » في الموصل ، يرقب السابحين في حوض السباحة ، فأطلق عليه جندي من الوراء طلقتين أصابتا قفاه ، وان الذي جاء بالقاتل الى النادي ، ومعه جندي آخر ، هو الرئيس محمود هندي

الذي أشار الى « الجنرال » لتعريف الجنديين به . وقالت جريدة « عراق تايمس » الصادرة في ١٤ آب سنة ١٩٣٧ ان الضباط كانوا جلوسا في غرفة الطعام في نادي الضباط ، فأطلق عريف في الجيش الرصاص على الجنرال من الشباك ، فهب قائد القوة الجوية محمد علي جواد من مكانه وقبض على يده اليمنى ، ولكن القاتل تمكن من اطلاق رصاصة أخرى أصابت قائد القوة الجوية في بطنه [1] .

وسمعت في تلك الأيام ان زوجات بعض الضباط العرب كتبن

---

(١) ويذكر طه الهاشمي في مذكراته (التي دونها يوم ٢٠ أيلول ١٩٣٧) والتي نشرت في سنة ١٩٦٧ ، أي بعد نشر المصادر التي يشير اليها المؤلف جميعا ، معلومات اضافية عن مؤامرة الاغتيال ، نقلا عن امين العمري فيقول : « .. ان عدة تدابير اتخذت ، وكان من جملتها التدبير في (سواره توكا) عند تفتيش بكر للقطعات للحرب الجبلية ، غير انه استخبر بذلك ، وبدلا من أن يستقبله الحرس لتحدث الحادثة ، واذا الوقت أظلم لتأخير مجيئه ، فخرج الضابط لاستقباله ، وهكذا ضاعت الفرصة لاغتياله .

« وفي يوم ١١ آب وصل حسين فوزي مبكرا ، ثم وصل بكر ومعه حراسة الضباط واحد النواب من مشايخ الاكراد مسلحا بالبنادق ،ونزل في دار الاستراحة وتغدوا جميعا . ثم اخذ بكر يفتش عن محل بارد، فطلب الى علي غالب ان يخابر محمد علي جواد ، فكان الجواب ان المحل في المطار جيد ، فذهب واتخذ غرفة محمود الهندي مناما له . وكان محمود الهندي من المتآمرين ، فلما رأى بكرا أتى بنفسه ، لم ينتظر حتى المساء حيث كانت المؤامرة دبرت لاغتيال بكر في النادي ، فأرسل محمود علي خورشيد فأتى واحضر الجنود ، وبعدئذ قام بكر من النوم وقعد في القاعة وكان موسى علي ومحمد علي جواد حاضرين . فحينئذ دفع الهندي الجندي الى داخل القاعة واراه بكرا . وكان المتآمرون من الضباط الصغار . اتصل بعضهم مع البعض واتخذوا بعض الجنود مساعدين لهم وفي النادي العسكري كان ضباط الكتيبة قد رتبوا السهرة على أن يجلس بكر والبعض من جماعته بالقرب من الجدار بين دار المتصرفية والنادي فيغتاله احد الضباط في حديقة داره المتصرفية ليلا . » (طه الهاشمي ـ مذكرات ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦)

(المترجم)

الى بكر صدقي رسائل يحذرنه فيها من السفر الى الموصل ، لأن هناك خطة لاغتياله ، ولكن بكر صدقي لم يأبه لهذه التحذيرات •

نقلت جثة بكر صدقي الى بغداد ودفنت بمراسيم عسكريـة • وبصفتي نائبا عن عميد الهيئة الدبلوماسية ، وضعت على قبره اكليلا باسمهـا •

وكانت هناك بين الأوساط العراقية الرسمية قناعة بأن اغتيـال بكر صدقي كان نتيجة مؤامرة عليه بين جماعة من الضباط العرب • وقال بعض آخر باحتمال قتله على سبيل الانتقام ، تنفيذا لمؤامرة ربما امتدت خيوطها الى خارج العراق •

حدثني الدكتور صائب شوكة ، رئيس « نادي المثنى » القومي ،عن أسباب اغتيال بكر صدقي ، وقال : لما تسلمت الوزارة الجديدة الحكم كنت واثقا أن هؤلاء الرجال سيعملون لخير البلاد ، ولذلك أيدتهم كل التأييد • ولكن سرعان ما علمت أن بكر صدقي يصرّح بالحرص على مصالح العرب قولا ، ولكنه في الفعل يهتم بمصالحه الشخصية ومصالح الأكراد فقط • وقال الدكتور صائب شوكة انه هو وأصدقاؤه العرب ادركوا هذا من أعمال بكر صدقي ، فقد أحلّ الضباط الاكراد محل العرب ، وأصبح سبعون بالمئة من طلاب الكلية العسكرية في بغداد من الاكراد • وحين تجرى عمليات التجنيـد كان ضبـاط التجنيـد يستفسرون من الشبان عن بلدهم ولغتهم ، فاذا ظهر انهم من العرب ، أعادوهم الى بيوتهم ، ولكن الأكراد كانوا يقبلون • وقال ان بكـر صدقي أقصى بعض القوميين العرب ـ من أعضاء نادي المثنى ـ عن وظائفهم ، منهم الدكتور أمين رويحة مدير المستشفى العسكري فيبغداد



بكر صدقي عشية سفره الى تركية لحضور المناورات بين مودعيه في محطة بغداد مساء ١٠ آب ١٩٣٧ قبل مقتله بيوم واحـــد ، وقد ظهر بينهم (من اليسار) السيد حكمت سليمان ، فالدكتور ناجي الاصيل ، فالمقدم شكري جميل ، فبكر صدقي ، فكمال عثمان ، فمحمد علي جواد ، فالدكتور غروبا .



زيارة (الامير) سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية الى بغـــداد في سنة ١٩٣٧ أمام مدخل وزارة الخارجية (من اليسار : الدكتور ناجي الاصيل ، وزير الخارجية ، (الامير) سعود ، الوزير المفوض السعودي الشيخ حافظ وهبه ، وخلفه السيد نصرت الفارسي ، مدير الخارجية العام .



الامير سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية أثناء زيارته الرسمية الى بغداد في سنة ١٩٣٧ (أمام وزارة الخارجية)



رستم حيدر

وقال انني أنا أيضا كنت مهددا بالقتل من بكر صدقي لولا خشيته من انتقام العرب . وكان هدف بكر صدقي أن يصبح « دكتاتورا » بمساعدة الأكراد ، وأن يجعل الأكراد يحكمون العراق العربي . ولكن العرب لم يتأخروا في ادراك هذا الخطر ، فأزالوه باغتيال بكر صدقي ، وفضلا عن ذلك كان سلوك بكر صدقي الشخصي وسلوك ضباطه سببا اضافيا ، وقد أغدق بكر صدقي الأموال على الضباط الشبان ، كما وضع الأموال في جيوبه أيضا . وكان الضباط الشبان المحيطون ببكر صدقي يقيمون في الملاهي حفلات صاخبة وينفقون خلالها أموالا كثيرة . وقد حدثت فضائح عديدة بسبب هذه التصرفات ، وفقد الضباط الموجودون حول بكر صدقي نشاطهم ، فلم يستطع أحد من أعوانه أن يساعده أو يحميه من مؤامرة اغتياله . ثم أن بكر صدقي كان يتخذ تجاه بريطانية موقفا عدائيا لا لزوم له . فالعرب أصدقاء الانكليز ، ولا تتضارب مصالحهم الا في قضية فلسطين . وكان بكر صدقي يتقرب أيضا من ايطاليا التي كانت لها مطامع في البلاد العربية . والعرب أصدقاء الأكراد وجيرانهم ، ولكن من المستحيل أن يحكموا من قبلهم . أما حكمت سليمان ، فهو وطني عراقي ، ولكنه ليس قوميا عربيا، وقد نشأ وتعلم فيجو الشبان الأتراك من حزب الاتحاد والترقي. وقد غابت عن حكمت سليمان أهداف بكر صدقي السرية ، ولكنه — أي صائب شوكة — كان شأن زعماء العراق الآخرين من العرب الذين تعلموا في شبابهم في استانبول ، ونشأوا على فكرة القومية العربية ؛ ولما عادوا الى بغداد وضعوا أنفسهم في خدمة القضيةالعربية، وانهم جميعا أسهموا في الثورة على الانكليز في سنتي ١٩١٩ و١٩٢٠ .

أما عطف حكمت سليمان على فلسطين فكان مخلصا ، لأنه رأى أن وجود فلسطين عربية مستقلة أمر حيوي بالنسبة الى العراق • ولكن بكر صدقي لم يكن مخلصا في تأييد هذه السياسة ، فقد كانت سياسته الحقيقية هي خداع العرب ، واخفاء نياته الحقيقية عنهم •

رستم حيدر

كان وزير المالية رستم حيدر أهم شخصية في الوزارة الجديدة (وزارة نوري السعيد الثانية) ـ الى جانب نوري السعيد ـ وكان من معارفي القدماء • وقد تعرفت عليه في ظروف غريبة •

تلقى دراسته في باريس ، والتحق بالملك فيصل لما كان ضابط احتياط أبان الحرب العالمية الأولى ، وكان مستشاره حتى الهدنة • ثم رافقه الى مؤتمر باريس الذي اشترك فيه مندوبا ثانيا عن الملك حسين، ملك الحجاز ، وبهذه الصفة وقّع معاهدة فرساي التي رفض الملك حسين ابرامها كما هو معروف • وذهب رستم بعد ذلك مع الملك فيصل الى دمشق ، وعين رئيسا لديوانه ، وبعد أن أخرجه الفرنسيون منها رافقه الى الملجأ في ميلانو •

ولما تسلم الملك فيصل ـ في كانون الثاني سنة ١٩٢١ ـ دعوة من ملك بريطانية لزيارة لندن ، حيث كان سيعرض عليه عرش العراق، طلب موافقة وزارة الخارجية في برلين على مروره من ألمانيا مع مرافقيه، وهم : رستم حيدر ، والأمير عادل أرسلان ، وتحسين قدري ،فوافقت وزارة الخارجية على طلبه ، وعهدت اليّ مرافقة الملك وحاشيته في هذه

السفرة . فذهبت الى « بازل » لاستقبـاله فيهـا ، ولكن القنصل الالماني هناك ، البارون فون فايتزاكر ـ الذي أصبح فيما بعد نائبـا لوزير الخارجية ـ أعلمني أن الملك غيّـر منهاج سفرته ، وأنه لن يسافر عبر سويسرة ، ولكن سيأتي الى مونيخ مجتازا ممر « برينر » الجبلي، لأن سويسرة ـ بوحي من فرنسة ـ لم توافق على مروره من أراضيها، اذ كانت عصبة الأمم تعقد اجتماعاتها في ذلك الوقـت ، ولا بـد أن الفرنسيين تخوفوا من ظهور الملك فيصل في جنيف ، واحتمال تعرضه لفرنسة .

فذهبت من «بازل»الى مونيخ، وهناك استقبلت الملك ومرافقيه. وكان مرافقه الشخصي الميجر تحسين قدري صديقا قديما لي ورفيقا في السلاح ، فقد كنا في سنة ١٩١٦ ملازمين أولين في الجيش التركي في درعا ، وكانت تربطنا علاقات ودية . وكان هو في ذلك الوقت مرافقـا لقائد الفرقة التركي فخر الدين باشا ، وكنت ضابطا ألمانيا في مقـر الارتباط . والآن كنا نحيي بعضنا بعضا مرة أخرى كأصدقاء قدماء .

وهناك تعرفت برستم حيدر والأمير عادل أرسلان للمرة الاولى ، وسافرنا معا بالسيارة من مونيخ الى فرانكفورت ، لنصل منها الـى منطقة الاحتلال البريطانية ، فقد أراد فيصل بطبيعة الحال ، أن يتجنب المنطقة التي يحتلها الفرنسيون . وكنت قد استفسرت في فرانكفورت عن كيفية الوصول الى المنطقة البريطانية منغير مرور بالمنطقة الفرنسية، فقيل لي ان علينا أن نسلك طريق « كيسن » و « زيكن » بالقطار ، ومن هذا الطريق سنصل الى المنطقة البريطانية في « هينف » ، فحجزنا في هذا القطار المحلي المقترح « كابينتين » ، وبدأنا سفرتنا . فلمـا

حل المساء ، وقفنا في محطة صغيرة تدعى « آيتورف » فسألت مدير المحطة هل الانكليز في المحطة القادمة « هينف » فأجاب : « كلا ، بل فيها الفرنسيون » فسألته : « ومتى جاءها الفرنسيون ؟ » فأجاب : « منذ اسبوعين حيث غادرها الانكليز واحتلها الفرنسيون » • لقد كان ذلك غير معروف في فرانكفورت • وقد فهم تحسين قدرى من محاورتنا كلمة « فرانتسوزن » ـ أي « الفرنسيين » ـ وسألني عن جليّة الأمر ، فأوضحت له الموقف ، فأخبر الملك في « الكابينة » المجاورة بذلك ، فاستدعاني اليه ، وسألني ماذا أقترح ان نصنع فاقترحت مواصلة السفر لأننا اذا تركنا القطار هناك ، كان علينا أن نعود الى فرانكفورت ، ومنها نسلك طريقا منحنية طويلة ، وكان ذلك مستحيلا ، لأن ملك بريطانية قد حدد لزيارة الملك موعدا قريبا • فوافق الملك على اقتراحي ، وواصلنا السفر ، ولكننا أطفأنا الأنوار في الكابينتين اللتين كنا نحتلهما • وكان الملك عصبيا بعض الشيء ، يتمشى في ممر القطار جيئة وذهوبا • أما الأمير عادل أرسلان ـ الذي كان محكوما عليه بالاعدام غيابيا من الفرنسيين لكفاحه اياهم في سورية ـ فقد أخرج مسدسه ، وفتح صمام الأمان فيه ، قائلا : « لن يقبض عليّ الفرنسيون حيا ! »

وما لبثنا أن وصلنا الى « هينف » ، وكان جنود الانضباط الفرنسيون فيها ، بخوذهم المعدنية ، وبنادقهم على أكتافهم ، يحرسون المحطة ويفتشون القطار • فنظروا في « كابينات » مختلفة من قطارنا ولكنهم لم يمروا بكابيننا الذي كانت أنواره مطفأة • وقد استمر هذا التوقف في محطة « هينف » خمس عشرة دقيقة ، ثم استأنف القطار

سيره ، فوصلنا الى المنطقة البريطانية بعد قليل ، وتنفسنا الصعداء جميعا .

ومن « كولون » ــ حيث تناولنا عشاءنا في أحد المطاعم ــ رافقت الملك الى الحدود البلجيكية ، ولما ودعته هناك نزع ساعته « اللونجين» من معصمه وأهداها الي . وعدت الى برلين .

وقابلت رستم مرة أخرى في تموز سنة ١٩٢٦ في بغداد ، عند مروري بها عائدا من كابل الى برلين . وزرت فيصلا عملا باقتراح السر هنري دوبس ، المندوب السامي البريطاني ، الذي نزلت ضيفا عليه . وكانت وزارة الخارجية قد بعثت الي تعليمات تنهاني فيها عن القيام بمثل هذه الزيارة ، وربما كان السبب هو تخوفها من عدم ارتياح الانكليز لها . ولكن السر هنري دوبس عندما علم بمعرفتي السابقة للملك ، ألح علي أن أزوره ، وقال : انه سيسمع بقدومك الى العراق حتما ، وسيتأثر لعدم زيارتك اياه . وهكذا ذهبت الى بلاط الملك في احدى سيارات دار الاعتماد البريطاني ، وفي جيبي تعليمات من حكومتي تمنعني عن هذه الزيارة .

وكان مرافق الملك لا يزال رفيقي في السلاح تحسين قدري . أما رستم حيدر ، فكان رئيسا للديوان الملكي . فرحبا بي بحرارة ، كما رحب بي الملك كأحد معارفه القدماء . ولما غادرت غرفة المقابلة الملكية، أحاط بي رستم حيدر وتحسين قدري وأكدا علي أن أسعى للمجيء الى بغداد أول قنصل لألمانية ، فأجبتهما انه ربما سيكون لنا في بغداد قنصل لمدة مؤقتة فقط ، واننا سنؤسس فيها مفوضية عن قريب . وعندئذ سأكون أول ممثل دبلوماسي ألماني في بغداد ، فاستحصلا مني وعدا بذلك .

وعين رستم حيدر في سنة ١٩٢٩ أول ممثل للعراق في طهران ، وعاد في سنة ١٩٣١ ليكون عضوا في مجلس الاعيان ، ثم اختير في السنة نفسها وزيرا للمالية ، كما كان بعد ذلك وزيرا للاقتصاد

ولقيته بعد ذلك في جنيف في أكتوبر سنة ١٩٣٢ حين قبل العراق عضوا في عصبة الأمم ، وكان رستم حيدر ممثل العراق فيها ٠

وفي سنة ١٩٣٤ أصبح رستم حيدر رئيسا لديوان الملك غازي ، ولما قام حكمت سليمان بانقلابه، اشترك رستم حيدر في المحاولة المخفقة التي قامت بها حكومة يسين باشا لتقاوم بقوة السلاح العسكريين الثائرين ، فأصبحت حياته مهددة ، واضطر الى مغادرة البلاد ٠ وعاد الى بغداد بعد أن تولى جميل المدفعي الحكم ، فانتخب عضوا في البرلمان ، وكان هو وطه الهاشمي ، زعيمي المعارضة ٠

كان رستم حيدر على قدر عظيم من الذكاء والثقافة ، ومن أحسن الأدمغة في البلاد ، ولكن « الذنب » الذي كان يلصق به هو أنه غير عراقي ، لأنه كان مولودا في سورية ٠

وزار رستم حيدر ألمانية في سنة ١٩٣٧ ، وعاد منها بانطباعات جيدة ، ولما كنت في بيروت في شهر ايلول من السنة نفسها ، عرض عليّ أن يترجم الى العربية بعض الخطب ، ان احتجت الى ذلك ،كخطاب هتلر في نورمبرع مثلا ٠

وفي بغداد كنا على صلة طيبة ، كما أن تعاونا الرسمي كان وديا دائما ٠

مصرع الملك غازي

في ساعة مبكرة من صباح ٤ نيسان ١٩٣٩ ، جاءني خدمي في حالة هياج واضطراب قائلين : ان الانكليز قتلوا ملكنا !

وعلمت بعد قليل ان الملك غازي ـ الذي كان مولعا بالميكانيك، ومعنيا بمحطة اذاعته الخاصة في قصر الزهور ـ قتل في حادث سيارة وهو في طريقه من القصر الى دار الضيافة في الحارثية التي تبعد عن القصر مسافة كيلو متر واحد . وقد قيل ان الملك أراد أن يجلب من دار الضيافة بعض الادوات الاحتياطية لاصلاح خلل ميكانيكي في محطة الاذاعة . والسيارة التي كان الملك يقودها بنفسه من ماركة بيويك ، وكانت جديدة ، لا تزال في الفترة التي لا يجوز السير بها بسرعة تزيد على أربعين كيلو مترا . ولما كان الملك معتادا الاسراع في السياقة ، فلعله تجاوز تلك السرعة . وكان في السيارة مع الملك سائقه « ابراهيم »[1] الذي كان جالسا في المقعد الخلفي . ولا بد أن تكون السيارة قد حادت عن الطريق واصطدمت بعمود كهربائي ، فسقط على سيارة الملك واصابه في راسه اصابة قوية ، مات على اثرها في قصر الضيافة بعد بضع ساعات .

---

(١) اعطى هذا الاسم « ديغورى »

(المؤلف)

اذيع في حينه ان احد عبيد القصر ، واسمه « عبد سعيد » ، وملاحظ اللاسلكي « علي بن عبدالله » كانا مع الملك غازي في السيارة ، جالسين في المقعد الخلفي ، وان عبد سعيد أصيب برضوض او كسور نقل على أثرها الى المستشفى ، ولم يدر أحد بعد ذلك ماذا جرى له ، وكذلك كان أمر الشخص الاخر .

(المترجم)

أثارت تفاصيل هذه الحادثة بين اهل بغداد كثيرا من الشكوك لان السائق لم يجرح ، والميكانيكي اصيب بجروح طفيفة • وكان الجانب الايمن من السيارة مهشما ، في حين ان الجانب الايسر — حيث عجلة القيادة ، وحيث كان الملك جالسا — بقي غير محطم • وتصاوير السيارة التي عرضت في واجهة احد المصورين رفعت بعد عرضها بقليل •

وقد وجهت انتقادات كثيرة الى طبيعة تاليف الهيئة الطبية التي أيدت وفاة الملك ، والى الكشف الصادر عن حاكم التحقيق ، والى السرعة التي أعلن فيها عن تنصيب الأمير عبد الاله وصيا على العرش• ونوقش بحرارة وحماسة أيضا موضوع اغلاق النعش على الفور ، ونقله الى البلاط الملكي ، بالرغم من أن الأمير عبدالله ، أمير شرق الأردن، وعم الملك ، كان قد طلب التريث في اغلاق النعش حتى يصل الى بغداد •

ولذلك كان مصرع الملك غازي المفاجيء بنظر الكثيرين من اهل بغداد ، أمرا غامضا ، ولم يصدر عقب الوفاة مباشرة بيان رسمي واضح (١) •

كان من المعروف جيدا ان الملك قد اثار الانكليز ، وازعجهم باذاعاته من محطة قصر الزهور • وكان يحرض اهل الكويت على الثورة على شيخها والانضمام الى العراق كما كان يحمس الثوار العرب في فلسطين ، ويحث العرب الذين يحاربون الفرنسيين في سورية على مواصلة كفاحهم ، مؤكدا ان لهم في العالم العربي اصدقاء

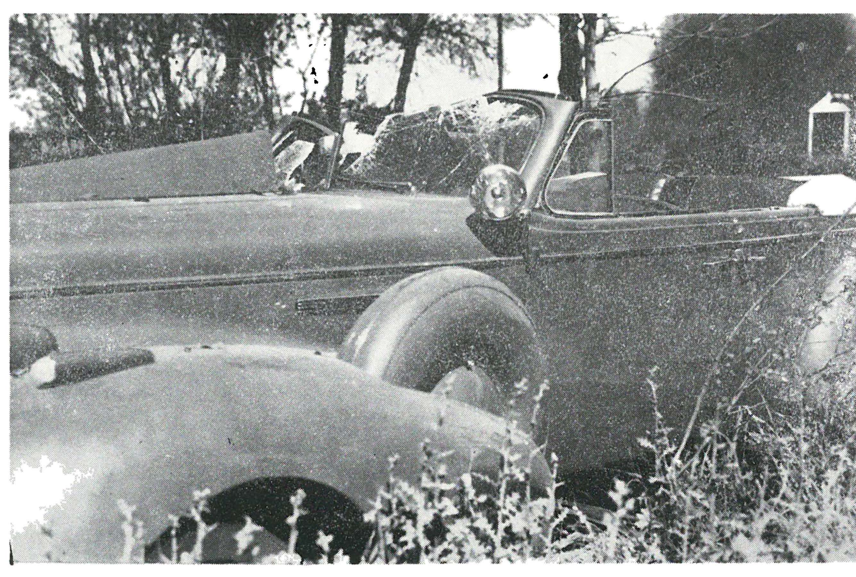
---

(١) خدورى ص ١٤٢



السيارة التي قتل فيها الملك غازي

(صورة التقطت صباح الحادث ثم منع عرضها ونشرها زمنا)



سيارة الملك غازي

وأعوانا [1] .

وكان معروفا أيضا أن الانكليز كانوا يميلون الى الأمير عبد الاله أكثر من ميلهم الى الملك [2] ، وأن الشعب أحب الملك غازي الـذي أثبت أنه مدافع شجاع عن القضايا العربية، وأنه لما ناب عن والده الذي كان في سويسرة في تموز سنة ١٩٣٣ كانت له مناقشة حامية مع القائم بالاعمال البريطاني (اوغليفي ــ فوربس) اذ جهز البريطانيون الآثوريين بالدبابات والعتاد ، فرأى الشعب في الملك غازي رجلاً وقف في وجه الانكليز وجابههم بالحقائق .

سرت في البلاد كلها على الفور اشاعات بأن الحادث كان نتيجة مؤامرة سرية دبرتها بريطانية ، وساد الشعب العراقي العاطفي الحزن والهياج حين سار موكب جنازته الطويل في الشارع العام من البلاط الملكي الى المقبرة الملكية في الأعظمية . وغص جانبا الطريق بالناس ، وركعت النسوة باكيات منتحبات ، وحثون على رؤوسهن التراب . وقد سار في هذا الموكب أعضاء الحكومة والهيئة الدبلوماسية . وكان الجنود الذين اصطفوا على جانبي الشارع يصدّون الناس عن كسر طوقهم والهجوم على الضيوف البريطانيين الذين حضروا للاشتراك في التشييع . وقد أستبقي الدبلوماسيون في المقبرة بعد المراسم لمدة ساعة ، واضطروا الى الرجوع الى المدينة من شوارع فرعية . وأغلقت جسور دجلة لوقف تدفق الجماهير من الخارج .

وكان هياج الشعب وتأثره في مدن العراق الأخرى بنفس القوة .

---

(١) بيترسون ص ١٥٠ وما بعدها (ص ٢٠٧ من هذا الكتاب)
(٢) بيترسون ص ١٣٨ وما بعدها (ص ١٩٣ من هذا الكتاب)

وفي الموصل سارت الجماهير الى القنصلية البريطانية فأحرقت سيارة كانت أمام دارها ، ولما خرج القنصل « مونك ميسن » الى الشرفة لتهدئة الجمهور ، هاجمه من الخلف أحد المتجمهرين الذين تدفقوا الى القنصلية ، وأهوى على رأسه بفأس فقتله .

وكان الانكليز مذعورين مرتبكين طبعا بسبب هذا التطور ،وكان من الطبيعي أن يحاولوا دفع التهمة عن أنفسهم . ولذلك قالوا ان الدعاية الالمانية هي التي بعثت الشعور المعادي لانكلترة[١] . ويقول « كيرك » ان وكلاء طبيب عيون ألماني في الموصل حرّضوا الشعب على مهاجمة القنصلية البريطانية[٢] ، ولكن طبيب العيون الالماني الموجود في الموصل كان يهودياً ، وكان عدواً لالمانية الهتلرية ، ومهاجراً جاء الى الموصل عن طريق استانبول بتوصية مني . وهو رجل عاش لحرفته الطبية فقط ، ولم يكن له شأن بالسياسة . وربما كانت الاشاعات التي بلغت « كيرك » صادرة عن منافسيه .

اتهام الالمان باثارة الشعب على الانكليز

ومن الأسباب التي دعت الى القول بأن الالمان يثيرون الشعب العراقي على الانكليز تلك المظاهرة التي قام بها في بغداد طلاب المدارس من الصفوف العليا يوم ٦ نيسان . وقد حاول المتظاهرون عبور جسر دجلة والوصول الى السفارة البريطانية ، وتعالت هتافاتهم ضد نوري السعيد والانكليز ، كما وزعت مناشير تتهم نوري السعيد بتدبير مقتل

(١) لونكريك ص ٢٧٧ ، لنشوفسكي ص ٢٤٦ ، بيترسون ص ١٠٢ ، ديفورى ص ١١١ ، بيردوود ص ١٦٦ و ١٦٩
(٢) كيرك ص ٦٠

الملك غازي . وقد أفاد بعض الطلاب الذين أوقفتهم السلطات انهم « اشتراكيون وطنيون »[1] ، وكان اثنان منهم يدرسون على معلم ألماني . وهكذا بدا أن الالمان هم الذين يهيّجون الشعب ، مما حمل نوري السعيد على اتخاذ الاجراءات ضدهم ، فطرد من العراق الدكتور « يوليوس يوردان » المستشار الآركيولوجي لمديرية الآثار القديمة الذي قضى في العراق ثلاثين عاماً حقق خلالها مكاسب عظيمة في البحوث الآركيولوجية ، كما أعلن أن ثلاثة من المعلمين الالمان الذين يدرّسون اللغة الالمانية في المدارس ينظر في أمر اخراجهم .

ويقول السر موريس بيترسن انه هو الذي دبر طرد خبير الآثار والالمان الآخرين ، كما يقول : « أما في حالة غروبا فقد كنت مغلول اليدين ولم يكن بوسعي أن أفعل شيئا أكثر من تحذير العراقيين وأفراد جاليتي، وهو تحذير كنت أكرره في كل مناسبة ممكنة »[2] .

وفضلا عن ذلك أرسلت الى القائم بالاعمال العراقي في برلين ، عطا أمين ، تعليمات لمفاتحة وزارة الخارجية بأن تصرفاتي تسيء الى العلاقات العراقية ــ الالمانية . ولا شك أن بيترسن ــ في هذه الحالة أيضاً ــ كان يكمن وراء الأمر .

بحثت هذه المشكلة مع صديقي رستم حيدر ، فقال ان نوري

---

(١) « الحزب الاشتراكي الوطني » هو الحزب الذي اسسه هتلر ، والتسمية الشائعة هي الحزب « النازي » وتلفظ بالالمانية : «الناتزي» مختصرة عن كلمة « ناتزيونال » أي الوطني . و « النازي » هي التسمية التي كانت دارجة في العراق . ويلاحظ أن المؤلف يتفادى هذه التسمية ويستعمل « الاشتراكية ــ الوطنية » كلما أراد الاشارة اليها .
(المترجم)

(٢) انظر ص ٢٠١ من هذا الكتاب . (المترجم)

السعيد أرسل هذه التعليمات الى برلين دون أن يناقشها مع زملائه ، وانه لا يوافق على الامر وسيفاتح نوري فيه • وأنا واثق انه فعل •

على أن الشبهات في أن الالمان هم المحرضون على مظاهرات الطلاب ضد الانكليز وضد نوري السعيد ، سرعان ما خفت ، وذلك عندما سئل الطلاب في تحقيق لاحق عن الشخص الذي كتب نص المناشير التي وزعت خلال المظاهرات ، فقد سمّى الطلاب موظفا في دائرة التحقيقات الجنائية • وكان مدير هذه الدائرة انكليزيا •

وقد سئل عطا أمين في وزارة الخارجية الالمانية أن يذكر على وجه التحديد ما هي اعتراضات الحكومة العراقية على تصرفاتي ،فابدى أن التعليمات التي وصلت اليه لا تحتوي على ذلك • وان عليه أن يستفسر من بغداد مرة أخرى • وظهر عطا أمين في وزارة الخارجية بعد ذلك بثلاثة أيام ، وأبدى أن للحكومة العراقية عليّ مأخذين : أولهما ، أنني أزور الوزراء العراقيين في مكاتبهم دون علم وزارة الخارجية ، والآخر ، أنني أستقبل كثيرا من العراقيين ، وخاصة من بين السياسيين والصحفيين ، مما لا ترتاح له الحكومة العراقية •

وكان الجواب فيما يخص الامر الاول ، أنني قضيت في بغداد حتى الان سبع سنوات ، وربما كنت أقوم بمثل هذه الزيارات دائما ، واذا كانت الحكومة العراقية غير مرتاحة لها ، فان عليها أن تنبهني على ذلك ، وانني بطبيعة الحال سأمتنع عنها •

أما الامر الآخر ، فكان جوابها عنه : أن عملي سفيرا لبلادي يتطلب حصولي على معلومات عن الظروف والاحوال في العراق ، ومن مستلزماته أن أستقبل الزوار •

وقد أبدت وزارة الخارجية للقائم بالاعمال ـ في هذه المقابلة التي جرت في ١٧ نيسان ١٩٣٩ ـ أن الأمر ، بصورة عامة ، لا بد أن يكون نتيجة سوء تفاهم مؤسف ، وأنها لا يسعها قبول ملاحظات كهذه في المستقبل • وكان القائم بالاعمال قد ارتاح حقا أن تنتهي هذه القضية • على أنه لم تمض أسابيع حتى استدعي الى بغداد •

وبعد بضعة أيام استدعاني نوري السعيد ليبحث معي هذه القضية • قال : ان الحكومة العراقية لم تكن تنوي طلب سحبي عند الاحتجاج علي ، ولكن وضعها في ذلك الوقت كان دقيقا ، وكان عليها أن تفعل شيئا ما [١] • وقد تسلمت الحكومة رسائل وتقارير عديدة من الموصل بأن الألمان هيجوا الشعب على القنصل البريطاني •

فأجبته : انني استغرب أن تكوّن الحكومة فكرة كهذه دون أن تتثبت من حقيقة الوضع ، اذ لا يقيم في الموصل سوى ألماني واحد: طبيب عيون يهودي هاجر من ألمانيا ، وهو يعادي نظام حكم هتلر ،ولم يصدر منه ـ على التأكيد ـ أي عمل لتأييدها • وفي الموصل بعض الذين يتكلمون الالمانية ، ولكنهم ليسوا ألمانيين ، بل هم سويسريون فيما أعلم •

وأجاب نوري السعيد ، بخصوص « يوردان » الذي أخرج

---

(١) أخبرني توفيق السعدون ـ مدير التشريفات في وزارة الخارجية ـ أن كان هنالك في يوم مقتل القنصل البريطاني في الموصل خطر بتعرض الاجانب في بغداد لمذبحة . وقد علم زميلي المصري أن طلاب الصفوف العليا في كلية الحقوق قرروا قتل القائم بالاعمال البريطاني والوزير المفوض الامريكي ، وسبب عزمهم على هذا الاخير هو محاولات امريكا تأييد اليهود في فلسطين . وكان انتشار خبر هذه النية مبعث خوف وقلق عظيمين للحكومة .

من العراق ، انه سيستطيع العودة الى بغداد بعد مدة قصيرة حين يهدأ الوضع فيها •

ان هذه المحاولة الانكليزية لتحميل الالمان وزر اثارة العراقيين والقاء المسؤولية عليهم قد أخفقت ، والشك بأن الانكليز هم الذين قاموا بتصفية الملك ظل باقيا •

وفيما يتعلق بأصل الشائعات التي انتشرت من أن الألمان قد سببوا هياج شعب الموصل على القنصل البريطاني وعلى رئيس الوزراء نوري السعيد ، أخبرني مدير المعارف العام الدكتور سامي شوكت — الذي كان وثيق الصلة بنوري السعيد — في ٥ حزيران ١٩٣٩ ، أن اليهود هم الذين اختلقوا هذه الاشاعات ، لانهم وجدوا في هذا الهياج العام وسيلة مجدية لزعزعة مكان المانيا وايطاليا في العراق ، وان الطلاب اليهود في المدرسة الثانوية قدّموا « اخباريات » ووشايات بالمدرسين الالمان الذين يدرسون في هذه المدرسة بأنهم يقومون — خلال دروسهم — ببث الدعاية للاشتراكية الوطنية[1] • وقد أجرت

---

(١) نشر الهر « هوبر » ، مدرس اللغة الالمانية في الثانوية المركزية ببغداد ، وانشط المعلمين الالمان في العراق في تلك الفترة ، مقالاً في جريدة « نياتشه تسايتونغ » ، عن عمله في العراق جاء فيه :

« ... وهم (ويقصد التلاميذ) يلحون علي دائما أن أقص عليهم شيئا عن هتلر والمملكة الالمانية الحديثة ، ويصرحون على الدوام بانهم بحاجة الى رجل عظيم مخلص كهتلر يقود بلادهم ، ويتمنون لو أتيح ان يزور هذا القائد بلادهم ، ليرى الاستقبال العظيم الذي سيقام لشخصه»

وجاء في المقال ايضا : « ... وانني اعطي بعض الدروس الخصوصية أيضا ، مثلا ثلاثة دروس في الاسبوع الى اطباء المستشفى الملكي في بغداد ، ودرسا واحدا الى مدير المعارف العام (وكان وقتئذ — اي في سنة ١٩٣٤ — الدكتور محمد فاضل الجمالي) ولبعض المدرسين ←

الحكومة تحقيقا دقيقا في هذا الأمر ، فوجدت هذه الاخبار عارية عن الصحة ، ولم يكن ثمة ما يؤخذ على المدرسين الالمان [1] . بل أظهرت التحقيقات ــ عكس ذلك ــ أن أولئك المدرسين يؤدون واجباتهم بصورة مرضية جدا . كما أن الطلاب العرب الذين أجرى التحقيق معهم في هذا الشأن ذكروا عن أساتذتهم الالمان كل حسنة ، وان ابعاد المدرسين الالمان ليس محل تفكير الآن . اما ما علم من أن اليهود استغلوا الى أبعد الحدود هياج الرأي العام بعد موت الملك غازي ، ومقتل القنصل البريطاني للتحريض على الالمان ، فقد سبب نفرة

وموظفي وزارة المعارف ، وهذه الدروس الاخيرة تفسح لي المجال للتكلم الى طلابي عن التهذيب والفن والحالة الاقتصادية في المانيا ، الخ ... واستعمل لهذه الغاية المؤلفات التي ترمي الى التهذيب السياسي الوطني كمؤلفات كريك ، وهنا أيضا نجحت نجاحا باهرا باستعمال الاغاني الالمانية . »

« وعلاقتي مع مدير المعارف (الجمالي) ومدير المستشفى (صائب شوكت) تسهل لي الاختلاط والتعارف بالعراقيين على اختلاف طبقاتهم. **وهذا حتما يجلب الفائدة المتوخاة من أعمالي .. »**

« .. وكل ذلك نتحمله بسرور عظيم محبة بالخدمة الوطنية التي نؤديها هنا . اننا نتحمل العيش في هذه البلدة الشرقية الاجنبية **حتى نتمكن من خدمة وطننا . »**

(المترجم)

(١) كان مدير الثانوية المركزية في بغداد ، السيد عبد الهادي المختار ، قد كتب الملاحظة الآتية بشأن تجديد عقد الدكتور هوبر في سنة ١٩٣٦ :

« غزير المادة ، مراجعته التدريسية واستمالته الطلاب وضبطه الصف يقدر عليها ، الا ان مبادءه وحركته القومية الشديدة لبلاده وما يقوم به من الدعاية لحكومته قد تتعارض والصالح العام . فانه وان كان يرغب في تجديد عقد استخدامه فهذه الادارة لا ترتاح لوجوده ، ولا تحبذ خطته العامة » . (اضبارة الدكتور هوبر في وزارة التربية)

(المترجم)

شديدة ، ليس في الوزارة فقط ، بل بين الشعب أيضا ، اذ استمر اليهود في مشاغباتهم واشاعاتهم ، وبذلك خلقوا مزيدا من المشكلات للعراق. على أن الشعب سينفجر في احد الايام غضبا ، وقد يتمخض انفجاره عن مذبحة عامة لليهود ، أما الانكليز ، فكانوا يرحبون بهذا النشاط اليهودي ، كما أنهم كانوا يتخذون الاتهامات التي تكال لهم وسيلة لحمل الحكومة العراقية على اتخاذ اجراءات مقابلة ضد الالمان .
والحكومة العراقية مضطرة الى الاذعان لرغبات الانكليز وان لم تكن مؤيدة لها أو راضية عنها ، وذلك لحراجة موقفها وكونها تحت ضغط شديد بسبب ايران وتركية من جهة ، واعتمادها المالي على بريطانية من جهة اخرى . وهذا يفسر الاجراءات المتخذة ضد الالمان في بغداد .
وقال لي الدكتور سامي شوكت انه لما عين مديراً عاماً للمعارف ، أمره نوري السعيد أن يُعنى بتربية الناشئة على غرار النموذج الالماني في بث الروح العسكرية فيهم ، وان حركة الناشئة العراقية « الفتوة » ــ التي اشترك وفد عنها في مؤتمر الحزب المنعقد في نورمبرغ في السنة الماضية ــ تضم الان كل ناشئة العراق ، ويبلغ عدد أعضائها ٦٣ الفا .

ان الايضاحات التي أدلى بها الدكتور سامي شوكت عن المدرسين الالمان اكدها لي أيضا فاضل الجمالي ، مدير التربيةو التدريس العام في وزارة المعارف ، وقال انه لما طلب الانكليز اخراج المعلمين الالمان الثلاثة ، انبرى بكل نفوذه وشخصيته ، لحمايتهم ، وتعهد بانهم سيسلكون سلوكا لا غبار عليه [١] . واخبرني ايضا ان الحكومة

---

(١) كتب الدكتور محمد فاضل الجمالي ، الملاحظة الآتية عن المدرسين الالمانيين « هوبر » و « ولخنر » :
←

العراقية ستجدد عقود هؤلاء المعلمين • أما عن الجو العام في العراق، فقال : ليس في العراق من يرغب في حرب تندحر فيها بريطانية ، ولكن ليس فيه أيضا من يتمنى أن تكون ألمانيا ضعيفة ، وأن كل نجاح تحرزه ألمانيا يقابل بالترحيب ، على حين يقابل كل بيان سياسي يصدر عن انكلترة أو فرنسة بالتحفظ وعدم الثقة • أن الرأي العام هو أن المانيا اذا كانت قوية استطاعت أن تراقب انكلترة وفرنسة ، وتحدّ من سياستهما الظالمة في البلاد العربية • ولكن ايطالية لا تتمتع بعطف العالم العربي •

ومن الأدلة على أن اليهود هم مصدر الدعاية ضد الالمان في العراق ، وخاصة ضد الدكتور يوردان في الايام التي وليت وفاة الملك، هو الخبر الذي نشرته جريدة (البلستاين بوست) وذكرت فيه أن المناشير التي وزعها الطلاب العراقيون في يوم ٦ مايس ــ ضد نوري السعيد واتهموه فيها بقتل الملك ، ونادوا بالثورة على الحكومة ــ كانت مطبوعة في المعهد الاركيولوجي الالماني ببغداد • وكانت الاشاعة نفسها قد انتشرت في بغداد أيضا[١] •

« الى معالي الوزير :

ان المدرسين هوبر ولخنر مثال المعلم المجد القائم بواجبه احسن قيام . لا شك في ان ذلك ناتج عن شعور وطني في سبيل خدمة وطنهم ، ومع ذلك فهما يقومان بواجباتهما احسن قيام تجاه ابنائنا ، وعليه اقترح تجديد عقدهما وترفيعهما الى الدرجة الخامسة لا سيما فقد سبق ووعدا شفهيا في السنة الماضية . واذا قيسا بالمعلمين الانكليز فلا شك انهما يستحقان فوق هذا الراتب »

فاضل ٩٣٨/٥/٢٥

(اضبارة الدكتور هوبر في وزارة التربية)

(المترجم)

(١) فريا ستارك ، ص ٢٨٩

وأكدت لي الحكومة العراقية مرارا خلال صيف سنة ١٩٣٩ أنها لن تتخذ اجراءات أخرى ضد الالمان ، وان الشبهات في الالمان قد زالت • وقد لقيت شخصيا مجاملة زائدة ومعاملة طيبة من السلطات العراقية في عدة مناسبات •

ولكن لما توترت العلاقات بين ألمانيا والدول الغربية ، وظهر احتمال نشوب الحرب ، صرح لي نوري السعيد أن الحكومة العراقية بموجب معاهدتها مع بريطانية ومقتضيات سلامتها كذلك ــ وان لم تعلن الحرب على ألمانيا ــ مضطرة الى اتخاذ الاجراءات ضد الالمان في العراق واغلاق السفارة الالمانية •

رحلتي الى برلين وعودتي الى بغداد

في آب سنة ١٩٣٩ سافرت ــ مثل جميع رؤساء البعثات الالمانية تقريبا ــ الى ألمانيا ، بأمر من وزارة الخارجية ، للاشتراك في يوم ألمانيا العالمي في « شنوتغارت » ثم في مؤتمر الحزب في « نورمبرغ » •

وبعد الاحتفالات في شتوتغارت ، توقعت الحكومة الالمانية نشوب حرب مع انكلترة • ولهذا تسلمت أمرا بالعودة الى بغداد حالا• واتفقنا مع وكيل الوزارة « بورمان » أن أذهب في حالة حدوث الحرب الى المملكة العربية السعودية ، حيث كنت معتمدا أيضا • وكان عليّ أن أتصل بالحكومة السعودية من بغداد ، لغرض الاستعداد لرحلتي الى بلادها • ولما كان امكان مروري ببيروت مشكوكا فيه ، لأنها ستكون منطقة احتلال فرنسية،فقد اتفقنا أن أتأكد في «رودوس» من امكان نزولي في بيروت •

وبلغت رودوس في ١٨ أيلول [١] ، فأخبرني نائب الحاكم العام أن هتلر وتشمبرلين ودالادييه اتفقوا في «برخد سفادن» على الاجتماع مرة أخرى في ٢٩ أيلول [٢] ، في « بادغودسبرغ » ، ولهذا كان من المؤكد أن السلم سيستمر حتى ذلك الوقت • فقصدت بيروت على ظهر باخرة فرنسية ، فبلغتها بعد يومين ، وطردت منها الى بغداد• وعند وصولي اتصلت بوزير الخارجية علي جودت ، وسألته عن نية الحكومة العراقية تجاه ألمانيا في حالة نشوب الحرب بين انكلترة والمانية • فقال لي ــ كما سبق أن أخبرني جميل المدفعي أيضا ــ ان العراق سيقطع علاقاته بألمانيا ، واقترح أن يغادر الرعايا الالمان بغداد •

وبعد اعلان انكلترة وفرنسة الحرب في ٣ أيلول ١٩٣٩ نصحت الرعايا الالمان بالمغادرة الى ايران عاجلا ، فذهب اليها كل من أخذ بنصيحتي منهم ، ولكن بعض الذين لم يعدّوا الموقف جديا فضلوا البقاء • وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ، أغلقت الحدود العراقية ــ الايرانية بوجه الالمان الذين هم دون الاربعين من أعمارهم ، فحجز جميع من تخلف منهم في بغداد ، ثم سلموا الى البريطانيين ، فنقلوهم الى الهند •

وأعلن نوري السعيد في أول أيلول بالراديو أن المساعدة التي يقدمها العراق بموجب المعاهدة العراقية ــ البريطانية ، تنحصر في تسهيل مرور القوات البريطانية من العراق ، وأن العراق ليس مجبرا

---

(١) كذا جاء في الاصل ، ولعله سهو من المؤلف ، اذ يفهم من سياق الموضوع ان المقصود هو ١٨ آب ، وليس ايلول ، لان الحرب أعلنت في ٣ أيلول . (المترجم)

(٢) كذا ، والمقصود ــ فيما يظهر ــ ٢٩ آب . (المترجم)

على المساهمة في الحرب في أي ميدان من الميادين ، ولن يحارب الا في حالة الهجوم عليه • وكانت صيغة الخطاب الذي أذاعه قد فرضت عليه من الجيش ، وربما تضمنت مسودته هجوما قاسيا على ألمانية •

سألت القائم بالاعمال السعودي في بغداد « سعيد الرشاش » أن يستفسر من حكومته هل توافق على ذهابي الى بلادها في حالة دخول العراق الحرب ، أو في حالة قطع العلاقات مع ألمانيا • وتسلمت في اليوم التالي جوابا بأن الملك ابن سعود يرحب بي بحرارة ، وانني يجب أن أذهب ملتفا حول الكويت الى واحة (حافر) حيث ستكون السيارات بانتظاري ، لنقلي من هناك ، وأنه يجب ألا أؤخر مغادرتي كثيرا • وتسلمت من الخارجية (الالمانية) ، وقد أخبرتها بنيتي ، جوابا بأن الغرض من دعوة الملك سعود اياي عن طريق المنطقة الكويتية هو ايقاعي بيد الانكليز • فأجبتها ان (حافرا) ليست في الكويت •ولكنني تسلمت أمرا من وزير الخارجية بالعودة الى برلين ، فكان ذلك مبعث خيبة كبيرة لي • وقد اكتشفت فيما بعد أن من في وزارة الخارجية كانوا يعتقدون بأن ابن السعود يميل الى الانكليز كل الميل • وكانت نتيجة هذا القرار من وزارة الخارجية أن المنصب الدبلوماسي الوحيد الذي كان مفتوحا لنا في البلاد العربية بعد اعلان انكلترة وفرنسة الحرب ، قد بقي شاغرا •

ان وجودي في الرياض خلال الحرب كان سيبقيني على صلة مع برلين لمدة طويلة ، ولكنت استطيع أن أجمع كثيرا من المعلومات القيمة عن البلاد العربية المجاورة • وحتى لو أجبر الانكليز ابن السعود فيما بعد على طلب مغادرتي ، فان بقائي في الرياض حتى ذلك الوقت كان مفيدا •

نشوب الحرب وقطع العلاقات الدبلوماسية

بعد اعلان انكلترة وفرنسة الحرب على المانية في ٣ أيلول ،عقدت الوزارة اجتماعا دام ست ساعات لبحث الموقف الذي يجب اتخاذه تجاه المانية •

وكان نوري السعيد يريد اعلان الحرب عليها ، ولكن رستم حيدر ، وطه الهاشمي ، ومحمود صبحي الدفتري ، وقبلهم جميعا، رئيس الوزراء السابق رشيد عالي الكيلاني الذي اشترك في الاجتماع ايضا، عارضوا هذا الطلب ، وكانوا يدعون الى حياد العراق •

وقد اتخذ نوري السعيد قراره بقطع العلاقات الدبلوماسية مع المانية ، فعارض هذا القرار عدد من الوزراء ، كما عارضه أغلب الشعب العراقي • وقد وجه كثير من اللوم الى نوري السعيد لانه لما قطع العلاقات مع المانية مباشرة ، لم يتح للوزراء الآخرين وساسة البلاد الفرصة لدراسة نتائج هذه الخطوة •

وقد عد الجميع قرار قطع العلاقات مع المانية خطأ كبيرا • ولهذا هوجم نوري السعيد بقوة في مجلسي الاعيان والنواب ، كما كان تسليم الرعايا الالمان الى البريطانيين محل انتقاد شديد •

ووصل المفتي أمين الحسيني الى بغداد في ١٣ تشرين الاول ١٩٣٩ فقام فيها بدور مهم بعد نشوب الحرب •

كان الانكليز قد عينوا أمين الحسيني مفتيا للقدس في سنة ١٩٢٠ ، وكان المندوب السامي البريطاني في فلسطين « السر هربرت صموئيل » يهوديا ، وقد أراد بتسنيمه هذا المنصب ان يكسب الى جانبه هذه العقلية الجوالة التي لا يقر لها قرار • وقد تعاون المفتي مع

الانكليز حتى سنة ١٩٢٩، ولكنه كان معارضا قويا للمطالب الصهيونية في فلسطين وللهجرة اليهودية اليها ، وأصبح بنتيجة سياسة الانكليز الودية نحو اليهود معارضا لهم ، وألف لمواجهة الوكالة اليهودية ــ « اللجنة التنفيذية العربية » التي كافحت الانكليز ومن يؤيدهم من العرب ، بوسائل الارهاب • وبعد أن حل الانكليز هذه اللجنة في ١/١٠/١٩٣٧ التجأ الى المسجد الاقصى في القدس ، وهناك كان على اتصال بالقنصل العام الالماني في القدس ــ عن طريق بعض الوسطاء • ولما أعلن مشروع التقسيم الثالث « مشروع لجنة بيل » في صيف سنة ١٩٣٧ ارسل معتمده « موسى العلمي » الى سويسرة للعمل على التأثير في الحكومات الصديقة ، شارحا مساوىء هذه الخطة • أراد موسى العلمي أن يؤم برلين أيضا ، فلم توافق وزارة الخارجية (الالمانية) • وغادر المفتي المسجد الاقصى متنكرا الى يافا ، ومنها ذهب في قارب شراعي الى لبنان • ويبدو أن الانكليز كانوا على علم بهربه ولكنهم لم يمنعوه ، بل تركوه يذهب لانه كان مصدر متاعب وازعاج لهم في القدس •

أبلغني وزير الخارجية العراقية علي جودت في ٥ أيلول بقرار الحكومة العراقية بقطع العلاقات مع ألمانية ، وأعطاني مهلة قدرها أربع وعشرون ساعة للمغادرة • وأضاف أنني يجب أن أسافر عن طريق سورية ، وبذلك أصبح الطريق الى السعودية أو ايران مغلقا بوجهي وأكد لي الممثل الفرنسي « لاكيليه » حين كلمته بالتلفون انني سأعامل في سورية ، التي تحتلها فرنسة ، بما يتناسب ومركزي •

عودتي الى برلين وعملي فيها

في يوم ٦ أيلول ١٩٣٩ غادرت مع أعضاء السفارة الى بيروت ، وقامت الشرطة العراقية بحراستي في الارض العراقيــة ، والــدرك الفرنسي في سورية • وقضينا ليلة في القلعة الصحراوية في (الرطبة) ، وهناك اتصل بي نوري السعيد بتلفون المخفر وحياني وتمنى لي رحلة سعيدة • وفي بيروت انزلنا في الفندق الالماني « متروبول » وكان مغلقا فأعيد لنا فتحه ، وكان مديره سويسريا • وبقينا هناك يومين ، حتى أتى خبر بأن القائم بالاعمال العراقي في برلين موسى الشابندر قد بلغ الحدود السويسرية مع موظفيه • وفي فندق متروبول لم أكن أستطيع أن أستقبل الزوار • وكان الاستثناء الوحيد هو القنصل العراقي العام تحسين قدري الذي كان صديقا قديما لي ، فقد زارني وتمنى لي رحلة سعيدة • وأبحرنا الى الاسكندرية على باخرة ايطالية ، وهناك صعــد الباخرة القائم بالاعمال الالماني في القاهرة « فون هافتن » ومعه أعضاء القنصلية الالمانية في الاسكندرية وبور سعيد • وكذلك جاء الىالباخرة خمسون المانيا مدنيا كانوا في مصر •

ولما كنت على سطح الباخرة في صبيحة ابحــارنا ، لاحظت أن السفينة تتجه الى الشمال وليس الى الشمال الغربي باتجاه «فينيسيا» ، وأخبرني ربان الباخرة حين سألته انه تلقى أمرا من مكتب شركتهيقضي بذهابه أولا الى « لارناكا » في قبرص ليأخذ الالمان الموجودين هناك• فاحتججت على ذلك وأبديت له أن لارناكا ميناء انكليزي ، واذا مــا دخلت الباخرة هذا الميناء فمن المحتمل ان يلقي الانكليز القبض على كل الالمان الذين لا يحملون جوازات سفر دبلوماسية ، وفي الوقــت

نفسه أبرقت رسالة لاسلكية الى مكتب شركة البواخر في فينيسيا •
وفي اليوم التالي لاحظت أن الباخرة ،وأنا على سطحها أيضا ، قد غيرت
إتجاهها ، واستدارت نحو الشمال الغربي• فسألت الربان هل تلقى
انجاهها ، واستدارت نحو الشمال الغربي • فسألت الربان هل تلقى
أوامر جديدة من مكتبه : فقال : لا ، ولكنه قرر أن يغير اتجاه السفينة
لئلا يوقع الالمان بيد الانكليز • ولما وصلت برلين ، اقترحت منح الربان
وساما ، فمنحه • ومن فينيسيا سافرنا بالقطار وبالسيارات الى برلين •

وقيل لي في وزارة الخارجية ، جوابا عن استفساري عن سبب
استدعائي من المحل الذي اتفقنا على انتقالي اليه ، انهم لم يجدوا واحة
(حافر) على الخارطة ، وكانوا يخشون أن تكون في اقليم الكويت ،
فطلبوا عودتي تفاديا لتعريضي للخطر •

اغتيال رستم حيدر

في ١٨ تشرين الثاني سنة ١٩٤٠ صعقت حين سمعت في الاذاعة
(وأنا في برلين) أن رستم حيدر ، وزير المالية ، وصديقي لسنوات
طويلة ، قد قتل في مكتبه الرسمي • وقد أعلن أنه استقبل مفوض
الشرطة السابق « حسين فوزي توفيق » ، وكان عاطلا لا عمل له ،
وجاءه يطلب التوظف في وزارة المالية • ولما رفض رستم طلبه ، أطلق
عليه حسين فوزي توفيق ، في نوبة من اليأس والغضب ، طلقات من
مسدسه • ومات رستم بعد أربعة أيام متأثرا بجراحه [1] •

---

(١) دون طه الهاشمي في مذكراته ليوم ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٠ :
« مات اليوم رستم متاثرا بجراحه ، فحزنت كثيرا على موته » .
« كان الزميل الوحيد الذي يفهمني ويساعدني على العمل المضني.
وكنت ائتمنه في خططي ومشروعاتي والاقي منه تشجيعا وترحيبا .
←

وذهبت الدعاية البريطانية بطبيعه الحال ، الى القول ان القاتل كان من مؤيدي ألمانية وأعداء بريطانية . ورأى « فون ريبنتروب » وزير الخارجية أن من الصروري مقابلة هذه الاشاعة الكاذبة ، فطلب الي في ٢٣ كانون الثاني ١٩٤٠ أن أقوم باعداد بيان صحفي يقول ان البريطانيين هم الذين قتلوا رستم بسبب موقفه الودي من المانية . ولكنني جلبت انتباهه ــ ومعي الدكتور « ملخرز » المستشار في القسم الشرقي لوزارة الخارجية ــ الى الحقيقة الآتية : وهي وجود خلافات في وجهات النظر بين رستم حيدر ونوري السعيد ــ اللذين كانا متعاونين دائما في السابق ــ وان سبب هذه الخلافات هو موقفهما من ألمانية . فنوري السعيد لم يكن ليكتفي بقطع العلاقات مع المانية ، وانما كان يسعى لاعلان الحرب عليها . في حين كان رستم حيدر يعمل للحفاظ على حياد العراق . على أن هذه الاختلافات لا يمكن أن تكون بالنسبة الى الانكليز سببا كافيا للقضاء على رستم حيدر ، لانه لم يترك شكا في أن العراق يجب أن يتعاون مع بريطانية ما دامت أسباب الاتصال المباشر بينه وبين المانية مفقودة . وان صدور بيان ألماني يقول بأن الاستخبارات البريطانية هي التي دبرت مقتل رستم حيدر سيزعزع الثقة في صدق المعلومات التي تذيعها المانية .

ولا شك بان الوزارة خسرت بموت رستم خسارة لا تعوض . وسابقى وحيدا في الحقل السياسي ، بين ساسة يلعبون على الحبل ، واخرين طماعون . وخسر البلاط في الوقت نفسه صديقا حميما للاسرة الهاشمية وامينا ووفيا لها ، فكان يرشد الملوك والامراء الى الخطة الرشيدة. رحمه الله رحمة واسعة . »

(طه الهاشمي ، المذكرات ، ص ٣٢٢)

(المترجم)

ولكن « فون ريبنتروب » لم ير بأسا في ذلك ، وكرر طلبه بأن اعد البيان الصحفي بالشكل الذي ارتآه ، فصدر البيان يقول :

« ان ظروف الاغتيال يحيط بها الغموض ، ولكن هناك اعتقادا بأن رستم حيدر ، كصديق لالمانية ، حافظ على حياد العراق تجاهها ، وان الانكليز قضوا عليه لانه كان مصدر ازعاج ومتاعب لهم [1] . »

---

(١) انظر : ديفوري ، ص ١١٥ ، وكان هذا ايضا هو الراي الذي نسب الى صالح جبر (انظر : خدوري ، ص ١٥٠) (المؤلف)

يشير المؤلف هنا الى ما رواه خدوري من ان صالح جبر اكد له شخصيا انه يعتقد اعتقادا جازما ان اغتيال رستم حيدر كان بتحريض من مؤيدي المحور الذين خافوا من نفوذه في تقوية التعاون بين العراق وبريطانية .

وهنالك رواية اخرى عن صالح جبر ـ ذكرها عبد الرزاق الحسني ـ قريبة في فحواها مما رواه خدوري ، جاء فيها : « .. والذي فهمناه من السيد صالح جبر انه كان يعتقد ان رستم حيدر ذهب ضحية لمؤامرة دبرها خصوم نوري ، لاضعاف وزارته ، او ان الالمان هم الذين دبروا الجريمة للغرض نفسه » (تاريخ الوزارات العراقية ، ج ٥ ، ص ١١٨ ، صيدا ١٩٦٦) .

ويروي خدوري ايضا ان « غروبا » قال له : انه ابدى لوزارة الخارجية الالمانية ان رستم حيدر كان صديقا عظيما لالمانية ، ومعجبا بهتلر ، وانه يعتقد بانه قتل بتحريض من البريطانيين ، ولكن وزارة الخارجية لم تعر رايه هذا اهتماما جديا ، لانها كانت تعد رستم حيدر مؤيدا للسياسة البريطانية (خدوري ، ص ١٥٠) . ويلاحظ ان غروبا لم يذكر في كتابه ما رواه عنه خدوري ، بل ان هذه الرواية تناقض ما ذكره غروبا من معارضته لفكرة ريبنتروب باصدار بيان يتهم الانكليز بمقتل رستم حيدر .

اما صلاح الدين الصباغ في مذكراته فيتهم نوري السعيد وعبد الاله بقتل رستم حيدر « بسبب اطلاعه على تفاصيل مقتل غازي » (فرسان العروبة في العراق ـ مكان الطبع لم يذكر ـ ١٩٥٦)

واما طه الهاشمي فقد دون في مذكراته ليوم ٢٧ مارس (اذار) ١٩٤٠ ما يأتي :

« أخبرني سعيد يحيى الذي حضر تنفيذ الحكم في قاتل رستم ←

حين أعلنت اذاعة لندن في ٢ مايس بدء القتال في « الحبانية » (بالعراق) اقترحت على وزير الخارجية ارسالي الى بغداد على الفور، فقال الوزير « فون ريبنتروب » علينا أن نتريث في الامر ، وننتظر مزيدا من المعلومات . ولكنه لم يلبث أن استدعاني ثانية بعد ساعة واحدة ، على أثر ورود برقية من « كرول » القائم بالاعمال في أنقرة ،

حيدر . قال بأنه لم يبلغ حكم الاعدام الى المجرم الا قبل الشنق فهتف بحياة هتلر وقال : « ليسقط نوري الذي علمه بالانحراف » . وكنت اشك في سلوك نوري تجاه المجرم . وكان اتصاله به ليلا بدون رقيب ، ثم اسراع المجرم الى الاعتراف بعد خروج نوري من غرفته . بينما كان قد أنكر قبل ذلك كل تحريض له وذكر انه اغتال رستم لانه يعتقد بضرره للعراق وانه لم يلب طلبه والخ ..

وقبل تنفيذ الحكم الح علي نوري بأن يجري في الفجر بساعة مبكرة وأن يحضر سعيد يحيى تنفيذ الاعدام الحكم ، كأنما كان يرغب في تنفيذ الحكم من دون ان يسمع أحد مايقوله المجرم . والاغرب من ذلك تأجيل اخباره بتنفيذ الحكم فيه الى قبيل تنفيذ الشنق .

وأذكر اني قلت لنوري يوما اني ارتاب من علاقة الرتل الخامس في حادثة الاغتيال ، ومن الجائز أن عملاء الالمان حرضوا القاتل على الاغتيال ليحدثوا شغبا بين الشيعة والسنة . وكان قد شاع ان القاتل كان في المانيا . فلما سمع نوري هذا الخبر ارتاح له . وكادت تحدث فتنةطائفية وشاع أن الحكومة تساهلت في التحقيق ، وابدلت الهيئة بهيئة أخرى . وعلى كل حال ان اجتماع نوري بالقاتل قد اضر بسير التحقيق ولولاه لكان من الجائز ان يصل التحقيق الى نتيجة ويظهر المحرض (ص ٣٤١)

ويرى خدوري أنه نظرا لتعدد وجهات النظر حول الدوافع العقائدية المحتملة لمقتل رستم حيدر ، فانها ــ فيما يظهر ــ لم تساهم في مقتله بصورة مباشرة ، لان رستم حيدر لم تعرف له آراء متطرفة في السياسة الخارجية . ولذلك فهو يرى ان مقتل رستم حيدر يجب ان يعزى الى تفاقم الحزازات الطائفية ، وان بقي سببه المباشر غامضا . وان القاتل قد يكون متأثرا بمبادىء معينة ، ولكن الاسباب الاصلية التي دفعته الى ارتكاب الجريمة كانت شخصية فيما يبدو . (ص ١٥١ ــ ١٥٢) .

(المترجم)

تؤيد أن الاصطدام المسلح فد بدأ في العراق فعلا ، وأن العراق يطلب ارسالي بغداد حالا • وقال السيد ريبنتروب ان بامكاني الآن أن أطير الى بغداد • وعين ، تنفيذا لطلبي ، لمعاونتي في مهمتي : مستشار المفوضية الدكتور هانس ـ أولريخ غرانو ، الذي كان سكرتيرا للمفوضية بين سنتي ١٩٣٢ و١٩٣٤ ، وسكرتير القنصلية اريخ هورنبركر ، الذي شغل الوظيفة نفسها بين سنتي ١٩٣٧ و١٩٣٩ ، والسيد و• غ• ستيفن موظفا صحفيا ومترجما ، وكان في المفوضية في بغداد بين سنتي ١٩٣٦ و١٩٣٩ ، ثم البروفسور الدكتور آدم فالكنشتاين ، الاخصائي في الدراسات السومرية ، الذي كان عضوا في البعثة الاركيولوجية في الوركاء مرارا • وطلبت الى جانب هؤلاء سكرتيرين ومترجمين، اثنين من الالمان الفلسطينيين من وحدة الخدمات الخاصة في القيادة العليا للقوات المسلحة(O.K.W.) التي مقرها برادنبورغ واثنين من عمال اللاسلكي •

وكان السادة غرانو ، وستيفن ، وفالكنشتاين ، والفلسطينيين ، يتكلمون العربية • وكان الاستاذ فالكنشتاين نائب عريف في فيلق المخابرة في يوتلاند ، فاستدعي منها ، وحضر لمقابلتي في وزارةالخارجية صباح ٥ مايس •

وكان رصيد وزارة الخارجية من العملات الاجنبية قليلا ، ولذلك جهزتني بعشرين الف باون استرليني ذهبا ، وكان ذلك بطبيعة الحال ، حملا ثقيلا بين أمتعتي [١] •

---

(١) وثائق وزارة الخارجية الالمانية U. St. S. Irak 2, S. 272920.

ولما درسنا موضوع ارسال الاسلحة الى حكومة العراق ، وكيفية تدبير ذلك ، لفت السفير الالمـاني في باريس « آبيتز » أنظـارنا الى الاسلحة المحجوزة في سورية وفق اتفاقية وقف اطلاق النار ، واقترح شراء هذه الاسلحة من الفرنسيين وارسالها الى العراق • وفكرنا في خير من يمكن ايفاده الى سورية لمفاوضة الجنرال « دنتز »[1] ، المندوب السامي الفرنسي ، في شراء الاسلحة المحجوزة وارسالها الى العراق ، فاتفقنا على أن الدكتور « راهن » ، مستشار السفارة الالمانيـة في باريس ، يستطيع تأدية هذه المهمة على ما يرام •

وقبل أن أطير الى بغداد قابلت الجنـرال « يودل » في برلين ، واقترحت عليه أن يرسل جنرال الجو « فيلمي » ــ الذي كان خلال الحرب العالمية الاولى قائدا للوحدة الجوية (٣٠٠) في ميدان سيناء ــ مستشارا عسكريا للحكومة العراقية ، ورئيسا للوحدات الالمانية التي سترسل الى العراق ، فوافق على الاقتراح من حيث المبدأ ، ولكنـه أبدى أن استحصال موافقـة « الفوهرر » عليـه سيكون أسهل اذا أرسلت الاقتراح من بغداد بعد الاتفاق عليه مع الحكومة العراقية •

وفي ٦ مايس ، سافرت ومعي بعض الموظفين في طائرتين من طراز (He 111) خصصا بي من سرب طائرات الفوهرر ، فذهبنا أولا الى « فوجيا » في جنوب ايطالية •

---

(١) الجنرال « هنري دنتز » ــ المندوب السامي والقائد العام الفرنسي في سورية في سنتي (١٩٤٠ ــ ١٩٤١) قبض عليه في باريس في أيلول سنة ١٩٤٤ وحكم عليه بالاعدام ، ثم خفف الحكم ، ومات في السجـن سنة ١٩٤٥ .

(المترجم)

ومما يدل على قلة ثقة السيد ريبنتروب بهذه العملية كلها هو انني لم أزود بأوراق اعتماد الى الشريف شرف الذي كان قد نصب رصيا على العرش في بغداد • وكانت تعليماتي أن أعنى أكثر من أي شيء بدراسة الظروف في المطقة نفسها ، وأقدم تقريرا عن الوضع • أما أوراق اعتمادي لدى النريف شرف ، فكانت سترسل فيما بعد ، حين تحتل القوات العراقيه الحبانية •

وفي ٧ مايس ، خاطبني فون ريبنتروب بالتلفون وأنا في «فوجيا» ، وقال انني يجب أن أذهب الى بغداد متخفيا باسم مستعار ، بقصد تضليل الانكليز ، فاقترحت اسم « فرانتز كيركه » •

وكان وزير الدفاع العراقي ناجي شوكت قد قدم الى أنقرة في ٨ مايس ، فكتب السيد « كرول » تقريرا أبدى فيه أن الوضع العسكري في العراق ايجابي ، وكرر طلب الحكومة العراقية ارسال طائرات مقاتلة ، وأسلحة خفيفة مضادة للطائرات ، ومدافع مضادة للدبابات •

ان الطائرتين اللتين وضعتا تحت تصرفي لم يكن قد أجرى عليهما فحص دقيق ، فتعطلتا كلتاهما في « فوجيا » ، فالاولى كان جهاز التبريد فيها مكسورا ، والاخرى توقفت فيها « البوصلة » عن العمل• فارسلت الينا طائرة احتياطية وصلت الى « فوجيا » بعد ست وثلاثين ساعة • وحدث تأخير آخر ، فقد طلب الي الدكتور « راهن » ، وأنا في « رودوس » في مساء ٨/٩ مايس ، أن أنتظره فيها • ثم طلب بعد وصوله أن أغير منهاج سفري ، وهو الطيران المباشر الى الموصل عبر سورية ، فانزل معه في حلب لمساعدته في مفاوضة القيادة الفرنسية في

أمر شراء الاسلحة •

وكذلك ضاع اليوم التاسع بأجمعه في رودوس ، لان الدكتور راهن غيّر ألوان طائرته ، فطلاها بالالوان الفرنسية للتعمية (الكوموفلاج) • ولكن هذا العمل كان من جهة أخرى مفيدا جدا ، اذ لم يكن من المؤكد ان تستطيع الطائرات الالمانية المرور في سورية دون صعوبات [١] • وهكذا بلغنا حلب في مساء ٩ مايس على طائرتين مختلفتين ، « راهن » ومساعده الفرنسي « جيرار » في احداهما ، وأنا في الاخرى • واتفقنا ان ينزل هو أولا بطائرته ذات الالوان الفرنسية والتي تحمل الاشارات الوطنية الفرنسية ، وأن تبقى الطائرتان الالمانيتان الاخريان في الجو ، فاذا استقبل « راهن » استقبالا حسنا ، نزلنا نحن على أثره • وكان استقبال « راهن » مقبولا ، فنزلنا نحن أيضا •

وكان قائدا الطيارتين الالمانيتين من طراز (He 111) مرتديين القيافة الالمانية الرسمية ، وقد رغبا دخول المدينة ومشاهدة قلعة حلب، فلم أسمح بذلك ، اذ لا بد أن يكون في حلب كثير من الجواسيس الانكليز الذين سيخبرونهم فورا بظهور ضباط ألمان في حلب • فامتثل القائدان أمري على مضض ، وكانا مستاءين منه • وفيما كنا ، أنا وراهن ، نتفاوض في موضوع شراء الاسلحة ، أخذ القائدان الى ثكنة في المطار لتناول العشاء • ولما تأخرا في العودة كثيرا ذهبت اليهما ، فوجدت الثكنة ملأى بالضباط والجنود الفرنسيين ، وهم في حالة هياج ، يلوحون بقبضاتهم ، وكان بعضهم يصيح : « هذه فضيحة ! »•

---

(١) راهن ، ص ١٥٣

وكان مساعداي في غرفة داخل الثكنة ، فلما دخلت عليهما قالا انهما أصبحا محاصرين ، فطلبت اليهما أن يتبعاني ، فاجتزنا الغرفة من بين الفرنسيين الهائجين حتى أصبحنا في العراء . وسألت قائد المطار أن يوضح لي ما حدث ، فقال ان الامر كله حدث لضباطي فجأة ، وانهم يجب أن يعوّدوا أنفسهم هذا . ثم دعانا ـ الدكتور راهن ومسيو جيرار وأنا ـ الى العشاء ، واستأنفنا بعد ذلك مفاوضاتنا ، وكذلك تزودنا بالبنزين لطائراتنا ، ولكننا فضلنا أن نقضي الليل في طائراتنا .

وفي صباح ١٠ مايس واصلت طيراني الى الموصل، وهنا طرأ أيضا تأخير جديد غير مرغوب فيه ، فقد كان هنالك انذار بوقوع غارة جوية على أثر ما علم من توجه بعض الطائرات الانكليزية الى الموصل. فلما شوهدنا في سماء المطار توهم من هم هناك أننا بريطانيون ، فأطلقوا علينا بنادقهم ، فأصيبت كلتا الطائرتين . وتعطل جهاز التبريد في طائرتي وانسكب الماء منه ، ولكن لم يجرح أحد من جماعتي . وقد أصلحت الطائرتان هناك حالا ، وكان علينا أن نواصل سفرنا الى بغداد بالسيارة .

ان محاولتي في اخفاء هويتي كانت مخفقة . فانني حين خرجت من الطائرة في المطار ، عرفني العمال ، فاستقبلوني بضجيج . ولما أدخلنا طائراتنا في الاوكار ظهرت الطائرات الانكليزية المتوقعة وألقت بعض القنابل .

ويبدو ان القيادة البريطانية انطلت عليها خدعة الاسم المستعار ، فهنالك اشارة الى « كيركه » ممثل وزارة الخارجية الالمانية في بغداد ،

في كتاب « بليفان » « تاريخ الحرب العالمية الثانية » [1] ، ولكن أخبار وصولي الى الموصل بلغت السفارة البريطانية في بغداد ، بالرغم من أنها كانت محاصرة • [2]

خاطبت رئيس الوزراء الكيلاني بالتلفون من الموصل ، فرحب بي ، وطلب قدومي الى بغداد بأسرع ما يمكن • وكان استقبالي واستقبال مساعدي في الموصل وديا للغاية ، ولما غادرناها بالسيارات ، اصطف الشعب على أرصفة الشوارع وشرفات البيوت وسطوحها ، وصفقوا لنا •

وفي عبورنا « الزاب الاكبر » رفض عامل العبّارة أن يتقاضى منا أجورا ، بل ألح علينا أن نشرب الشاي معه • وفي كركوك أقام متصرف اللواء، فائق شاكر، تكريما لنا دعوة عشاء حضرها قائد منطقة كركوك•

حين أبلغ رشيد عالي الحكومة الالمانية في ٢ مايس بنشوب المعارك بين القوات العراقية والبريطانية طالبا المساعدة ، قرر آدولف هتلر أن القتال في العراق يجب أن يسند بسرعة ، وباللجوء الى جميع الطرق والوسائل الممكنة • وعقدت القيادة العليا للقوات المسلحة في برلين اجتماعا في ٦ مايس للضباط الكبار وموظفي وزارة الخارجية تقرر فيه مضاعفة جهود المانية ونشاطها في الشرق الاوسط • وصرح الجنرال « وارليمونت » في نهاية هذا الاجتماع ان القيام بفعاليات سريعة وموفقة في العراق يمكن ان يحقق كثيرا من الفوائد في المجال العربي العام •

---

(١) ج ٢ ص ١٩٦
(٢) فريا ستارك ، ص ١٠٤

وتحقيقا لذلك على نحو مبــاشر وفوري ، كانت القوة الجوية الالمانية تستطيع ان تخصص سربا من طائرات المسرشمدت المحاربة ــ القاصفة (Me 110) وسربا آخر من قاصفات هاينكل (He 111) وقد وصل هذان السربان الى الموصل في ١٥ مايس ، وشنا غارتهمــا الاولى على الحبانية في ١٦ مايس •

وفي بغداد استقبلني رشيد عالي وأعضــاء وزارته في صباح ١١ مايس بحرارة ، ونزلت في دار رشيد عالي • وقد وجدت حالة رئيس الوزراء النفسية ومعنوياته هابطة جدا •

مقتل الميجر فون بلومبرك

وصل الى الموصل يوم ١١ مايس الميجر « اكسل فون بلومبرك » الذي أرسلته القيادة العليا للقوات المسلحة ضابطا للارتباط ، فكلمني منها بالتلفون •

ومما يدل على اهتمام رشيد عالي في هذا الوقت بالظهور بمظهر المتمتع بتأييد القوة الجوية الالمانية ، لأغراض الدعاية والاعتبار ، أنه أيقظني من نومي في ليلة وصول بلومبرك ، وقال لي : ان بلومبــرك وصل الى الموصل مع طائرتين ، فهل لي أن أكلمه بالتلفون ، وأطلب اليه أن يحضر الى بغداد مع كلتا الطائرتين ، وليس بواحدة فقط ، لأن وقع ذلك على الشعب في بغداد سيكون أكبر ؟ فكلمت الميجر بلومبرك، فأجاب أن ذلك سيكون مستحيلا ، لأسباب فنية ، لأن سرعة الطائرتين ليست واحدة ، وان احداهما ــ وهي طائرة نقل من طراز (Ju 52) ــ أبطأ من الاخرى ــ (He 111)

وبالرغم من تحذيري اياه ــ وقد بنيته على معلومات استقيتها

من قائد القوة الجوية محمود سلمـان ــ من المجيء الى بغـداد في الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي ، بل قبل تلك الساعة أو بعدها ، لأن الطائرات الانكليزية تكون في تلك الساعة فوق بغداد دائما ، فان الميجر فون بلومبرك كان فوق بغداد في الساعة السابعـة والنصف من صباح اليوم التالي ، فقتل حالا في معركـة جويـة بين المقاتلات البريطانية والعراقية ، بطلقة اصابته في رأسه . وقد طـارت ثلاث طائرات مقاتلة عراقية ــ بأمر من القائد محمود سلمان ــ لحراسة طائرته [١] .

وقد فحصت الطائرة بعد نزولها مباشرة ، وذكرت في تقريري انه كان يشاهد في القسم الاعلى من مكان القيادة أثر طلقة نزلت في اتجاه عمودي من الأعلى الى المحل الذي أصابت فيـه رأس الميجر فـون بلومبرك . وقد وردت هذه الحقيقة نفسها في تقرير عراقي رسمي . أما ما ذكره بعض الكتاب الانكليز من أن الميجر فون بلومبرك قتل بطلقة من بنادق عشائر عراقية غير مسؤولة[٢] ، أو بندقية أطلقت من الارض، فانه غير صحيح [٣] . ولم يكن صحيحا أيضا ما جاء في بيان الكابتن « داريز » ــ وهو قائد احدى طائرتي (He 111) اللتين طرت بهما الى الموصل ــ أن الميجر فون بلومبرك أسقطته طلقات المدافع العراقية

---

(١) وثائق وزارة الخارجية الالمانية Akt. U. St. S. Irak 3, 260753.

(٢) ريجاردز ، ص ٣٢١

(٣) بكلي ص ٣٧ ، اونكريك ص ٢٩٤ ، سومرست دي شيرص ٨٣ ، بلينر ص ١٩٥ ، فريا ستارك ص ١٠٤ ، تشرشل ص ٢٣٤ ــ أما فون بابن (ص ٥٣٩) والدكتور راهن ، فقد نقلا المعلومات الانكليزية المغلوطة ايضا .

المضادة للطائرات [١] .

ودفن الميجر فون بلومبرك باحتفال مهيب في ١٢ مايس في مقبرة القتلى الالمان في بغداد ، حيث يقوم نصب البارون فون درغولتز ، وحضر الدفن أعضاء الحكومة العراقية ، والقادة الكبار الذين كانوا في بغداد ، والمثلان الايطالي والياباني ، والجالية الالمانية في بغداد . وحيّت الجثمان ثلة من الجيش العراقي . وأثنينا ــ رئيس الوزراء الكيلاني وأنا ــ في كلمتين ألقيناهما على مواهب الرجل الذي هوى [٢] .

أدى موت بلومبرك الى قطع الاتصال المباشر بين القوة الجوية الالمانية وبيني ، وكانت لذلك مساوىء كبيرة ، اذ لم يتحقق أي تعاون (تكتيكي) بين قيادة القوة الجوية الالمانية والقوات المسلحة العراقية .

احداث العراق في مايس ١٩٤١

عقدت عشية وصولي الى بغداد اجتماعا مع قائد بغداد الجنرال صلاح الدين الصباغ [٣] ، فشرح لي الوضع العسكري ، مستعينا بخارطة ، وشرح المعارك التي دارت بين يومي ٢ و٥ مايس ، وأسفرت عن خسائر تكبدها الجيش العراقي . وكانت هذه الخسائر كبيرة بحيث اضطرت القوات العراقية بسببها أن تنسحب الى الفلوجة وتفقد معظم مدافعها . وكانت القوات العراقية الآن مرابطة قرب الرمادي ، وقرب جسر الفلوجة ــ حيث تحتل الجسر ــ وكذلك في شمال البصرة . وكان هجوم الدبابات الانكليزية على الفلوجة مستحيلا ، لأن المنطقة

---

(١) Akt. U. St. S. Irak 3, Bl. 260817

(٢) Akt. U. St. S. Irak 3 Bl. 260880.

(٣) كان صلاح الدين الصباغ « عقيدا » (المترجم)

التي في الجهة الغربية من الجسر تغمرها مياه الفيضان • أما اذا حاول الانكليز أن يتقدموا في الطريق الآتي من البصرة ، فانهم سيغرقون تلك المنطقة أيضا ، لمنع وصولهم • ولكن الجيش العراقي لا يتمكن من احتلال الحبانية من غير مساعدة المدافع المضادة للدبابات والمضادة للطائرات • أما اذا توافرت هذه المساعدة، فانه قد يستطيع القيام بذلك بسرعة • وكان الجيش العراقي قد احتل عدة محطات ضخ على الارض العراقية ، واستولى على كميات كبيرة من البنزين •

وكان صلاح الدين الصباغ يعتقد أن الجيش العراقي ــ بمساعدة القوة الجوية الالمانية والمدافع المضادة للطائرات والدبابات ــ يتمكن من تطهير بلاده من الانكليز ، ومن احتلال شرق الاردن وفلسطين[١] •

وكان يدافع عن قلعة (الرطبة) حتى ٩ مايس الشرطة العراقية والمتطوعون بقيادة الكابتن فوزي القاوقجي ــ وقد جاء هذا الرجل الى فلسطين بدعوة من المفتي الاكبر أمين الحسيني ، وهناك تسنم القيادة العسكرية للثوار العرب الفلسطينيين في حربهم ضد الانكليز • وبعد اتفاق وقف اطلاق النار في فلسطين (في أواخر سنة ١٩٣٦) جاء الى العراق ، ووضع في معسكر بريطاني في كركوك • فلما نشب القتال بين القوات العراقية والبريطانية ، عرض خدماته على الحكومة العراقية، وأبدى استعداده لقطع الطريق على الانكليز من شرق الاردن الى الحبانية ، مستعينا بمفرزة من المتطوعين • وكان المفتي الاكبر ضد قبول عرضه هذا ، ولكن رشيد عالي وافق عليه ، وأنشئت مفرزة

---

(١) Akt. Ram. 11, Irak, Bl. 61222.

آلية صحراوية وضعت تحت امرته • وبهذه القوة دافع فوزي القاوقجي عن الرطبة في ٩ مايس • فلما هاجمها الانكليز في اليوم التالي مرة أخرى بالدبابات والطائرات ، دافع القاوقجي في البداية من التلال القائمة في شمال الرطبة ، ثم انسحب الى الشمال •

وفي ١٢ مايس في أثناء مناقشة مع رشيد عالي والمفتي ورئيس أركان الجيش أمين زكي والجنرال صلاح الدين الصباغ ، عرضت اقتراحي باستقدام جنرال الجو « فيلمي » مستشارا عسكريا للحكومة العراقية ، فأبدى صلاح الدين الصباغ أن المانيا تريد أن تعامل العراق كما كانت تعاملها بريطانية • فأجبت ان وضع الجنرال « فيلمي » سيكون مختلفا جدا عن وضع رئيس البعثة العسكرية البريطانية في العراق ، فهو سيبقى في بزته الالمانية ، ويتقاضى راتبه من الحكومة الالمانية ، وستكون تحت قيادته القوات الالمانية التي في العراق فقط • فأيد الجنرال صلاح الدين الصباغ أن وضع فيلمي سيكون مختلفا فعلا ، وأنه في تلك الحالة يوافق على قدومه • وأضاف المفتي ان الجنرال « فيلمي » يتمتع بسمعة طيبة بسبب نشاطه في فلسطين خلال الحرب العالمية الاولى ، ولذلك فانه يؤيد استقدامه • ثم طلب رشيد عالي مني أن أبلغ وزارة الخارجية الالمانية طلب الحكومة العراقية الخاص بارسال الجنرال فيلمي الى العراق ، وأضاف أنه يقترح ان توضع تحت قيادته جميع الوحدات الالمانية في العراق •

وأخبرني رشيد عالي في ١٢ مايس أن تركية عرضت وساطتها بين العراق وبريطانية ، وأن شروط بريطانية هي :

١ ـ وقف العمليات الحربية العراقية ، وانسحاب القوات العراقية •

٢ ــ الموافقة على انشاء قواعد عسكرية بريطانية في العراق لحماية مرور القوات البريطانية الى الاردن •

٣ ــ الاعتراف برشيد عالي رئيسا للوزراء •

وأضاف رشيد عالي ان الحكومة العراقية أرسلت وزير الدفاع ناجي شوكت الى أنقرة للمفاوضة ، وأنها تتخوف من موقف تركية في هذه القضية وأن تؤدي محاولات تركية لاجراء مباحثات بين العراق وبريطانية الى تدخل تركي • وقال رشيد عالي ان الحكومة العراقية قررت رفض الاقتراح التركي مبدئيا [١] ، ولكنها ترغب في استطلاع رأي ألمانية في موقف تركية [٢] • وقد بددت ألمانية مخاوف العراق هذه ، فأجيبت الحكومة العراقية بأن رأي الحكومة الالمانية هو ان تركية لا ترغب في الدخول في تعقيدات عسكرية [٣] •

وبعد ظهر يوم ١٢ مايس ، طرت الى الموصل مرة أخرى ، لان

---

(١) ذكر السيد علي جودت في مذكراته (ص ٢٤٨ ــ ٢٤٩) انه علم من عبد القادر صالح ، الذي كان موظفا في وزارة الخارجية ، « انه كان قد حضر الجلسة الوزارية التي نوقشت فيها وساطة الحكومة التركية لتخفيف حدة التوتر بين العراق وبريطانيا ، وعندما طلب وزير العدلية (كذا ، والصواب : الدفاع) ناجي شوكت المشورة فيها . ورأى ان رئيس الوزراء كان ميالا لقبول الوساطة والشروط التي عرضتها الحكومة التركية ، كما أن بقية أعضاء الوزارة وافقوا عليها لما ظهر فيها من انصاف ومصلحة عامة ، الا ان احد الضباط استمزج راي المفتي في شروط الوساطة بعد الموافقة عليها ، ثم عاد يندد بالوساطة وينعتها بالخيانة ، ويقول (هذه خيانة يا رشيد !) ويفهم من هذا ايضا أن الضابط المذكور كان حاضرا جلسة مجلس الوزراء ! (المترجم)

(٢) Akt. RAM. 11, Irak, Bl. 61231.

(٣) Akt. RAM 11, Irak, Bl. 61240.

الدكتور « راهن » الذي كان في طريقه مع قاطرتي الاسلحة الأولين ، طلب مني أن أقابله على الحدود العراقية . وقد سافرنا من هناك الى الموصل بالسيارة معا ، وفيها أمضينا مع المتصرف الجنرال قاسم مقصود اتفاقية قرض بمبلغ ٣ر٣ مليون مارك ، أمدها ثلاث سنوات ، لتسديد قيمة الاسلحة التي جلبها الدكتور « راهن » . [١]

وبناء على اقتراح « راهن » أبلغت رشيد عالي طلبا بارسال كميات من الطعام الى حلب كتسديد جزئي لثمن الاسلحة . فأرسل رشيد عالي أمرا الى الموصل بارسال كميات من الحنطة والرز والسكر والزيت الى سورية بالقاطرتين الراجعتين .

وفي ١٤ مايس ، طلبت من رشيد عالي أن يفتح أنابيب النفط التي تمتد الى طرابلس ، فوافق على هذا الطلب . وعاد وزير الدفاع ناجي شوكت من أنقرة ، وقدم تقريرا أكد فيه سلامة موقف تركية من العراق وكان معجبا بمشاعر تركية وحسن نيتها نحو العراق وقال ان تركية متأكدة من أن العراق لا يحارب الا دفاعا عن حقوقه وردا على اعتداء طائش .

وأخبرني رشيد عالي في ١٤ مايس أيضا أن الحكومة العراقية تواجه صعوبات مالية ، لعجزها عن تسديد ما يترتب عليها ، وان مديري البنوك البريطانية في بغداد لما طاروا الى الحبانية أخذوا معهم جميع

---

(١) اخبر رشيد عالي الكيلاني المبعوث الايطالي في بغداد كزانتو في ٢٨ مايس ١٩٤١ أن الاسلحة التي ارسلتها لجنة وقف القتال في سورية كانت عديمة الفائدة ، ولو ارسلت بدلها عشر دبابات وسيارات مصفحة لكانت أكثر نفعا . Akt. U. St. S.U. Irak 3, Bl. 260659.

النقود المودعة في بنوكهم . ولذلك فلا بد من طبع عملة ورقية جديدة حالا ، والافضل ان يكون محل الطبع برلين . ولكن العملة الجديدة لن تكون مقبولة من الشعب العراقي الا عندما يكون لها غطـــاء من الذهب . ودرسنا كمية العملة الورقية التي يجب طبعها ، وكمية الذهب التي يجب ان توضع غطاء لها ، فكانت النتيجة التي توصلنا اليها أن هناك حاجة الى مليوني باون استرليني . فأبلغت السيد فون ريبنتروب طلب رشيد عالي بوضع مليوني باون استرليني ذهب تحـت تصرف الحكومة العراقية ، فجاءني الجواب بعد ٤٨ ساعة بالموافقة على الطلب، وبأن أول طائرة محملة بالذهب سترسل من برلين بطريق أثينا خلال أيام قلائل . وقد وصلت طائرة الذهب الى أثينا فعلا ، ولكنها توقفت هناك بسبب تدهور الوضع في العراق .

وفي ١٥ مايس أبلغ المستر « ورمان » ـ وكيل وزارة الخارجية الالمانية ـ مستشار المفوضية الايطاليـة « زامبوني » أنني تسلمـت مليون مارك ، لتكون تحت تصرفي ، أدعم بها الحكومة العراقية .[١]

وفي ١٦ مايس ، عقد اجتماع برئاسة رشيد عالي لبحث الوضع العسكري ، اشترك فيه كبار الضباط وضبـاط الارتبـاط الايطـالي « ميجر دادا » والكابتن « سيمن» ، وكنت حاضرا أيضا ، وبدا الوضع حرجا ودقيقا بسبب احتلال الانكليز للرطبة قبل ست وثلاثين ساعة ، وكون الانكليز الآن في وضع يهددون فيـه فـرع أنابيب النفط في « حديثة » ويستطيعون التقدم الى معسكر الحبانية ، بل حتى بغداد ، وأنهم قادرون على ارسال مزيد من القوات ، وذلك من البصرة وعن

---

(١) Akt. St. S. Irak I, Bl. 61674.

طريق الزبير والبصرة ، لدعم القوات التي في الاردن وفلسطين ومصر • وأن الجيش العراقي لم يبق قادرا على صد الهجمات البريطانية ، او عرقلتها عرقلة مجدية ، لان القوة الجوية العراقية لم يكد يبقى منها شيء ، وان كل تأخير في ارسال الطائرات لقصف الرطبة والحبانية ومنطقة البصرة سيسهل للانكليز تنفيذ خططهم • (١)

وقد أدى تدخل القوات الالمانية الى رفع معنويات الحكومة والجيش والشعب • ولما ظهرت الطائرات الالمانية تجمع الشعب في الشوارع وعلى سطوح المنازل مصفقين ، وكان الطيارون الالمان الذين نزلوا اضطراريا يعرفون بـ (ألماني !) وكان الناس يرحبون بهم متحسمين • (٢)

وبعد الغارة الاولى التي شنت على المعسكر البريطاني فيالحبانية طلب اليّ رئيس أركان الجيش أمين زكي أن أسأل قيادة القوة الجوية الالمانية في الموصل هل تستطيع ان تقصف الجسر قرب (المجرة) جنوب بحيرة الحبانية • وكان معروفا ان الانكليز احتلوا قلعة الصحراء في الرطبة بقوات استقدموها من الاردن • وقد أبدى أمين زكي ان الانكليز قد يستعملون هذا الجسر في سيرهم الى معسكر الحبانية • ولكن قيادة القوة الجوية الالمانية أجابت أن هذا الجسر الصغير قرب الحبانية (المجرة) لا يمكن تدميره الا بواسطة قاصفات (الشتوكا) التي تستطيع النزول الى ارتفاع قليل ـ وان طائرات (الشتوكا) الالمانية لا توجد في الموصل • وفي هذه الحالة لم يكن في الامكان قصف هذا الجسر الا بالقوات البرية •وقد مرت على هذا الجسر فعلا

---

(١) Akt. St. S. Irak I, Bl. 61778.

(٢) Akt. RAM, II, Irak, Bl. 61267.

قوات المعونة البريطانية التي جاءت الى معسكر الحبانية في ١٨ مايس بقيادة البريغادير كنكستون • وكانت هذه الوحدة من قوات المعونة حين حاولت تطويق الرمادى ، قد توقفت عن السير في ١٦ مايس بسبب منطقة الاهوار التي كانت غرقى ، فعبرت هذا الجسر الصغير ووصلت الى الحبانية • وكانت هذه الوحدة قد ألفت بناء على الحاح تشرشل ، وقد طلب من الجنرال ويفل أن يبذل كل جهد ممكن لقمع الثورة في العراق قبل وصول الالمان • (١)

كان الطيارون الالمان قد اتخذوا مقرهم في الموصل ، حيث كان عليهم أن يطيروا منها الى الحبانية في ساعتين • وقد قلل ذلك من تأثيرهم كثيرا •

ووصل الى كركوك سرب محارب ايطالي بعد وصول الطائرات الالمانية الى الموصل ، وكان عليها ان تقطع الى الحبانية مسافة أقصر •

وكان البنزين العراقي ــ وفي كركوك حوالي مليون ليتر منه ــ لا يمكن استعماله في الطائرات مباشرة • وكانت القوة الجويةالبريطانية تحصل على البنزين من الخارج أيضا (بواسطة شركة نفط بورما) •

وقد تمكن كيمياوي ألماني في القوة الجوية من تحويل كميات صغيرة من بنزين كركوك الى كيفية يمكن استعمالها بها في الطيارات الالمانية • ولكن بنزين الطائرات بصورة عامة كان لا بد ان يجلب من رودس ، او اليونان ، بطائرات النقل

وفي حدود ١٤ مايس ، وصلت الى رشيد عالي معلومات ــ من

---

(١) W.C. Churchill, *The Second World War*, Vol. 2. The Grand Alliance, P. 230.

أحد الوكلاء في الاردن ــ ان الانكليز أسسوا هناك وحدة دبابات أكبر لامداد الحبانية ، وقد أبلغت هذه المعلومات الى الكولونيل « يونك » في الموصل بطلب من رشيد عالي ، لمهاجمة تلك الوحدة • وقد لبى هذا الطلب وهوجمت هذه الوحدة مرتين ، وقد سبب هذا الهجوم خسائر في سرب الطائرات في الموصل ، ولكنه لم يستطع ان يعرقل وصول الوحدات الى الحبانية •

وبادر رشيد عالي بارسال وزير المالية ناجي السويدي الى الرياض ليطلب مساعدة الملك « ابن السعود » بموجب المعاهدة العراقية ــ السعودية الموقعة في نيسان سنة ١٩٣٦ ، وكان السويدي مزودا بتعليمات ليطلب اليه اثارة العشائر الاردنية على الانكليز • وقد أجاب ابن السعود ، بطريقة ودية جدا : انه سيحافظ على حياده ، ولا يمكن ان يصدر عنه ما يسيء الى العراق ، وأنه يقدر موقف العراق في الدفاع عن استقلاله • [١]

وقد أخبرني ناجي السويدي سرا ــ بعد عودته الى بغداد في ١٨ مايس ــ ان ابن السعود قال له اضافة الى ما تقدم : انه مستعد للتأثير في العشائر الاردنية ضد الانكليز • [٢]

وأخبرني رشيد عالي في ١٨ مايس ان الممثل العراقي في أنقرة بعث بتقرير يفيد أن وزير الخارجية التركية اخبره ان الحكومة التركية ابلغت الحكومة البريطانية برفضها طلبها التوسط لتسوية النزاع البريطاني العراقي ، لان وضع القوات البريطانية في البصرة يدل على أن الحكومة البريطانية لا تضمر نيات ودية تجاه العراق • وقال رشيد

---

(١) Akt. U. St. S. Irak 3, 260785.

(٢) Akt. U. St. S. Irak 3, 260753.

عالي : ان الحكومة العراقية ازاء ذلك تعتبر ان المحاولةالتركية للتوسط قد انتهت الان . [١]

أما تشرشل ، فيقول ـــ علىالعكس من ذلك ـــ ان وزارة الحرب البريطانية ورؤساء الاركان رفضوا قبول الحل التركي . [٢]

وفي ١٨ مايس ، سافر ضابط الاستخبارات الالماني « الكابتـــن كولهاوس » وضابط الارتباط الايطالي « الميجر دادا » بالسيارة معا الى الفلوجة حيث تأكدا ان البلدة مصونة جيدا من أي هجوم بريطاني من الغرب ، بسبب اغراق المنطقة الكائنة غرب نهر الفرات . على ان الانكليز هجموا على الفلوجة في اليوم التالي من الشمال بعد ان عبروا الفرات في موضع بالقرب من « سن الذبـــان » على جسور مؤقتـــة أقاموها على قوارب ، ثم احتلوا الفلوجة وجسرها الذي لم يكن قـــد نسف . وتزعزعت معنويات القوات العراقية التي تدافع عن الفلوجـــة لافتقارها الى المـــدافع المضادة للطـــائرات وانعـــدام الملاجيء ضـــد الغـــارات . [٣]

وقد عنفت رئيس أركان الجيش امين زكي لعـــدم نسف جسر الفلوجة الذي كان مقررا نسفه . وبعد مناقشة حامية ابدى استعداده لمحاولة احتلال الفلوجة من جديد . وكانت هذه المحاولة ناجحـــة في البداية ، فأعيد احتلال البلدة ، ولكن البريطانيين استعـــادوها ثانيـــة بهجوم مضاد . وكان جسر الفلوجة لم ينسف أيضا ، وقد حطمتقنبلة ألقتها طائرة بريطانية سيارة أحمال (لوري) عراقية كانت محملة بقطن

---

(١) Akt. U. St. S. Irak 3, Bl. 260824.

(٢) تشرشل ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥ ـــ ٢٩٧

(٣) Akt. St. S. Irak, Bl. 61801/0.

البارود لنسف الجسر . [1]

ووجه رشيد عالي الى زعماء العشائر نداء طلب اليهم فيه دعم الجيش العراقي ، فلباه بضعة الاف شخص ، معظمهم من الشيعة من منطقة الفرات الاوسط . وكانت القيادة بيد وزير الاقتصاد الفعال يونس السبعاوي ، فاشترك رجال العشائر في القتال في أماكن متفرقة ، ولكن نشاطهم قد تحدد فيما بعد ، ولا بد ان يكون ذلك بطلب من قيادة الجيش العراقي بسبب اختلافات في وجات النظر ، ولخشية قادة الجيش ان يطالب رؤساء العشائر لقاء مساعداتهم نفوذا أكبر للشيعة على الحكومة . وفي بعض المناطق السورية القريبة من الحدود العراقية ـ كدير الزور مثلا ـ تجمع بضعة مئات من المتطوعين السوريين للذهاب لمساعدة العراقيين ، كما جاء من فلسطين بضعة عشرات من أتباع المفتي .

وقصفت الطائرات الالمانية في يومي ١٦ و٢٠ مايس معسكر القوة الجوية البريطانية في الحبانية ، وكانت الاضرار التي سببتها أكثر مما فعلته القوة الجوية العراقية كلها [2] . وواصلت الطائرات الالمانية غاراتها في الايام التالية عدة مرات ، كما انها حلقت فوق الحبانية سبع مرات للاستطلاع ، ولكنهم فقدوا في هذه العمليات خمس قاصفات واحدى عشرة طائرة محاربة ، فلم يبق في امكانهم ان يسخروا اكثر من طائرتين الى ست طائرات فقط ، على حين كان الانكليز يرسلون في غاراتهم عشرين طائرة . وهكذا استنفدت قوات كلا السربين الالمانيين،

---

(١) ريجاردز ص ٣٢٢
(٢) ريجاردز ص ٣٢١

ولم تأت طائرات غيرها لتعوض عنها .

ولما احتلت القوات الانكليزية الفلوجة في ١٩ مايس ، لم تعرقل الطائرات الالمانية هجومها [١] ، وكذلك عند احتلال الفلوجة للمرة الثانية في ٢٢ مايس ، ففي هذه المرة ألقت الطائرات الالمانية بعض القنابل المتفرقة فقط .

وكان يحد من عمل الطائرات الالمانية وفعاليتها انعدام اجهزة « مصفاة الرمل » فيها . وقد قال لي الكولونيل « يونك » القائد الالماني للقوة الجوية الالمانية بصورة ودية انه لن يسمح بطيران الطائرات الالمانية قبل تجهيزها بتلك المصافي .

توجه الانكليز في ٢٨ مايس من الفلوجة الى بغداد في وحدتين ، ولم تشاهد هنالك اية طائرة المانية . أما القوة الجوية العراقية ، فلم تكن لديها غير ست طائرات قاصفة ـ محاربة قابلة للاستعمال .وكانت لديها ايضا اثنتا عشر طائرة امريكية قاصفة ـ محاربة (دوغلاس ـ نورثورب) ، ولكنها لم تكن صالحة للاستعمال لان الامريكيين لم يجهزوا هذهالطائرات بالرشاشات ولا بالمعداتاللازمة لربط المدافع بها (Gun Carridge) ـ وربما كان ذلك بايعاز من الانكليز .

ودب اليأس الى نفوس بعض اعضاء حكومة رشيد عالي بعد ان احتل الانكليز الفلوجة نهائيا فغادروا بغداد . فسافر وزير الدفاع ناجي شوكت مرة أخرى الى استنابول ، وذهب وزير الخارجية موسى الشابندر ووزيران آخران الى طهران بحجة المفاوضة .

وفي ليلة ٢٨/٢٩ مايس ، قامت القوات العراقية يسندها عدد من

---

(١) ريجاردز ص ٣٢٣

رجال العشائر بكسر السداد الغربية قرب « التاجي » ، وأغرقوا المنطقة التي تتقدم فيها الدبابات الانكليزية القادمة الى بغداد من الشمال • وقد غرزت بعض الدبابات الانكليزية في الاوحال وأسر من كان فيها من جنود وسواق ، فتعرقل بذلك تقدم هذه الوحدة •

وسارت وحدة انكليزية ثانية من الفلوجة الى بغداد ، وواجهت أيضا بعض الصعوبات ، لان المنطقة كانت قد أغرقت أيضا ، والجسر القائم على أحد الانهار الصغيرة قد نسف • ولكن هذه الوحدة تمكنت من اصلاح الجسر والوصول في ٣٠ مايس الى الجسر الحديد بالقرب من بغداد ، وكان هذا الجسر لم ينسف • والمياه التي عرقلت تقدم الوحدات الانكليزية لم تكن مياه فيضانات الربيع، كما ذكر الانكليز[1]•

ان الدكتور « راهن » الذي كانت مهمته شراء الاسلحة من الفرنسيين في سورية وارسالها الى العراق ، كانت تعليماته تقضي بالعودة الى باريس بعد انتهاء مهمته ، فاقترح على وزارة الخارجية ان يستبقى كضابط ارتباط للجنرال الفرنسي دانتز ، وأيدت هذا الاقتراح بحرارة ، فقبلته وزارة الخارجية ، ومنح الدكتور « راهن » لقب وزير مفوض ، بقصد اعطائه مركزا أهم لدى الجنرال دانتز •

أما فيما يتعلق بنسف الجسر الحديد في غرب بغداد ، وجسري بغداد على دجلة ، فان الحكومة العراقية لم تكن راغبة في ذلك ، ولم تشأ أن تتخذ قرارا بذلك •

وفي ٢٣ مايس ، أصدر الفوهرر امرا بواسطة القيادة العليا

---

(١) سومرست دي شير ص ٨٣

للقوات المسلحة في برلين أعلن فيه : « ان حركة التحرر العربية هي حليفتنا الطبيعية على انكلترة في الشرق الاوسط ، فقيام الثورة في العراق له أهمية خاصة ، وثورة كهذه ستمتد آثارها الى ما وراء حدود العراق ، وتدعم القوى المعادية لانكلترة في الشرق الاوسط ، وتعرقل خطوط المواصلات البريطانية ، وتقيد كلا من القوات الانكليزية ومجال الملاحة الانكليزية على حساب ميادين الحرب الاخرى • ولهذا السبب قررت توسيع عمليات التقدم في الشرق الاوسط عن طريق مساندة العراق وارسال بعثة عسكرية اليه لهذا القصد ، وتقديم المساعدة بواسطة القوة الجوية الالمانية وبتجهيز العراق بالاسلحة» ، وبيّن الامر ان واجبات البعثة العسكرية ستكون ابداء النصح والمعونة للجيش العراقي ، وأن رئيس البعثة سيكون جنرال الجو « فيلمي » الذي ستوضع تحت قيادته جميع القوات الالمانية في العراق • ولما كانت الفكرة الاساسية للدعاية الالمانية في الشرق الاوسط قد ركزت على أن «انتصار المحور يحقق لبلاد الشرقالاوسط التحرر منالنير الانكليزي، ويكفل لها حق تقرير المصير ، فان محبي الحرية سينضمون الى الجبهة المعادية لبريطانية » •

وكانت الحكومة العراقية مسرورة بهذا الامر التوجيهي من الفوهرر الذي تضمن ارسال بعثة عسكرية ، ولا سيما تعيين الجنرال فيلمي رئيسا لها ، لان اسم فيلمي كان معروفا في البلاد العربية من الحرب العالمية الاولى ، وتحدث عنه المفتي بكثير من الاحترام •

ان السبب في تأخر صدور هذا الامر (من ٦ مايس حيث بدأت الثورة في العراق حتى ٢٣ منه) يمكن رده الى تحفظ القيادة العليا

للقوات الالمانية المسلحة ، انتظارا منها لنتيجة محاولتها في كريت وتطور الموقف في العراق •

ان الآمال الكبيرة التي عبر عنها هذا الامر في صياغته كانت مهمة، اذ كان « رومل » في ذلك الوقت قد تقدم حتى حدود مصر ، والحملة الالمانية والايطالية على البلقان قد تكللت بالنجاح ، ثم توجت تلك الانتصارات بالتغلب على القوات البريطانية في جزيرة كريت •

ولكن أمر الفوهرر هذا كان قد نشر بعد احتلال القوات البريطانية للفلوجة نهائيا • وقد وصل الجنرال فيلمي الى أثينا في ٢٨ مايس والى حلب في اول حزيران ، أي بعد انتهاء العمليات الحاسمة ، كما أن الكولونيل يونك لم يكن في الموصل خلال الايام العصيبة التي كان الانكليز يتقدمون خلالها الى بغداد ، فقد طار الى أثينا ليجلب « مصافي الرمل » وطيارات جديدة •

وفي الساعة السابعة من صباح ٢٩ مايس ، كلمني رئيس مقر القيادة الجوية في الموصل بالتلفون ، وهو « كابتن » احتياط ، فأعرب عن استغرابه ، لانني لا أزال في بغداد ، وأخبرني أن الطيارين الالمان سيغادرون الموصل الى حلب خلال ساعة واحدة ، لان طائرات الاستطلاع شاهدت وحدة من الدبابات الانكليزيةتتقدم نحو الموصل• فقلت لهذا السيد ان هذه الرواية لا بد ان تكون صادرة من مصدر غير موثوق به ، واحتججت على مغادرة الطائرات الالمانية بهذهالسرعة، لان ذلك سيترك أثرا مثبطا سيئا على الحكومة العراقية وقيادة الجيش العراقي ومعنويات القوات المقاتلة • ولكن الكابتن لم يكن مستعدا لبحث الموضوع ، كما ان الطائرات الالمانية قد غادرت الموصل لا تلوي

على شيء •

وبعد مغادرة الطائرات الالمانية اتصل بي ضابط الارتباط العراقي المعين في قيادة القوة الالمانية في الموصل ، وهو برتبة رئيس اول ، وأخبرني ان المعلومات التي وصلت كانت مغلوطة فعلا ، وان ما شوهد لم يكن غير مجموعة من (اللوريات) العراقية في طريقها الى الموصل •

رشيد عالي والمفتي وانا ... نغادر العراق

في ٢٩ مايس ، تدارست الوضع مع رشيد عالي ، فاتفقنا في الرأي أننا لا نستطيع المقاومة ، لعدم نسف الجسور غربي بغداد وفي بغداد ، ولظهور وحدتين بريطانيتين قرب العاصمة ، وأن مركز المقاومة يجب أن ينتقل الى كركوك • وكانت في ذهني الخطة التي رسمها (بطلب من بكر صدقي ـ رئيس أركان الجيش يومئذ) الكولونيل هاينتز ، من الأركان العامة ، للدفاع عن « كردستان » في حالة اخلاء بغداد [١] • فقررنا أن نسافر أنا وأعضاء سفارتي الى كركوك بالسيارات ، وأن يسافر اليها رشيد عالي الكيلاني والمفتي وبعض كبار الموظفين بالقطار •

ولما وصلت ، مع هيأة السفارة ، الى أول مخفر للشرطة أخبرني ضابط الشرطة أن الانكليز عبروا دجلة واحتلوا كركوك ، ونصحني بعدم الذهاب اليها وتحويل اتجاهي الى ايران • فأجبته انني أرى هذه المعلومات مغلوطة ، وواصلت سفرتي الى كركوك بعد أن اتخذت احتياطات معينة • ولم يكن ثمة انكليز في كركوك ، فزرت سرب الطائرات المحاربة الايطالية ، ووجدت الضباط العراقيين هناك في حالة

---

(١) انظر ص ١١٥ من هذا الكتاب .

هياج ، لأن الطيارين الطليان يرفضون الطيران •

أما متصرف كركوك فائق شاكر ، الذي أقام لتكريمي دعوة فخمة عند وصولي في ١٠ مايس ، فلم يشاهد له أثر •

وأما رشيد عالي والمفتي ، فلم يصلا الى كركوك ، فاستفسرت عنهما من بغداد تلفونيا ، فأخبرت أنهما ذهبا بالقطار الى خانقين ، ومنها اجتازا الحدود الى ايران • وعلمت فيما بعد أن القطار الذي استقلا فيه الى كركوك قد أوقف في الطريق أيضا • وقيل لهما ان الانكليز نسفوا أحد الجسور القريبة من كركوك، وأن كركوك يحتلها الانكليز• وقد صدّق كلاهما هذه المعلومات ، فسافرا الى خانقين ، ودخلا ايران• ولم يكن الشرطة الذين حذروني من مواصلة سفري وحدهم ، ولكن أولئك الذين أوقفوا قطار رشيد عالي أيضا ، كانوا يعملون بأمر العناصر الصديقة لبريطانية في بغداد •

ولم يكن في كركوك ضابط عراقي كبير أستطيع أن أبحث الوضع معه ، فواصلت سفري ومعي رفاقي ، صباح اليوم التالي (٣٠ مايس) الى الموصل • فوجدت الطيارين الالمان قد غادروا المطار نهائيا ،وتركوا وراءهم في بيوتهم حقائبهم المصنوعة خصيصا للبلاد الحارة ، كما تركوا محطة بث لاسلكية ، وكانت في المطار ثلاث طائرات ألمانية معطوبة قليلا • فوضعت الأمتعة في سيارة خاصة وأخذتها معي الى حلب • أما الطائرات ، فقد أمرت باحراقها •

وفي الموصل وجدت الجنرال قاسم مقصود ، وقائد الرمادى السابق الكولونيل اسماعيل حقي الذي كان قد أصيب بجرح خفيف• وكلاهما فكر في البداية في مواصلة مقاومة الانكليز من الموصل • ولكن

قاسم مقصود انصاع لأمر جاءه من بغداد بوجوب سفره اليها حالا للمشاركة في مفاوضات وقف اطلاق النار • أما الكولونيل اسماعيل حقي ، فقد أخبرني عن خطة لديه للدفاع عن الموصل مع فرقته ، على أن يذهب الى حلب اذ أخفقت المحاولة • ولكنه اشترط أن تعود الطائرات الالمانية ، بأعداد أكبر ، خلال ٤٨ ساعة • أبلغت ريبنتروب هذه الشروط برقيا ، فأجاب في اليوم التالي (أي ٣١ مايس) أن الطائرات ستصل خلال ٤٨ ساعة ، ولكنني لم أتمكن من الاتصال بالكولونيل اسماعيل حقي في اليوم التالي ، كما أنه لم يظهر في المحل والموعد اللذين اتفقا عليهما • وقد وصلت الطائرات التي وعد بها السيد فون ريبنتروب الى حلب في يوم ٣١ مايس ، وأصبحت تحت قيادة الجنرال فيلمي ، في أول حزيران •

واتصل بي بدلا من اسماعيل حقي ، آمر موقع الموصل ، الذي كان قد أطاع أوامر بغداد ، وطلب مني بطريقة مؤدبة مغادرة الموصل، لأن القوات الانكليزية تتقدم نحوها • فأبديت له استعدادي لمغادرة الموصل أول ما يجتاز الانكليز بيجي • ولكنني حذرته ، على أي حال، من محاولة القاء القبض علينا أو توقيفنا ، لأننا مسلحون ، وسندافع عن أنفسنا • فأنكر وجود مثل هذه النية لديه ، وقال : « ان هذا مستحيل لأنكم أصدقاؤنا » •

وأخبرني آمر الموقع ، بعد ساعة ، أن الانكليز احتلوا بيجي ، وتقدموا نحو الموصل [1] ، فغادرت الموصل بالسيارة مع رفاقي ،

---

(١) كان آمر موقع الموصل يومئذ المرحوم الزعيم الركن المتقاعد توفيق حسين ، وقد نشر في سنة ١٩٤٧ كتيبا بعنوان «غروبة في الموصل» روى فيه انه وضع برقية « مصطنعة » ، مفادها ان القوات البريطانية ←

واتجهت غربا الى « تل كوجك » ـ وهي أول نقطة سورية ـ وكان الوصـول من بيجي الى الموصل بالسيـارة يستغرق ثلاث ساعـات بالسيارة ، وهي نفس المدة التي يستغرقها السفر من الموصل الى تل كوجك ، فكان لديّ الوقت الكافي للوصول الى تل كوجك .

وأذكر الآن حادثا يعد رمزا لموقف العراق الودي نحو الالمان :

لما كانت تل كوجك في ذلك الوقت مزدحمة باللاجئين ، كان من المستحيل أن أجد غرفة أستطيع أن أرسل منهـا ـ دون تـدخل أو مقاطعة ـ برقيات الى برلين . فرجعت مسافة ثلاثـة كيلومترات الى آخر مخفر في الارض العراقيـة ، وطلبت من آمـره أن يسمح لي أن أسحب سلكا من برج المخفر الى سيارتي ، لأتمكن من ابراق برقيـة لاسلكية الى برلين ، فأجاب ـ بعد مداولة مع رفاقه ـ : « انك صديق العراق ، ولك أن تفعل هنا ما تشاء ! » وهكـذا تمكنت من ابـراق برقيتي الاخيرة من العراق . وعلى أثر ذلك أهديت الى آمر المخفـر مسدسي مع عدد من الاطلاقات ، اعترافا بجميله .

تتقدم نحو الموصل ، وارسلها لاطلاع « غروبا » مدعيا أنه تسلمها من بيجي . وهو يقول أيضا انه كان باستطاعته أن يلقي القبض على الدكتور « غروبا » وجماعته ، ويرسلهم الى بغداد ، ولكنه لم يفعل لأنه سبق له أن وعده وعدا عسكريا بالمحافظة على حياته ، ولأن الراي العام في الموصل كان هائجا بسبب الدعايات التي انتشرت عن قرب دخول الانكليز . ولذلك الح علي « غروبا » كثيرا بترك الموصل ومغادرة العراق ، حقنا للدماء ، ولفق هذه البرقية لايهامه وصول الانكليز الى بيجي ، فانطلت عليه الحيلة ، ويظهر ان الدكتور « غروبا » لم يطلع على هذا الكتيب أو يسمع بما ذكره مؤلفه عن موضوع البرقية . (انظر : الزعيم الركن المتقاعد توفيق حسين « غروبة في الموصل » مطبعة الاستقلال ، بغداد ، ١٩٤٧ ، ص ٦٨ـ٧٣) (المترجم)

وفي يوم ٢ حزيران ، قابلت الجنرال فيلمي في حلب • وفي ٤ منه تسلمت بواسطة الدكتور راهن أمرا من وزارة الخارجية بالعودة الى برلين حالا ، لتقديم تقريري فسافرت بالطائرة سالكا طريق أثينا • ولما كنا نطير فوق قبرص أطلقت علينا المدافع المضادة للطائرات بعض الطلقات ، ولكنها أخطأتنا •

وفي وزارة الخارجية ، ألحقت مرة أخرى بالعمل مع سكرتير الدولة « كبلر » الذي كان قد عهدت اليه الشؤون الاقتصادية • وفي يوم ٢٩ حزيران ، وصلت برقية من الجنرال فيلمي — الذي كان في ذلك الوقت قائدا في جنوب اليونان — تفيد بأن الميجر فوزي القاوقجي قد أصيب بجروح بليغة ، وأنه سيصل بالطائرة ، فطلب الي فون ريبنتروب أن أعنى به • وكان فوزي القاوقجي بعد انتهاء القتال في العراق ذهب مع جماعته الى سورية،ووضع نفسه تحت تصرف الجنرال فيلمي في حلب • وبعد استدعاء فيلمي الى المانية تعاون القاوقجي مع الفرنسيين ، وأصيب خلال جولة استطلاعية كان يقوم بها ، بجرح خطير في رأسه من شظية رشاشة أطلقتها طائرة بريطانية ، فدبر الجنرال فيلمي نقله جوا الى برلين • وهناك استقبلته ورافقته الى مستشفى البروفسور « تونيس » في ساحة هانزا ، فعالجه من غير أن يجري عملية له •

ثبت المصادر التي أشار اليها الدكتور غروبا في مذكراته :

Birdwood, Lord, *Nuri as-Said,* London, 1959.

Buckley, Christopher, *Five Ventures,* London, 1954.

de Chair, Somerset, *The Golden Carpet,* London, 1944.

de Gaury, Gerald, *Three Kings in Baghdad,* London, 1961.

Khadduri, Majid, *Independent Iraq,* London-New York-Karachi, 1960.

Kirk, George, *The Middle East in War,* Oxford 1952/1954.

Kirk George, *The Middle East 1945-1950,* London-New York-Toronto, 1954.

Kirk George, *The Middle East in the War,* London-New York-Toronto, 1952.

Kirk George, *The Official Story of the Persia and Iraq Comment,* London-New York-Toronto, 1948.

Lenczowski, George, *The Middle East in World Affairs,* New York, 1957.

Longrigg, Stephen Hemsly, *Iraq 1900 to 1950,* London-New York-Toronto, 1956.

Von Papen, Franz, *Der Waheheit eine Gasse,* Munchen, 1952.

Peterson, Sir Maurice, *Both Sides of the Curtain,* London, 1950.

Richards, Denis and Saunders, Hilary St. George, *Royal Air Force* 1939-1945, London, 1953.

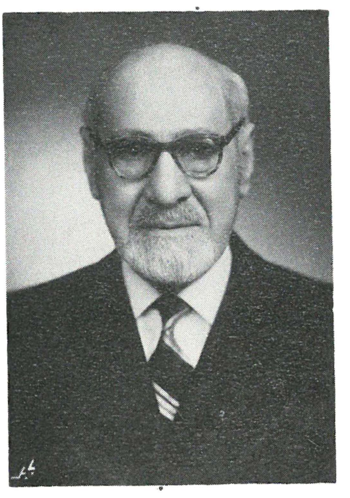
Rahn, Rudolph, *Ruheloses Leben,* Dusseldorf, 1949.

Stafford, R.S., *The Tragedy of the Assyrians,* London, 1935.

Stark, Freya, *Beyond Euphrates,* London, 1951.



صورة كاريكاتورية للسر موريس بيترسن بريشة الرسام صاروخان نشرت في مجلة (روز اليوسف) سنة ١٩٣٤ حيث كان السر موريس نائباً للمندوب السامي في القاهرة



آخر صورة للسيد رشيد عالي الكيلاني
(نيسان ١٩٦٣)

مذكرات الكونت جيانو

وزير خارجية إيطاليا من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٤٣

٤ كانون الثاني ١٩٣٩

حدثت في بغداد مظاهرات ضد قيامنا بالتهجير الجماعي الى ليبيا. انهم يعتقدون أن هذه النواة من الايطاليين ستخل بالاكثرية العربية في حوض البحر المتوسط . وانهم لمصيبون ، فهذه هي غايتنـــا ، ولكن الدوتشي أرادني أن أطمئن وزير العراق المفوض مرة أخرى ، لأنه كان منزعجا من الدعاية التي نالها « بالبو » (١) بمبادرته ، وأمر أن تجري عمليات التهجير في المستقبل بصورة سرية . ان هذا سيساعد .

٣٠ مايس ١٩٤١

أنباء سيئة من بغداد ، وما هو أسوأ منها ، أن طائراتنا ــ بعــد شهر من بدء الاصطدام ــ لم تبدأ عملها بعد . وهذا دليل جديد ــ ان أعوزنا دليل جديد ــ على فقدان الاستعداد في قوتنا الجوية .

ولكن الأمور ــ من جهة اخرى ــ تسير سيرا أحسن في كريت حيث يبدو اندحار البريطانيين وشيكا .

١٠ شباط ١٩٤٢

استقبلت الكيلاني ، رئيس وزراء العراق ، الذي بدأ الحركة ضد

---

(١) ماريشال الجو ايتالو بالبو ، أحــد الاربعــة الذين زحفوا على روما . كان حاكما عاما ، وقائدا للقوات الايطالية المسلحة في ليبيا سنة ١٩٣٣ ، وقتل في حادث طائرة فوق طبرق في حزيران سنة ١٩٤٠ .

بريطانية ، ويعمل الآن بنشاط في روما وبرلين لضمان الود للامم العربية في المستقبل • الالمان حذرون ، ولا يريدون امضاء أي ميثاق معه في الوقت الحاضر • وهو رجل ذو حيوية وتصميم ، ويتمتع بنفوذ كبير بين شعبه ، بسبب مقامه وشخصيته • انه يؤمن بانتصار المحور ، ويقول : ان قواتنا حين تصل الى تفليس ، فلن يتمكن البريطانيون من الحيلولة دون تمرد الشعوب الخاضعة لهم • انه يرتاب في موقف تركية، ويرى أن الشعب التركي ـ باستثناء بعض القادة العسكريين ـ يفضل البريطانيين قلبيا ، ويتمنى انتصارهم • ويجب أن أضيف ان « بسمارك »[1] كان يحادث « فيتيتي »[2] صباح اليوم جعله يفهم أن ألمانية تستعد لمهاجمة تركية ،وهو يعتقد أنها الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها الالمان أن يصلوا الى آبار النفط• ولكن ، هل هذا استنتاج صحيح ؟ يبدو أن بسمارك يرى الامور من جانبها المظلم ، وكان ذلك دأبه دائما ، وأنه الآن سيفصح عن المزيد تدريجيا •

الأخبار من الجبهة الشرقية مقلقة مرة أخرى • الروس يهاجمون في كل مكان ، ومن المتوقع أن يتم انسحاب جديد في خطوطنا •

« فيدوسوني » [3] ظهر للمرة الاولى في دعوة عشاء في السفارة الالمانية ، وكان مهندما في قميص ذي خطوط زرق وربطة حمراء ومنديل أحمر ، ولم يكن منطلقا •

---

(١) الامير اوتوفون بسمارك ، مستشار السفارة الالمانية في روما .

(٢) ليوناردو فيتيتي : المدير العام لوزارة الخارجية الايطالية ، والمستشار السابق في السفارة الايطالية في لندن ١٩٣٢ ـ ١٩٣٦

(٣) آلدو فيدوسوني : زعيم كتائب الشباب (الميليشيا) في الجامعة ، ثم السكرتير العام للحزب الفاشيستي .

مذكرات السر موريس بيترسن

السفير البريطاني في العراق من سنة ١٩٣٨ الى سنة ١٩٣٩

بلغت بغداد في منتصف آذار سنة ١٩٣٨ مستقلا قطار طوروس السريع حتى حلب ، ومنها احدى طائرات القوة الجوية البريطانية التي تقل القوات العسكرية .

وتقع السفارة في بغداد على الضفة الغربية من نهر دجلة . وهي بناية مشتتة مظلمة غير مريحة ، ولكنهـا مع ذلك جـذابة . كانت في السابق مسكن أحد الباشوات الاتراك . وتجعل منها حدائقهـا التي تقرب من تسعة أفدنة واحة مستحبة بين الغبار والذباب والامـراض التي هي الطابع المميز لمدينة الخلفاء الحديثة . وقد كانت لدينا مشاتل البرتقال الخاصة بنا ، وكذلك الليمون الهندي (كريب فروت) ، وهو ثمر ثمين ، لأن استيراد هذا النوع من الفاكهة من فلسطين كان ممنوعا. وكان البرتقال وافرا ، من نوع برتقال اشبيلية المر . أما استيراد برتقال يافا الحلو فقد كان مباحا . وكانت الكثرة الغـالبة من الاشجـار في حدائق السفارة نخيلا تضمّن لأحد تجار التمور بثلاثين دينارا سنويا، وكان هذا المبلغ ينفق في صيانة الحدائق .

وتزيّن القاعة الكبرى في الدار نافورة صغيرة رصفت بالقاشاني (الكاشي) الازرق ، في اطار يرتفع عن أرض القاعة ست بوصات أو ثماني بوصات بنفس اللون الخادع للابصار . وقد نالت هذه النافورة في احدى حفلاتنا الراقصة سمعة رديئة جدا . فان شعشعة الاضواء على الماء المتموج والقاشاني الازرق ، وقد تكون ممزوجة ببهجة المناسبة ،

جعلت منها ــ بالرغم من الكراسي التي صفت حولها للتحذير ــ مصيدة موت حقيقية للضيف الساهم الذي يعبر القاعة دون انتباه لما حوله • وقد عثر بسياج النافورة في أمسية واحدة ما لا يقل عن ثلاثة أشخاص خاضوا ماءه أو سقطوا فيه•وكان أحدهم ــ وهو دبلوماسيأمريكي ــ ضحية جدية • أما الذي تخلص من الأمر بأهون الضرر ، فكان الزعيم النازي المحلي ، الذي قمت باخراجه من العراق فيما بعد ، ولكنه في تلك المناسبة ، نجا بيدي التي امتدت لتقيه العثار • أما الضرر الـذي أصابه ، فقد أزيل باعارته زوجا جديدا من الجوارب •

كان الأثر الاجنبي الذي يطبع العراق انكليزيا ــ هنديا ، على حين كان يسود مصر طابع البحر المتوسط ، وهو فرنسي ــ ايطالي ــ يوناني بقدر ما هو انكليزي أو أكثر • وتقيم الجالية البريطـانية في بغداد والبصرة ــ وعددها في الاولى كبير بسبب النسبة الكبيرة من الموظفين البريطانيين في الحكومة وخاصة في السكك الحديد ، اضافة الى العدد الضخم من موظفي شركات النفط ــ في مناطق خاصة محددة ومتميزة كل التميز ، وهي أشبه بمعسكرات خاصة ، تقريبا ، وان لـم تكن كذلك بالضبط • ولهؤلاء أنديتهم وأسباب تسليتهم الخـاصة كالكولف والكريكت والتنس والرماية والفروسية وحتى البولو •

والمجتمع العراقي بدائي نسبيا ، بالقيـاس الى مصر المتحضرة • ولكن من الخطأ أن يقال ان الصلة منعدمة كل الانعدام بين الجاليـة البريطانية والسكان المحليين • ففي المدن يكون حجم العنصر البريطاني الرسمي وحده ضمانا ضد مثل تلك الحالة غير المستحبة •وكان بين الموظفين في العراق الكثيرون من الذين كانت لديهم الرغبـة في رفع مستوى

مجتمع العراقيين والقدرة عليه • أما في الريف ــ وفي العراق تختلف العشائر الساكنة على ضفتي النهرين الكبيرين دجلة والفرات عن سكان المدن ــ فان هنالك أيضا عددا من الانكليز الذين تحملهم واجباتهم في مسح الأراضي ، والري ، الى أرجاء البلاد وأقاصيها ــ وان قل عددهم نسبيا منذ المعاهدة ومنح الاستقلال التام •

وهناك أيضا القوة الجوية الملكية ، وهي بموجب المعاهدة مستقرة في قاعدتها العظيمة في « الحبانية » ، على الضفة الغربية من الفرات ، مع قواعد أصغر منها في الجنوب ، ولها موطىء قدم متزعزع ومتنازع عليه في « الموصل » • وكذلك بعثة عسكرية معتمدة لدى الجيش العراقي •

وكان « البارومتر » السياسي في العراق معتدلا عند وصولي في أعقاب صعود بكر صدقي وسقوطه في السنوات التي سبقت ذلك • وكان رئيس الوزراء جميل المدفعي معروفا بموقفه ضدنا في ثورة ١٩٢٠ ، ولكنه كان قد نضج وأصبح رجل دولة • وقد وجدته يفوق غيره من السياسيين العراقيين ، لا أستثني منهم أحدا حتى نوري السعيد • وقد ضمت وزارته بصورة خاصة نسبة لا بأس بها من الشبان ، أمثال ابراهيم كمال ، الذي كان يبشر بمستقبل باهر •

أما مواضع الضعف ، فقد كانت تكمن في طبائع الملك الشاب غازي ، وعدم استقرار نوري السعيد حين يكون خارج الحكم ، ونفقات البلاد المتزايدة ، وخاصة في انشاء السكك الحديد •

كانت طبائع الملك غازي مشكلة ليس لها حل ظاهر • وكان يجيد التحدث بالانكليزية ــ فقد درس في هارو ــ ولم تخل تصرفاته من

الجاذبية التي اتصف بها والده فيصل • ولكنه كان ضعيفا ومترجرجا ، وكانت نزواته ـ مضافة الى اختياره أصدقاءه من الضباط الشبان الطائشين وحتى من بين خدمه في القصر ـ قد جعلت السيطرة عليه مستحيلة ، والتأثير فيه عسيرا ، كما جعلت منه خطرا على الجميع ، وخاصة على نفسه • وكانت هوايته المعقولة الوحيدة هي الطيران ، وهو موضوع له به المام صحيح ، ويلذ له التحدث فيه • وكان يمتلك في مطاره الخاص على بعد أميال قليلة شمالي بغداد عدة طيارات خاصة، ويجيد قيادتها بنفسه • وكان شديد الكلف بذلك على الرغم من التعليمات الدائمة التي تمنعه عن قيادتها •

وكنت أزوره في فترات معينة للتحدث عن الشؤون العراقية والعالمية بصورة عامة • وقد قمت بهذا مدة من الزمن دون تدخل من أحد ، ولكنني في أحد الايام وجدت وكيل وزير الخارجية [١] مع الملك دون أن يظهر منه ما يدل على نية الانسحاب • وهكذا انتفى الغرض من زيارتي ، أو كاد • وانتهزت فرصة قريبة للاعراب عن تذمري من ذلك ، كما عرضت الامر في الوقت نفسه على وزارة الخارجية (البريطانية) لاعتقادي أن مقابلة رئيس الدولة شخصيا هو حق طبيعي يتمتع به السفير •

على أن وزارة الخارجية لم تضللني ، فان مقابلة الملك ليست حقا طبيعيا ، واذا وافق رئيس الدولة على تحديد موعد لها ، فمن حق وزير الخارجية أن يحضرها • ومع ذلك ، فان توفيق السويدي ـ وهو وزير

---

(١) هو المرحوم عباس مهدي الذي كان وزيرا للعدلية .
(المترجم)

الخارجية الذي كان غائبا في لندن لحضور مؤتمر فلسطين خلال الفترة التي أقحم فيها وكيله نفسه في مقابلاتي ــ بما جبل عليــه من ادراك سليم، قبل بوجهة نظري قبل وصول ذلك الجواب، واستأنفت مقابلاتي مع الملك غازي على انفراد •

بالاضافة الى هذه الزيارات بذلت أقصى جهدي لاخراج الملك غازي من تلك الحلقة الضيقة التافهة من الاصدقاء الذين أحاط نفسه بهم • وكان كثير الاحجام عن الظهور في الاماكن والمناسبات العامة ، ولم يفعل الا في أندر الاحوال • ولكنني اذ سمعت أنه مارس لعبــة « التنس » زمنا ، ألححت عليه مرارا أن يأتي ليلعبها في السفارة ،حيث كانت عندي ساحتان • وأخيرا جاء ولعب أربع لعبــات أو خمسا من التنس المزدوج ، وتناول الشاي وغادر بنفسية مرحة • ولكن علامات عدم الرضى التي ارتسمت على وجوه الضباط والموظفين الصغار الذين رافقوه دلتني على صعوبة تكرار التجربة • وفي الواقع تملص الملك مني على الدوام كلما حاولت دعوته مرة أخرى •

وكان بين أعضاء العائلة المالكة ــ الى جانب ولي العهد الطفل ــ اثنان من الذكور ، أحدهما الأمير زيد ، وقلما وجد في بغداد ، اذ كان يقضي أغلب الوقت في تركية ، حيث تزوج ، والآخر الامير عبد الاله ، ابن عم الملك غازي ، وكان يقيم في بغداد اقامة دائمة ، وان لم يكتسب الجنسية العراقية ــ فيما أظن ــ حتى أصبح وصيا على العرش • وكان نحيف الجسم وفي تصرفاته مظهر مجامل جذاب • وكان ولعه الأكبــر بسباق الخيل والرياضة ، وشجاعته الشخصية لا شك فيهــا ، وقــد أظهرتها ــ حتى قبل أحداث سنة ١٩٤١ ــ السرعة التي رفض بها أن

ترهبه ، وشجب ، مؤامرة عسكرية في أوائل سنة ١٩٣٦ •

ولما حدثت أزمة ميونيخ في أيلول سنة ١٩٣٨ كنت في اجـازة في بلادي ، وكنت قد شرعت في رمي صنارتي في حفافي نهـر التيث حين صدرت التعليمات الى جميع الدبلوماسيين بالعودة الى مراكـزهم • واستصحبت معي في هذه المرة ــ بعد أن اجتزت حر صيف العـراق الفظيع ــ زوجي وأصغر أبنائي في الرحلة الطويلة بقطار الشرق السريع• وفي مرورنا بايطاليا ، سمعنا بالتسوية التي جلبت لي على الأقل شيئـا من الاطمئنان ، أو حتى شيئا من الراحة المؤقتة • وربما كان لتشمبرلين حجة قوية لو استند الى عدم استعدادنا • ولكن فكـرة « السلم في زماننا » جعلته على رأس الحالمين •

وكانت مشاغل القوة الجوية في هذه المرة أكبر من أن تسمـح بتخصيص طائرة تستقبلنا في حلب ، فواصلنا السفر الى « تل كوجك » على الحدود السورية ــ العراقية ، ولم تمد السكة الحديد دونهـا في ذلك الوقت • ومنها سافرنا الى الموصل بالسيارة حيث استقبلتنا القوة الجوية أخيرا •

وبالرغم من أن جو الصيف المضطرب كان بسبيل الزوال عندمـا حللنا في بغداد ، فان عاصمة العراق ليست بالضبط مكانا صحيا في أي وقت ، وهي بصورة خاصة مضنية للقادمين حديثا ومحرجة • فالمـرض يميل الى اصابة المرء في أوقات غير مناسبة • وانني لأذكر جليا دعـوة عشاء أقمناها لاعضاء الوزارة العراقية سقطت خلالها على المائدة باصابة ظهر أنها ليست سوى التيفوئيد ــ بالرغم من جميع التلقيحات ضدها ــ أما زوجتي ــ على الجهة المقابلة من المائدة ــ فقد أصيبت بمـرض

مستوطن أقل خطورة ، ولكنه أكثر احراجا ، فاضطرت الى الانسحاب نهائيا •

وبعد ذلك بثلاث سنوات ــ وبعد الثورة المؤيدة للمحور في سنة ١٩٤١ ــ كانت بعض الأوساط الصحفية في انكلترا حريصة أن تذهب الى أن خبرتي في الشؤون الشرقية لم تكن كافية لارسالي الى العراق ، بل أن أعمالي هناك قد قوّت النفوذ الالماني • وأشار كاتب عديم الشعور بالمسؤولية بصورة خاصة الى دعوة امتنعت خلالها عن الكلام بصورة فظة مما أثار استياء كان في محله • ولعلها كانت تلك الدعوة •

تلك الاصابة بالتيفوئيد ــ التي تركتني طريح الفراش حتى شهر تشرين الثاني ــ كانت لها نتائج مصيرية • اذ انني كنت عاجزا في الفراش حين تلقيت سرا رسالة خطية من نوري السعيد تشير أن ذلك الدماغ الذي لا يقر له قرار يدبر اضطرابا • فأرسلت جوابا التمسته فيه الا يحاول اعادة عنصر القوة والعنف الى السياسة العراقية في وقت تحكم فيه البلاد حكما صالحا ، وحيث ليست هنالك نزاعات مهمة مع بريطانية ، أكثر من ذلك النزاع الدائم ، وهو قضية فلسطين •

ولم أتسلم جوابا عن رسالتي هذه ، كما أن نوري نفسه انسحب الى مصر مرة أخرى ، غير أنه ــ فيما يظهر ــ واصل محاولاته من هناك باندفاع لا هوادة فيه • وقد رافقت الاسابيع الاولى لشهر كانون الثاني شائعات متزايدة عن وجود خلاف بين بعض قواد الجيش العراقي ووزير الدفاع ، وهو موظف شاب رقّي مؤخرا الى مرتبة الوزراء [١]•

---

(١) هو المرحوم صبيح نجيب

(المترجم)

وفي صباح عيد الميلاد أخبرني المستر هيوستن بوزويل ، مستشـار السفارة ، أنه رأى قطعات من معسكر الرشيد في مشارف بغداد ــ قاعدتنا القديمة التي كانت تعرف باسم « الهنيدي » ــ وهي تعبـر دجلة لتسيطر على المطار المدني والضفة الغربية • وما ان حل المسـاء حتى علم أن حكومة جميل المدفعي تواجه ثورة عسكرية ، وانهـا اذ عجزت عن الحصول على تأييد الملك غازي ، أو حتى توضيح موقفه ، فقد استقالت ، وأن نوري سيستدعى من مصر لتأليـف الحكومـة الجديدة •

ان عودة نوري الى الحكم لم تكن في حد ذاتها حادثة تثير القلق في لندن ، فقد كان رئيس الوزراء الجديد رفيق لورنس في السلاح ، ومؤيدا مخلصا للعلاقات مع بريطانية • وكان معروفا أكثر من غيره ، بل انه كان السياسي العراقي الوحيد المعروف في لندن ــ باستثنـاء توفيق السويدي الذي زار انكلترة مؤخرا للاشتـراك في مؤتمـر فلسطين ــ وقد جعلته معرفته للغة الانكليزية ، وطبعه البسيط المحبوب وسيلة اتصال مريحة للمثل البريطاني في بغداد •

على أن ظهور نوري مرة أخرى كانت له جوانب عديدة ، بدت لي مدعاة للقلق • وأولها أن عودته الى الحكم أعادت الجيش العراقي الى السياسة ، وكان من مصلحة الجميع ان يبقى بعيدا عنها • وثانيها أن روحية الانتقام والتعطش للدماء ، وكوامن الاحقاد والضغائن التي أوجدتها فترة بكر صدقي ، وخاصة مقتل جعفر ، والتي حاولت جميل المدفعي تهدئتها بغير قليل من النجاح ، كانت ستثار مجددا على أشدها • وثالثا كان قد امتزج بطبع نوري مؤخرا ــ مع كثير من المزايا التي تستوجب

الاعجاب ــ شيء من عدم الاستقرار كنت أعرفه أنا فقط • وكان ذلك في حد ذاته مبعثا لعدم الاطمئنان •

وانني لأستشهد فيما يتعلق بأولى هذه النقــاط ، بعودة طــه الهاشمي ، شقيق يسين الى الحكم مع نوري ، حيث قدر له ، وهــو وزير الدفاع،أن يكون النجم الهادي للجيش العراقي للسنتين التاليتين• وطه رجل أحمق أشبه بالثور ، لم تمتد بصيرته الى أكثر من اعجــاب كلي بقوة المانية العسكرية ، والى التشوق للاسلحة الالمانية • وقد كان، وهو في بغداد ، الطرف الثاني لمؤامرة نوري • وكان قبل ذلك ، وهو رئيس لجمعية الدفاع عن فلسطين ، مبعث شغب كبير جــدا أثير في بغداد على بريطانية بسبب قضية فلسطين •

وقد ألححت على اقالته من هذا المنصب الاخير،ونجحت في ذلك•

ان مؤامرة صغيرة في الجيش موجهة ضد الامير عبد الالــه [1] ــ الوصي الحالي على عرش العراق ــ جعلت نوري بعد تسنمه رئاسة الوزارة ببضعة أسابيع يسدد ضربة الى أحد خصومه القدماء • فقــد أقحم حكمت سليمان ــ وهو رئيس وزراء سابق ــ في القضية بأوهى الأدلة ، وحكم عليه بالاعدام فعلا • وبعد نقاش طويل استحصلت من نوري عهدا بعدم تنفيذ الحكم ، ولكنني لست متأكدا حتى هذا اليوم

---

(١) المعروف ان الجهات الرسمية التي اعلنت عن وجــود هــذه المؤامرة وصفتها بأنها كانت موجهة ضد الملك غازي ، لا عبد الاله ، الذي قيل انه فوتح بأمرها من قبل أحد المتآمرين ، وان القصد منها كان قتل الملك غازي وتنصيب عبد الآله بمكانه . (انظر ــ مثلا ــ : السيد عبد الرزاق الحسني ، تاريخ الوزارات العراقيــة ، ج٥ ، ص ٦٣ ــ ٧١ ، صيدا ، سنة ١٩٦٦)

(المترجم)

الى أي حد كان نوري مترددا في قبول هذا التدخل من جانبي •

وفي الاشهر الثلاثة التي بقيت لي من مدة خدمتي في العـراق زودني نوري باستمرار بمادة غزيرة للتفكير،اذ كان يطلع علينا بمشروع بعد آخر • وأذكر أن أحد تلك المشروعات كان تجهيز قوة عراقيـة خاصة ترسل حملة الى مصر في حالة وقوع الحرب • وقد ماتت هـذه الفكرة لتهافتها • وآخر ، أكثر خطورة ، هو قبول عرض من الحكومة الالمانية ــ قدم بواسطة احدى المؤسسات الالمانية ــ لتزويد المـال والتجهيزات اللازمة لانشاء كلية صناعية فنية في بغداد • واعتقد أن نوري نفسه كانت تخامره بعض الشكوك من أمر هذا العرض ، ولكن عددا من زملائه ، ومنهم ناجي شوكت بصورة خاصة ، كانوا مؤيدين له • وفي الأخير ضمنت رفضه • ولكنني ــ زيادة في التأكد ــ لجأت الى سخاء اللورد « كادمان » وشركة النفط والى تعاونهما لتقديم عرض مماثل من مصادر بريطانية • وقد تم قبول هذا العرض •

كانت أزمة ميونيخ قد جعلتنا أكثر ادراكا لخطر النفوذ الالماني • وفي تلك الفترة تقريبا تلقيت ــ بناء على توصية صريحة متباهيـة من وزير المانيا المفوض الدكتور غروبا ــ زيارة من الفون هنتنك ، وهو شخصية جذابة ولكنها خطرة ، وهو « وازموس » (1) الحرب العالمية الثانية • ولكنه مع ذلك كان طائرا عابرا • ومن بين الضيوف الالمان الذين هم أكثر دواما،ضمنت أبعاد الاثنين اللذين ظهرا لي أكثرهم خطرا،

---

(1) من اشهر رجال الاستخبارات الالمانية في الحرب العالمية الاولى، وكان له دور كبير في قضية سكة حديد برلين ــ بغداد

(المترجم)

وأحدهما آثاري شهير كان مديرا لمتحف بغداد لفترة من الزمن [1] ، والآخر كان يدعي أنه تاجر متجول [2] ، وكان قد استغل بصورة خاصة مجتمع كبار الضباط في الجيش العراقي •

أما في حالة غروبا وزوجته فقد كنت مغلول اليدين ، ولم يكن في وسعي أن أفعل أكثر من تحذير العراقيين وأفراد جاليتي ، وهو تحذير كنت أكرره في كل مناسبة ممكنة • وكان الدكتور غـروبا وزوجـه حريصين على أن يظهرا بريطانيين أكثر من البريطانيين أنفسهم في كل نشاط تقوم به الجالية الاجنبية • وكان جسم « الهر دوكتور » القصير المكتنز ، بكسوته المناسبة ، يطلع علينا بانتظام في اجتماعات الصيـد التي كانت تطارد بنات آوى بدلا من الثعالب ، عبر رمال الصحـراء المحيطة ببغداد او الحبانية • وفي الكنيسة الانكليزية التي انشئـت تذكارا للحرب الكبرى ، كانا يجلسان في المقعد المجـاور لمقعـدي ، والارغن البديع الذي في الكنيسة كان هدية من الجالية الالمانية •وكان نشاط زوجة الوزير الالماني ، في نظري ، أكثر شرا من نشاطه هو ، لانه كان أقل ظهورا للعيان • ان « فراو غروبا » التي كانت تشق طريقها ، وهي تعرج ، الى بيت كل بريطاني تقريبا بانتظام ، والى جانب سرير

---

(١) يريد الدكتور يوردان (انظر مذكرات غروبا ص ١٣٩ و ١٤١ من هذا الكتاب) .

(المترجم)

(٢) لعله يقصد الكابتن « مورلوك » ممثل شركة « راين ميتال ــ بورزيك » الذي ذهب البعض (ومنهم مجيد خدوري ، ص ١٧٣) الى أنه جاء بغداد لتدريب الضباط العراقيين على استعمال الاسلحة الالمانية، منتحلا تلك الصفة ، بينما يؤكد غروبا أنه كان فعلا موظفا في تلك الشركة.

(المترجم)

كل مريض بريطاني في بغداد ، وكان اختصاصها جمع الشائعات التي تؤثر في الجالية البريطانية ونقلها ـ بعد التـزويق الضروري ـ الى الاوساط العراقية المناسبة التي يمكن الاساءة الى علاقاتها بالبريطانيين .

وفي مطلع سنة ١٩٣٩ بدا لي أن غروبا أخذ يرفع القناع . على انني أذكر مع ذلك انه فاجأني ـ خلال زيارة توديع رسميـة كنـت أؤديها له بمناسبة نقلي الى اسبانيا ـ حين تفضل علي بمعلومات تفيد أنه ليس من المحتمل أن يبدي هتلر معارضة في عودة الملك آلفونسو . وقد قلت في نفسي لا بد وان الاسبان قد تغيروا كل التغـير خـلال السنوات الثماني الاخيرة التي مضت على آخر عهدي بهم اذا أبدوا استعددادا للانقياد لهتلر في أمر كهذا .

وكنت سأجد أن كثيرا من الاسبان قد تغيروا هكذا فعلا .

ومن أسعد أيامي في العراق ، تلك التي قضيتها ضيفا على قيادة القوة الجوية (نائب ماريشال الجو كورتني ومن بعده خلفه ماريشال الجو تيسن) في قاعدة الحبانية العظيمة .

ان هذه المدينة الحقيقية التي أنشأناها وسط الصحراء لقاء نفقات باهظة ، وفق أحكام المعاهدة مع العراق ، تقع على الضفة الغربية من نهر الفرات ، على بعد ستين ميلا غربي بغداد .

ويمكن قطع المسافة بالطائرة طبعـا بين عشرين دقيقـة ونصف الساعة ، بحسب نوع الطائرة . أما الطريق المألوفة بالسيارة ، فيمكن قطع العشرين ميلا الاولى منها من بغداد على طريق جيدة مفروشـة بالحصى ، ثم تنطلق السيارة عبر الصحراء سالكة احدى الطرق العديدة التي شقتها السيارات . واذا استبعد احتمال سقوط مطر غـزير أو

حدوث خلل في السيارة ـ اذ أن أيا منهما يترك المسافر حائرا حتى وصول سيارة أخرى أسعد حظا ـ فانه يمكن قطع مسافة لا بأس بها عبر الصحراء بسرعة • وتستطيع سيارة جيدة أن تقطع المسافة كلها ـ عابرة على الفرات جسر « الفلوجة » (وهي كالحبانية كانت مسرحا للقتال في سنة ١٩٤١) بزهاء خمس وسبعين دقيقة • وليس هنالك في الواقع مشاهد كثيرة تفوق في غرابتها وطرافتها منظر سيارة فوردقديمة تكدس فيها ثمانية أو تسعة من الاعراب ، اضافة الى أمتعتهم ، وهي تقطع الصحراء القاحلة بسرعة خمسين ميلا في الساعة ، مثيرة وراءها ذيلا طويلا من الغبار المتصاعد الذي يبدو من بعيد وكأنه قافلة طويلة تسير •

وقد غرزت بنا السيارة مرة عندما كنت أقوم بهذه الرحلة ،وكانت سيارة فورد خفيفة ذات ثمانية سلندرات ، حتى سحبنا جماعة من العمال كانوا يعملون في تعبيد احدى الطرق على الجهة الاخرى من جسر الفلوجة • وفي مناسبة أخرى بينما كنت مع جورج لويد في طريقنا الى الحبانية لتقديم احتراماتنا للورد آثلون وزوجته ـ حيث كانا يقضيان ليلة في القاعدة الجوية في عودتهما من زيارتهما لابن سعود ـ واذا بسيارتنا تشب فيها النار بسبب الحرارة الصادرة عن « الانبوب العادم » [1] وتنتقل الى مقاعد السيارة • فوثبنا ، أنا ولويد ، كل من الباب المجاور له ، واشتركنا مع سائقي من القوة الجوية الملكية في سحب مقاعد السيارة الى الخارج • ولم تكن النار ـ لحسن الحظ ـ قد امتدت ، فاستطعنا ان نطفىء أغلفة المقاعد مستعينين بماء بركة آسنة قريبة ، بين النظرات الساخرة للصبي العربي الذي لا بد منه ،

---

(١) Exhaust-pipe.

والذي ظهر وسط الصحراء من حيث لا نعلم •

والحبانية نفسها ــ وقد تغير اسمها ابان مقامي في بغداد ، وكان قديما « الذبان » [1] أي « محل الذباب » ــ منطقة محدودة ومسورة ومحروسة • وهي قسمان : « المطار » ، وأوكار القوة الجوية ومساكن منتسبيها • « والمعسكر العربي » الذي يحتوي على مساكن المستخدمين المحليين وعوائلهم ، وكذلك مساكن الجيش الكبير من العمال المستخدمين هناك ما دامت عمليات البناء • ان فترة البناء كانت فترة رخاء فوق أحلام الطامعين ، بالنسبة الى قبائل الفرات الاوسط المجاورة، والدليم بصورة خاصة (وهي العشيرة التي ظهر منها في شخص « الجوكي » منفي نظير « غوردون ريجاردز » في نادي سباق بغداد) الى حد أن العرب هناك اضطروا ان يلتمسوا العزاء في الاسطورة التي تقول ان الفرات سيغير مجراه ، ويترك المعسكر الكبير على الضفة الشرقية • ولما كان المعسكر يجب ان يقوم على غرب النهر بموجب المعاهدة ، فان أعمال البناء ستبدأ كلها مجددا •

وعلى أي حال ، فقد تجدر بنا الاشارة الى أن هذه الاسطورة ليست بعيدة التحقيق كما يبدو ، لأن الفيضانات السنوية على الفرات، كما هي على دجلة ، لا تؤدي الى أضرار زراعية فقط ، ولكنها كثيرا ما تهدد السدود التي تحفظ مجرى النهر • ولما كانت هذه السدود ــ كما هي الحالة الآن ــ مرهونة بما ترئيه الحكومة العراقية من صيانة، فان سلامة المعسكر نفسه كانت مهددة أكثر من مرة •

---

(١) كان الاسم : « سن الذبان »

(المترجم)

وعلى غير بعيد من المعسكر ، تقع بحيرة « الحبانية » التي كانت تنزل فيها الطائرات المائية للخطوط الجوية الامبراطورية . والبحيرة كذلك مركز النشاط المائي للقوة الجوية البريطانية الذي يبلغ أوجه في سباق زوارق سنوي ، ذلك النشاط الذي يبعث الحياة ويبدد رتابتها وسط الصحراء . والى جانب ذلك يوجد الصيد وركوب الخيل وكرة القدم بنوعيها ، والكريكت والكولف (الرملي) وأحواض السباحة . وفي حالة المرض يستطيع أعضاء القوة الجوية البريطانية الاعتماد على قاعات العمليات وردهات المستشفى ، وهي جميعا عصرية ، وفيها أجهزة لتكييف الهواء في أشهر القيظ .

ولما تغيرت الحكومة في كانون الاول سنة ١٩٣٨ كانت حالة العراق المالية قد أصبحت تدعو الى القلق . وكانت تخمينات الميزانية السنوية للبلاد في حدود خمسة ملايين باون استرليني او ستة ملايين . وكان نصف هذا المبلغ او ٤٠ بالمائة منه يغطى من العوائد الناجمة عن حقول النفط التي حوالي كركوك ، والتي تستغلها المجموعة الدولية : «شركة النفط العراقية » . وقليل من الحكومات كانت تتمتع بمثل هذا الوضع المالي الحسن نسبيا ، ولكن ما أنفق على انشاء السكك الحديد في سنة ١٩٣٨ — ١٩٣٩ ، ولا سيما اكمال الخط من حدود سورية في تل كوجك في الشمال ومنها الى بغداد ، فرض على موارد الدولة أعباء ثقيلة . ولم يكن في وسع المستشار المالي البريطاني « مستر هوك » ولا في وسعي أن نبقى ساكتين تجاه هذا . ان مجيء حكومة نوري خفف هذا من جهة واحدة ، لأن نوري وضع في وزارة المالية رستم حيدر ، وهو من أكثر الساسة الذين رأيتهم في العراق كفاية واستقامة . وكان رستم

حيدر ، وهو سوري المولد ، من النفر الأوائل المتآمرين على الاتراك ممن كانوا يحيطون بفيصل في الحرب العالمية الاولى • وكان تاريخه السياسي في العراق منذ ذلك الوقت عبارة عن هبوط وصعود متعاقبين، بسبب التحيز الذي عرّضه له أصله السوري• ولا شك أن هذا التحيز نفسه هو الذي أسقطه بعد سنة أو قرابة السنة قتيلا برصاصة المغتال •

كان رستم حيدر مصمما ، ومصمما على حق ، أن يحد من النفقات المتزايدة • ولكنه أيضا كان يميل الى القاء المسؤولية على عاتق الموظفين البريطانيين المعنيين • وقد أثر في نوري في هذا الشأن • وكان بين هؤلاء المستر هوك يقارب نهاية العقد الذي عين بموجبه جميع الموظفين البريطانيين في الحكومة العراقية منذ المعاهدة • ولكن السر جون وارد الذي تبقت من مدته سنتان او ثلاث سنوات ، والذي أضيفت الى وظيفته الاصلية « مدير الموانيء والانارة » وظيفة المدير العام للسكك الحديد العراقية ــ كان لا يزال في غمرة العمل ، ولم يكن الاستغناء عنه يسيرا • وليس هنالك انكليزي كان له دور أكبر من السر جون في تكوين العراق الحديث • وقد أنشأ خلال خدمته في ميناء البصرة وفي شط العرب بصورة خاصة ، اضافة الى منجزاته الاخرى ، مطارا مدنيا من الطراز الاول في البصرة افتتحه الملك غازي في ربيع سنة ١٩٣٨ • ولكن عيوب وارد كانت تكمن في مزاياه • فقد كان ــ وهو ممتليء نشاطا ، لا يضن بنفسه ولا بالآخرين ــ بعيدا عن السخاء مع الذين يعملون في امرته • وفي الامور المالية كان أميل الى المضي قدما بغض النظر عن الكلفة ، تاركا لغيره تسديد الحساب •

وفي أمور التخمينات لم أعرف من يصعب حمله على مواجهة

الواقع مثله . وأذكر ، كمثال على تفاؤله الذي لا يعالج ، كيف انطلق الى مكتبي ذات صباح ــ في عنفوان الخلاف ، وحين كان مصيره معلقا بخيط واه ــ وهو يحمل مخططا لمحطة قطار جديدة لمدينة بغداد ، تكلف ما لا يعلمه الا الله . وقد نصحته أنه مهما أراد أن يفعل ، الا يعرض الامر على نوري .

ولكن ذلك هو ما قام به بالضبط .

وهكذا كا نأن كرست الايام الاخيرة ــ بل الساعات الاخيرة ــ من خدمتي في بغداد لانقاذ رجلين : انقاذ حكمت سليمان ، وانقاذ جون وارد . وفي حالة وارد استطعت في النهاية أن أحمل نوري على الموافقة على أن يرسل اليه رسالة ، كنت قد أعددت مسودتها ، تبدي باختصار أن الحكومة العراقية قد علمت آسفة أنهقرر تحديد مدة معينة لخدمته في العراق ، وفي هذه الحالة وجدت نفسها مضطرة ان تطلب اليه وقف ما تبقّى من هذه المدة على عمله الرئيسي في ادارة الميناء واعماره .

وهكذا انتقلت ادارة السكك الى أيد أخرى .

ان عدم شعور الملك غازي التام بالمسؤولية قد ازداد بمجيء الحكم الجديد ، ولا سيما أن محطة اذاعته الخاصة في القصر ، والتي كانت مبعثا للقلق منذ مدة طويلة ، قد أصبحت لهجتها ضارة بصورة متزايدة ، وخاصة تجاه شيخ الكويت ، جار العراق الملاصق في رأس الخليج ، والحاكم الذي كانت صلته وثيقة بالحكومة البريطانية . ان الاتجاه الذي اتخذته الاذاعات هو أن الشيخ حاكم اقطاعي مستبد من طراز بال ، وأن حكمه المتأخر مناقض لنظام الحكم المستنير القائم في

العراق • ومفاد ذلك ان الكويت ستكون في وضع أفضل اذا اندمجت في جارتها الشمالية •

كان لا بد لمرسلات القصر ان تغلق ، ولكن أي حكومة من الحكومات العراقية المتعاقبة التي تعاملت معها لم تكن مستعدة للقيام بذلك ، زاعمة أنه سيجعل من الملك ضحية مبدأ ؛ على أن نوري مع ذلك اتخذ خطوة واحدة مفيدة حين وافق على فرض رقابة على المراسلات الخاصة المعنونة الى القصر • وكان المعروف أن هذه المراسلات تضمنت رسائل من المعجبين تداعب غرور الملك وتستفزه ، وكان من شأن ذلك زيادة عدم اتزانه وتقوية اللهجة الاستفزازية للاذاعات التي كان يشرف عليها شخصيا •

وكلما أثرت أمر هذه الاذاعات مع الملك أعرب عن الأسف ،ووعد بالاصلاح ، وتأتي فترة هدوء قصيرة ، ثم تبدأ بعدها حملة الدعاية مرة أخرى • وأخيرا ساهمت هذه في ثورة مبتسرة قامت في الكويت ، أزهقت فيها أرواح عدة أشخاص كان منهم الممثل الرئيسي للعراق • وقد أرعب ذلك الملك غازي ، وخف هذا الازعاج خلال أسابيعي القليلة الاخيرة • وكانت الطريقة التي اقترحها الملك غازي لاصلاح الموقف أنموذجا لداء الشعور بالعظمة الذي كان فيه ، وهي أن يقوم شيخ الكويت بزيارة بغداد ، حيث قد يمكن التوفيق وتسوية الموقف•وبذلك يظهر الشيخ في دور التابع له والمعتمد عليه ـ ولم يعر هذا الاقتراح أي تشجيع •

ان عودة نوري الى الحكم كان من شأنها جلب تأثير شرير سيء آخر الى الزمرة الفاسدة في القصر • فان رشيد عالي الكيلاني ،

ذا الصيت السيء ــ وهو محام وسياسي من بغداد قاد فيما بعد حركة سنة ١٩٤١ المؤيدة للمحور ــ كان متقاعدا عن العمل خلال سنة ١٩٣٨، فجعله نوري رئيسا للديوان الملكي ، أي بمثابة السكرتير الخاص للملك غازي • وانني اذ كنت أعرف سمعة رشيد عالي التي لا يحسد عليها ، حتى بين مواطنيه ، في الدسائس وعدم النزاهة ، لم أتأخر في معاتبة نوري على هذا التعيين الجديد • وقد أجاب نوري أنه يريد وضع رشيد عالي تحت بصره ، وان البديل الوحيد لتعيينه في البلاط هو اعطاؤه كرسيا وزاريا ، وسألني : هل أفضل ذلك الحل ؟

انني لم أفضل ذلك • ولكن وضع البلاط كان من السوء بحيث لا يمكن اساءته أكثر ، وربما كان قصد نوري أن تبلغ الامور درجة من السوء تحتم التدخل البريطاني • ولكن المشكلة أن جميع الحلول التي بدت له او لي كانت تحمل صعوبات توازي في خطورتها ــ تقريبا ان لم يكن بالضبط ــ الحالة القائمة •

وقد أصبح من الواضح أن الملك غازي يجب أن يسيطر عليه أو يخلع • وقد لمّحت الى هذا كله في زيارة توديع قمت بها للامير عبد الاله ، الوصي الحالي • ان الحل ــ لو كنت أعلم ــ كان سيأتي بعد شهر واحد فقط • وقد كنت جالسا في فندق « كوندستابل » في « بورغوس » حين أخبرني صحفي انكليزي ان الملك غازي كان في سيارة السباق التي يقودها بنفسه كالعادة ، وانه اصطدم بعمود برق وقتل • حياة يرثى لها انتهت بصورة يرثى لها •

وحاولت الدعاية الالمانية ان تحمّلنا مسؤولية قتله • وكانت بغداد في اضطراب لعدة أيام • وقتل الغوغاء في الموصل القنصل البريطاني

فيها . وقد كنت أرقب هذه التطورات بقلق زاده أنني كنت قد تركت زوجي وولدي في بغداد لتدبير دار السفارة بانتظار وصول خلفي ، وكذلك لتوفير المحل الوحيد الممكن لنزول اللورد آثلون وزوجه في بغداد ، بطريقهما الى ايران لحضور الزفاف الملكي .

* * *

ردّ نوري السّعيد

على مذكرات بيترسن

... أما ما أورده المؤلف من الامور التي تتعلق بشخصي ، فانني أبسط الحقائق التالية ، لبيان مبلغه من الصحة :

انني كنت قد غادرت العراق في أواخر تشرين الاول سنة ١٩٣٦ ، ثم عدت اليه في تشرين الاول سنة ١٩٣٨ .

وكان فخامة السيد جميل المدفعي حينئذ رئيسا للوزارة ، ففاتحني في شأن انضمامي الى الوفد العراقي الذي كان من المقرر أن يسافر الى لندن برئاسة فخامة السيد توفيق السويدي ــ وزير الخارجية حينئذ ــ لحضور مؤتمر الطاولة المستديرة بشأن فلسطين .

وقد وافقت على الانضمام الى الوفد ، وتوجهت الى مصر في أواخر تشرين الاول سنة ١٩٣٨ ، استعدادا لحضور المؤتمر الذي تقرر ان تعقده وفود الدول العربية في مصر لتوحيد خطتها قبل سفرها الى لندن . وبعد أن بقيت في مصر بضعة أسابيع ، وردتني برقية من فخامة السويدي بواسطة المفوضية العراقية في القاهرة ، يخبرني فيها بأنه قد تقرر صرف النظر عن اشتراكي في الوفد ، وبأن في امكاني العودة الى العراق ، فعدت الى بغداد .

وفي أواخر الشهر المذكور تكتل بعض ضباط الجيش ، وراجعوا صاحب الجلالة المغفور له الملك غازي ، مطالبين بتبديل الحكومة ، فاستدعاني جلالته في اليوم الثاني بحضور سمو الامير زيد والامير حسين الناصر ، وعهد الي بتأليف وزارة جديدة . وقد سألت جلالته :

هل ان أمر جلالته صادر تمشيا مع رغبة الضباط ، أم عن رغبة من جلالته ؟ فأجابني بأن فخامة المدفعي قد استقال من منصبه ، وأن جلالته يرغب في قيامي بتأليف الوزارة الجديدة بشرط أن لا يشترك فيها رشيد عالي الذي كان حينئذ خارج بغداد [١] .

فصدعت بأمر جلالته وألفت الوزارة ، وكان من ضمن أعضائها : السادة ناجي شوكت ، والمرحوم رستم حيدر ، وطه الهاشمي ، وصالح جبر ، وعمر نظمي ، ومحمود صبحي الدفتري .

وبالنظر الى ضرورة سفري الى لندن لحضور مؤتمر الطاولة المستديرة ، بادرت الى مغادرة العراق بعد تأليف الوزارة ببضعة أيام ، وبينما كنت في لندن احطت علما بتعيين السيد رشيد عالي في منصب

(١) يروي صلاح الدين الصباغ في مذكراته محادثة تلفونية له مع الملك غازي على اثر استقالة جميل المدفعي :

الملك غازي ـ سأقبل الاستقالة يا صلاح الدين بشرط ان لا يأتي نوري بعده ، وانا أوافق على اسناد الوزارة لأي رئيس باستثناء نوري .

صلاح الدين الصباغ ـ لكن نوري هو المطلوب يا سيدي بعد أن رفض طه (الهاشمي) رئاسة الوزارة . (صلاح الدين الصباغ « فرسان العروبة في العراق » ١٩٥٦ ، ص ٩٥)

ويذكر الصباغ فيموضع آخر ان الجيش اراد انيؤلف طه الهاشمي الوزارة ، الا انه رفض ، واصر على ان يطلب الى نوري السعيد تأليفها ، ويقول : « وكان نزولا عند ارادته (ارادة طه الهاشمي) اننا ارغمنا غازي على استيزار نوري » (المصدر السابق ص ٩٧) اما طه الهاشمي ، فيقول في مذكراته ما يأتي : « ... اخبرني حسين فوزي (رئيس اركان الجيش) بالتلفون في ساعة متأخرة بأن الوزارة قد استقالت ، وان البلاط يطلب منه أن يذكر اسم الشخص الذي يتقلد رئاسة الوزارة . فقلت : أمتنع عن ذكر الشخص ، واترك ذلك لشخص الملك . وكان نوري حاضرا يسمع المخابرة . » (طه الهاشمي ، المذكرات، بيروت، ١٩٦٧، ص ٢٩٦ و٢٩٨) (المترجم)

رئاسة الديوان الملكي •

وفي أواخر شباط تسلمت من بغداد برقية رمزية يطلب فيها مني العودة الى بغداد بالنظر الى اكتشاف مؤامرة ، حاول القيام بها بعض ضباط الجيش• وقد ظل خبر المؤامرة مكتوما بين المغفور له الملك غازي وسمو الامير عبد الآله والسيد طه الهاشمي وزير الدفاع حينئذ الى تاريخ عودتي الى بغداد في أوائل مارت ١٩٣٩ (١)

ان مؤلف الكتاب كان قد عين سفيرا لحكومته في العراق ،وحضر الى بغداد في اواسط مارت ١٩٣٨ ، وبالنظر الى تواريخ تغيبي عن العراق التي بسطتها فيما تقدم يظهر جليا انه لم تكن أمامي فرصة كافية للتعرف والاتصال ببيترسون وكل ما اتخطره عنه هو انني تعرفت به في خلال الفترة التي ألفت فيها الوزارة ، ولم تطل اقامته ببغداد بعد عودتي اليها من لندن ، لأن حكومته نقلته الى منصب السفارة في اسبانيا حيث لم يلبث الا بضعة أشهر حتى نقل الى منصب آخر •

وانني لا أزال أذكر أنني تساءلت حينئذ عن الاسباب التي استوجبت نقل سفير من سفارة الى أخرى بمثل هذه السرعة خلافا للتقاليد المعروفة عن وزارة الخارجية البريطانية •

ثانيا ــ ان من شأن الحقائق التالية أن تنير بعض النقاط التي

(١) دون طه الهاشمي في مذكراته في يوم ٢٦ شباط ١٩٣٩ ما يأتي: « وردت برقية من لندن تخبر بأن نوري سافر من لندن بواسطة القارب الطيار الى العراق ، مع أن الحكومة طلبت اليه أن لا يستعجل في المجيء ، ليفيد قضية فلسطين في المؤتمر . ويظهر أنه غير قراره باصرار من الانكليز » . (المرجع السابق ص٣٠١) (المترجم)

بحثها المؤلف وتصحيحها :

١ ــ ان ما أورده المؤلف عني كان مستندا الى الانطباعات التي تلقاها عن بعض الاشخاص الذين اتصل بهم في خـلال مدة اقامتـه القصيرة في العراق ، وليس عن اتصاله بي اتصالا كافيا ، لأن فترات قصيرة كالفترات التي اتصل بي بيترسون في خلالها لا تكفي عـادة لتكوين رأي صحيح حول طبيعة الاشخاص واعمالهم •

٢ ــ انني لم احدث المؤلف حول تعيين رشيـد عالي لرئاسـة الديوان الملكي ، لأنني كنت في لندن عند تعيينه في المنصب المذكور •

٣ ــ لو كنت أهدف الى تغيير الحكومة بالأسلوب الذي زعمه المؤلف ، لما احتجت الى استشارته في الامر ، وهو يعترف بأن التغيير جرى خلافا لمشورته • وفضلا عن ذلك فأن موافقتي على الانضمـام الى الوفد المؤلف برئاسة توفيق السويدي للسفر الى لندن ومبادرتي الى السفر الى مصر وانتظاره فيها ينفيان ادعاء المؤلف بوجود مثل هذا الهدف •

٤ ــ انني اجزم جزما قاطعا أنه لم تجر أية مراسلة خصوصيـة بيني وبين المؤلف في أي موضوع طيلة مـدة وجوده في منصبـه في العـراق •

٥ ــ لما أوقف فخامة السيد حكمت سليمان قـابلني صـديقي المرحوم خالد سليمان وحادثني في شأنه ، وفارقني وهو مطمئن على أخيه ، وقد اخبرت زملائي بهذه المحادثة في حينها ، لذلك فانه لا صحة

البتة لما ادعاه المؤلف أو نسبه لنفسه في هذه القضية . [1]

٦ ـ ان تأسيس مدرسة صناعية كان قد بلغني من فخامة توفيق السويدي حينما كان وزيرا للخارجية في الوزارة المدفعية ، وذلك في خريف سنة ١٩٣٨ ـ وهي تلخص بأن هر غروبا الوزير الالماني المفوض كان مندفعا وراء فكرة تأسيس مدرسة صناعية في بغداد تمدها الحكومة الالمانية بالاساتذة وبعض الآلات والعدد على نفقتها ، وكان الغرض الكامن وراء تحقيق هذه الفكرة جعل المدرسة نواة لمؤسسة تخريبية لحساب الالمان .

ولما عدت من لندن بعد انتهاء مؤتمر الطاولة المستديرة ، وضعت ملف قضية هذه المدرسة على الرف،ولم يرفعه احد من مكانه بعد ذلك.

وبعد ايراد هذه الحقائق لا يسعني الا أن أميل الى الاعتقاد بأن مرض التيفوئيد هو الذي أربك آراء المؤلف ، وأفقدها تلك القيمة التي كنا نرجو أن تكون لها ليتيسر للقراء العراقيين ان ينتفعوا بما يمكن الانتفاع به منها .

(١) يروي عبد الرزاق الحسني ان السيد حكمت سليمان اكد له ان الحكومة البريطانية هي التي حالت دون اعدامه ، وذلك ان المستر لويد ، رئيس جمعية التمور العراقية ، كان في لندن بالاجازة ، فاوعزت حكومته اليه ان يبرق الى نوري السعيد ، بأن اصدقاءه من الانكليز لا يرتاحون الى اعدام حكمت . (ج ٥ ص ٧٠)

(المترجم)

ردّ طه الهاشمي

على مذكّرات بيترسن

لم أتسرع في الاجابة على ما كتبه عني السير موريس بيترسون السفير البريطاني الأسبق في كتابه (على جانبي الستار) قبل أن أقرأ كتـــابه •

يزعم المؤلف بأني كنت الطرف البغدادي في المؤامرة التيتخيلها. والحقيقة أنه ليس لي علم بهذه المؤامرة المزعومة ، ولم أشترك بهـــا • والحادث الذي وقع في نهاية سنة ١٩٣٨ أمره معلوم • ولا بـــد أن الذين شاهدوا وقائعه من رجال السياسة والعسكريين الأحياء قد ثبتوا تلك الوقائع ، فأجّلوا نشرها الى فرصة مناسبة •

يذكر المؤلف أنه سعى كثيرا في ابعـــادي من رئاســـة جمعيـــة فلسطين ، ويتبجح بأنه نجح في ذلك • أما الواقع فأني لم أستقل من رئاسة تلك الجمعية الا بعد أن أصبحت وزيرا للدفاع • ويلوح لي أنه حاول كثيرا أن يقصيني من رئاسة الجمعية ، ولعل الحـــادث الـــذي سأذكره فيما يلي يدل على تلك المحاولة • وتفصيل خبره : أن شابا مسيحيا من الموصل راجعني حينما كنت رئيسا للجمعية ، وطلب الي أن أتوسط في ارساله مجاهدا الى فلسطين ، فقلت له : ان الجمعيـــة لا تبعث المجاهدين الى فلسطين ، لأن مهمتها جمع المال للمنكوبين من أهل فلسطين • ولما لم يقتنع بهذا الجواب ، أتى الى مركز الجمعية في يوم اجتماع هيئتها الادارية ، وكرر الطلب • فأجيب بما قلت له قبلا • وبعد بضعة أيام ، راجعني مرة ثانية ، والتمس مني أن أتوسط في تعيينه

موظفا ، وادعى بأنه متخرج من مدرسة الصنائع • فقلت له : ان وزارة الدفاع نشرت في الجرائد حاجتها الى متخرجي مدارس الصنــائع ، فليراجعها • فذهب • ثم عاد ، وطلب مني مالا ، فنهرته على ذلك •وبعد مدة من الزمن علمت من رجل مسؤول أن الشاب المذكور اتصل برئيس المرافقين وأسرّه بأنني حرضته على اغتيال شخصية عظيمة، وأني وعدته بالمال • نقل رئيس المرافقين الخبر الى الحكومة ، فاجتمع المسؤولون، وتداولوا في الأمر ، فلم يصدقوه ، وتأكدوا مني أن المخبر مفتر كاذب • وطلب رئيس الوزراء من وزير الداخلية اعادة ذلك المفتري الى بلده ، وقد اتضح بعد مدة أن الشاب المذكور لم يبعد ، انما استخدم في مطعم ضباط القوة الجوية •

لقد حاولت عبثا أن أعرف الجهة التي دبرت ضدي هذه المؤامرة الحمقاء ، وأعلم الواسطة التي استخدمت الشاب في مطعم الضباط • ولا أريد أن أربط هذه الحادثة بما كتبه عني المؤلف ، ولكن الذين يسيئون الظن برجال الاستخبارات البريطانية قد يجدون صلة بين ما كتبه وبين هذه الحادثة وتلك النشرة البذيئة التي نشرت عني عقب احتلال الجيش البريطاني للعراق سنــة ١٩٤١ ، ورفض السلطــات البريطانية في تركية منحي سمة المرور من سورية للعودة الى العراق في سنوات الحرب •

ويذكر المؤلف أني كنت من أشد المحرضين على اثارة الشعب ضد بريطانية بمناسبة قضية فلسطين • فأقول : اذا كان السعي لأن تبقى فلسطين عربية ، والوقوف دون مساعدة السلطات البريطانية الفلسطينية للصهيونيين في تمليكهم الارض وتسليحهم وفسح المجال لهم لتحكيم

مستعمراتهم وتأسيس المعامل لصنع السلاح والعتاد ، أقول : اذا كان ذلك السعي يسمى شغبا ، فأني أتقبل مسؤولية هذا الشغب . وكم كنت أود ان يساهم جميع رجال السياسة في اثارة ذلك الشعب في سبيل انقاذ فلسطين قبل أن تنزل اميركة الى الميدان وتتبنى القضية الصهيونية .

أما الكلمات النابية التي وصفني بها ، فأترك أمرها الى أصدقائه البريطانيين الذين اتصلوا بي وعرفوني عن كثب . والحقيقة أني لم اجتمع بمؤلف الكتاب ، ولم يجر بيني وبينه أي حديث .

وأخيرا أكرر ما قاله الشاعر :

واذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

١٩٥١/١/٤

(لواء الاستقلال ١٩٥١/١/١٠)

مذكرات والدمار غولمان

السفير الامريكي في العراق من سنة ١٩٥٤ الى سنة ١٩٥٩

العراق في سنة ١٩٥٤

اتسم ربيع سنة ١٩٥٤ في العراق بفيضانات مفجعة ، وموقف سياسي غير مستقر . وقد امتدت آثار ذلك الى الصيف ، حين عاد نوري الى الحكم ، وقد أثر كلا هذين العاملين في سير حكومته . فالفيضانات التي كانت من أسوأ ما حدث في تاريخ العراق ، سببت أضرارا قدرت بثلاثين مليون دينار (زهاء ٨٤ مليون دولار) ، وكانت قيد « بوصات » من اغراق بغداد . والوضع السياسي كان قلقا حتى تعاقبت على العراق بين نهاية نيسان وأوائل آب ثلاث وزارات . وأجبرت الفيضانات نوري أن يقدم موضوع السيطرة على الفيضان على غيره في منهاج الاعمار . وحملته الحالة السياسية الصعبة على فرض سلسلة من تدابير الأمن بما يتصف به من صرامة .

وعندما حل شهر نيسان ــ بعدأنتعرضت البلاد لهذه الهزات الاقتصادية والسياسية ــ كان فاضل الجمالي ذو الثقافة الغربية رئيسا للوزراء .

وكانت احدى القضايا الملحة التي تواجه حكومة الجمالي هي اسعاف منكوبي الفيضان ومساعدتهم . وفي هذه الحالة المحرجة أصبح الجمالي هدفا لانتقادات قوية في البرلمان ، وهجمات بمثل هذه القوة من الصحافة . بسبب الطريقة التي كان يعالج بها مشكلة الفيضان .

ولما تسلم الجمالي الحكم كان يظن انه يتمتع بتأييد نوري ، ولكنه حين تعرّض لهذه الهجمات ، من عناصر قومية ويسارية ، ولم ينبر أتباع نوري من أعضاء حزب الاتحاد الدستوري ، للدفاع عنه في البرلمان ، فحمل سكوتهم الجمالي على تقديم استقالته [1] ، فقبلها القصر ، واتجه الى نوري كعادته طوال ربع قرن من الزمان كما بدا أن الموقف يتطلب عملا حاسما ، فوافق نوري على القيام بمحاولة لتأليف وزارة ، ولكنه أراد أن يدخل الجمالي فيها . وقد أخبرني أصدقاء لي كانوا قريبين من المسرح السياسي في ذلك الوقت ، ان نوري كان يرمي بذلك الى الحصول على تأييد الجماعة الملتفة حول الجمالي من ذوي الميول المتحررة ، ليقابل بها معارضة منافسه الاول صالح جبر ،

(١) رد الدكتور فاضل الجمالي على بعض القضايا التي تخصه من مذكرات غولمان في مقال نشره في مجلة (Forum) الفصلية التي تصدرها باللغة الانكليزية جمعية خريجي الجامعة الامريكية في بيروت . فأبدى في صدد هذه القضية ان استقالته لم تكن بسبب الانتقادات الموجهة الى وزارته حول معالجتها مشكلة الفيضان ، وقال : ان الوزارة كانت تتمتع بالتأييد التام في هذا المجال ، وانما هو استقال لاختلافه معنوري السعيد في : (١) سن قانون بتقييد الاحزاب والصحافة ، وسحب الجنسية العراقية عن العناصر « الهدامة » . (٢) رغبته في تشريع قوانين للاصلاح الزراعي والمعونة الاجتماعية، ورفض نوري الموافقة عليها. (٣) أما السبب المباشر للاستقالة ، فكان ـ على قوله ـ اختلافه مع نوري في سياسته الخاصة بالاتحاد مع سورية ، لانه بمساعدة صالح جبر تعاون على اسقاط حكم أديب الشيشكلي في سورية ، وكانت الخطوة التالية هي اتخاذ الخطوات الدستورية نحو الاتحاد ، وكان تنفيذ تلك السياسة يتطلب بعض النفقات التي كان لا بد من استصدار قوانين بها ، ولكن نوري عارض في ذلك ، ولما كانت الاغلبية في المجلس الى جانب نوري ، قرر الجمالي الاستقالة (Forum) المجلد ٦. ، خريف سنة ١٩٦٤ ، ص ١٣ ـ ١٤ وقد نشرت الترجمة العربية لهذا الرد في كتاب الجمالي « ذكريات وعبر » ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٢٣٤)

وحزبه « حزب الامة » ، والعناصر اليسارية المتفرقة • وربما كان هنالك أيضا بعض الضغط على نوري من القصر لايجاد مكان للجمالي، لأن الجمالي كان مقربا من ولي العهد عبد الآله الذي كان يوفده أحيانا بمهمات ذات طابع شخصي [١] •

وأراد نوري أن يشرك الجمالي في وزارته لأسباب دينية أيضا • فقد اعتاد رؤساء الوزارات في العراق أن تمثل في وزاراتهم الطائفتان الاسلاميتان السنية والشيعية • وكان الجمالي ، وهو شيعي محترم ذو خبرة في الشؤون العامة، يفي بأغراض نوري في هذا الشأن • ولكن الجمالي لم يكن في مزاج يمكنه من تلبية الطلب مباشرة ، بعد تخلي رجال نوري عنه في البرلمان ، فرفض عرض نوري مظهرا روحا استقلاليا •

ولا بد أن رفض الجمالي كان مفاجأة لنوري الذي ساعده كثيرا في حياته العامة • والواقع أن الجمالي ــ في مناسبات سابقة ، وأخرى كانت ستأتي فيما بعد ــ أظهر استعداده لتلبية رغبات نوري (ولا يمكن أن يقال مثل هذا في جميع من مهد لهم نوري السبيل الى الحياة العامة ، فان معظمهم ، عندما رسخ كيانهم ، سرعان ما تناسوا ما

(١) يقول الجمالي ان هذه المعلومات ليست صحيحة على الاطلاق، وانه لا يعلم من اين جاء غولمان بها (مجلة « فورم » العدد السالف الذكر ص ١٤) ، على أن (المترجم) يذكر شخصيا أنه لما كان ملحقا بالسفارة العراقية في لندن سنة ١٩٤٧ جاءها الجمالي موفدا من عبد الآله ليبحث عن مدرسة ملائمة للملك فيصل الثاني ، كما أنه يذكر انه اوفد الى احدى الدول العربية بمهمة خاصة ، قيل في حينه انها تتعلق بزواج الملك فيصل . ولعل المهمات ذات الطابع الشخصي التي يشير اليها المؤلف هي امثال هذه .

(المترجم)

يدينون به لنوري ، وسلكوا طريقهم المستقل) •

ولكن موقف نوري الحقيقي من الجمالي ، وتقييمه له ، فيما أظن ، قد كشف عنهما في ملحوظات أبداها لي عقب اختياره رئيساً للوفد العراقي الى مؤتمر باندونغ في نيسان سنة ١٩٥٥ • بدأ نوري بشرح للحافز الذي حمل اليزيديين على عبادة الشيطان ــ وهم طائفة دينية صغيرة تعيش في منطقة الموصل من شمال العراق ــ فقال : ان اليزيديين يعترفون بأن الله هو الرب الأعلى ، ولكن ارادة الله مهددة من الشيطان بصورة مستمرة • ولما كان الله رمزا للخير ، فلا ضرورة لمصانعته • ولكن الشيطان ، وهو متحفز دائما للشر ، يجب أن يسترضى • ومن هنا نشأت عبادة اليزيديين للشيطان • وأسر لي نوري بدهاء ومكر أن الجمالي هو « شيطانه الصغير » ، وقد وجد من الحكمة أن يسترضيه من وقت لآخر بتعيينه لمهمات مختلفة •

ولم يواصل نوري محاولته لتأليف الوزارة بعد أن رفض الجمالي عرضه • وظن بعض المراقبين أن نوري شعر بأن ولي العهد لم يكن جادا حقا حين طلب اليه تأليف حكومة في ذلك الوقت • ومهما يكن من شيء فقد قرر أن يتريث • والظاهر أنه كان مقتنعا أن الأمور ستزداد اضطرابا عند غيابه عن دفة الحكم ، وأنه لن يمضي وقت طويل حتى يستدعيه القصر مرة أخرى • ولكي يقطع صلته بالموقف السياسي ، أمّ لندن بحجة اجراء فحص طبي ، وزيارة حفيديه •

فاتجه القصر عند ذلك الى أرشد العمري ، وهو مستقل كان في تلك الفترة يعيش في استانبول ، وله في الحياة العامة تاريخ طويل (يتضمن رئاسة الوزارة من ١ حزيران ١٩٤٦ حتى ١٤ تشرين الثاني

١٩٤٦ ، وهي شهور كان العراق يغالب خلالها آثار الحرب ، ونال سمعة ـ تشابه سمعة نوري ـ بأنه رجل فعال) فوافق أن يكـون رئيسا للوزارة ، ولكن على أساس موقت ، ولمدة محدودة تكفي فقط لاجراء انتخابات جديدة • فباشر منصبه في ٢٩ نيسان ١٩٥٤ ، وعين يوم ٩ حزيران موعدا للانتخابات ، مع وعد بأنها ستكون حرة •

وكان الأثر المباشر للاعلان عن اجراء انتخابات حرة هو أنهـا شجعت كثيرا من المستقلين على ترشيح أنفسهم ، وخـاض المعركـة الانتخابية حزب الاستقلال (وهو الحزب القـومي) الـذي يمثـل جماعات قوية من القوميين المناهضين للغرب ، وحزب الأمة الذي يمثل الجماعات المعتدلة ذات الميول الغربية • وألفت جبهة وطنية مؤلفة من الوطنيين الديمقراطيين ومن حزب الاستقلال ومن المستقلين اليساريين المتفرقين ، وكان هناك ٤٦٦ مرشحا لمقاعد مجلس النواب التي يبلغ عددها ١٣٥ مقعدا •

وقد وصف لي بعض شهود العيان المعارك الانتخابية التي سبقت يوم ٩ حزيران • فالجو السائد لم يكن هادئا ، كمـا كان خاليـا من الضبط ، وكان من أكثر الانتخابات حيوية في تاريخ العراق ، فكانت الاجتماعات السياسية تعقد في جميع أنحاء البلاد • وقد انقلب بعضها الى مظاهرات ضد الحكومة بلغت من العنف أن اضطرت الشرطـة الى التدخل لحماية الأرواح والأموال ، ورفعت في كل مكان لافتات تقطع مختلف وعود الخلاص ، والسيارات المجهزة بمكبرات الصوت تجوب شوارع المدينة مشيدة بمزايا المنقـذين المرشحـين ، وأسوار حدائق البيوت الخاصة نقشت عليها شعارات تؤيد مرشحي الجبهـة

الوطنية ، وتشجب الغرب وتدعو الى الحياد • ولما حل يوم الانتخاب كان الجو مكهربا الى حد استوجب ارسال الشرطة الى جميع مراكز التصويت • ووجد عند احصاء الاصوات أن الجبهة الوطنية التي ألفت حديثا حصلت على ١٤ مقعدا ، مما كان مبعث استياء القصر والعناصر المحافظة عامة • وبدا أرشد العمري وقد أفلتت الأمور من يده (١) •

ويبدو في الوهلة الاولى أن ١٤ مقعدا في هيأة عددها ١٣٥ هو عدد تافه لا يدعو الى الانزعاج • ولكن هذه الجماعة الصغيرة كانت لديها الوسائل لاثارة كثير من الصعوبات والمشكلات ، وكان لمخاوف العنصر المحافظ ما يسوغها • فهي كوحدة متآزرة حسنة الانضباط ، تستطيع أن تعرقل عمل البرلمان • وبوجود مثل هذا المنبر تحت تصرفها تستطيع أن توصل صوتها الى الجماعات اليسارية ، وكذلك الى الأفراد الساخطين في البلاد كلها • ولقد كانت هذه فرصة تنشدها الأقلية الصغيرة المصممة منذ زمن طويل •

وعقد البرلمان الجديد جلسته الافتتاحية القصيرة في أواخر حزيران ، ثم أجل حتى دورة الخريف • ولما كانت الانتخابات الحرة قد أجريت ، فلم يبق لأرشد العمري الا أن يستقيل ، وهكذا فعل في ٢٣ تموز ، فتعين على القصر أن يبحث عن رئيس للوزراء •

أظهرت استشارات القصر أنه ليس بين الذين يمكن ترشيحهم من

(١) كان نواب الجبهة الوطنية : كامل الجادرجي ، حسين جميل ، محمد مهدي كبة ، فائق السامرائي ، خدورى خدورى ، عبد الجبار الجومرد ، ذنون أيوب ، محمد حديد ، صديق شنشل ، مسعود محمد، جعفر البدر .

(المترجم)

كان متحمسا لتأليف الوزارة في هذا الجو السياسي المكهرب • وكان الدور الذي تستطيع الجبهة الوطنية أن تقوم به مبعث قلق خاص • ولما جوبه القصر بهذا الوضع ــ كما قدر نوري بمكر ــ اتجه اليه مرة أخرى • وكان لا يزال في لندن ، فتولى ولي العهد الأمير عبد الآله الاتصال به ، ولم تكن العلاقات بين الاثنين على وئام ، فان اعتداد نوري برأيه ، واصرار عبد الاله على أن تكون له كلمة في كل قرار على شيء من الأهمية ، لم يؤديا الى علاقات سهلة ، وقد زاد ما حدث الآن في تأزم العلاقات بينهما •

حاول عبد الآله أن يتصل بنوري تلفونيا فلم يحظ بجواب ، فلجأ الى وساطة الأمير زيد ، عم أبي الملك فيصل الثاني وسفير العراق في لندن ، فلم يحصل هذا على جواب من نوري ، ولكنه تمكن من اقناعه أن يقابل عبد الآله في باريس ، ويبحث معه العرض • فلما اجتمعا ، وافق نوري على تأليف الوزارة ولكن بشروط معينة ، فكان على القصر أ نيوافق على حل البرلمان الذي انتخب حديثا ، وعلى اجراء انتخابات جديدة • وكان يجب كذلك حل الأحزاب السياسية ،واطلاق يد نوري في الغاء اجازات الصحف • ولم يعد نوري الى بغداد لتأليف الوزارة الا بعد قبول هذه الشروط •

وتحرك نوري باندفاعه المعهود ، فوجه الى الملك في ٤ آب كتابا يطلب فيه حل البرلمان واجراء انتخابات جديدة • وعلل ذلك بأنه يريد تأييدا شعبيا لمنهاجه • وحل جميع الاحزاب السياسية ، وأعلن حل حزبه « الاتحاد الدستوري » مشيرا الى أن كل من يجد في نفسه القدرة على تمثيل بلاده يستطيع ان يتنافس الآن على أسس متكافئة • وسحب

اجازات الصحف . وحذر الشعب في تصريح علني أدلى به ـ موجه بصورة واضحة الى الشيوعيين والفئات التي تؤلف الجبهة الوطنية ـ من أولئك الذين يخدمون « المصالح الأجنبية» في الوقت الذي يتكلمون فيه عن الديمقراطية والسلام .

وقد أصبح معنى هذا التحذير الخفيف واضحا في شهر أيلول ، وقبل اجراء الانتخابات باثني عشر يوما . فنشرت الحكومة في ذلك اليوم تعديلات أجرتها على قانون العقوبات ،وسّعت بها سلطاتها تجاه الشيوعيين وغيرهم من اليساريين . ووضع أنصار السلام والشبيبة الديمقراطية في فئة واحدة مع النشاط الشيوعي ، وعدّا غير قانونيين . ومنح مجلس الوزراء سلطة اسقاط الجنسية العراقية عن أي عراقي تثبت عليه تهمة الشيوعية ، أو أي نشاط متصل به ، ونفيه . كما منح مجلس الوزراء أيضا سلطة تعطيل أية جمعية ـ مهنية أو عمالية ـ بصورة موقتة أو دائمة اذا عد نشاطها مخلا بالنظام العام .

ان هذه الاجراءات ـ الى جانب سمعة نوري الراسخة كرجل قوي لا يتردد في اللجوء الى الوسائل الصارمة اذا وجدها ضرورية ـ كان لها أثرها في تثبيط عزيمة المعارضة ، وتمهيد السبيل لانتصار نوري الساحق في الانتخابات .

اجريت الانتخابات في ١٢ أيلول ، وكانت المعركة التي سبقتها تناقض معركة حزيران مناقضة واضحة . وكان كل شيء هادئا في الظاهر ، والاجتماعات العامة لا تعقد الا باجازة ، وكان معظم الطلبات يرفض . ولم تكتب على الجدران الا شعارات قليلة جدا . وفي الأيام الأخيرة للمعركة الانتخابية التي جرت في حزيران ، كان هنالك ضغط

سافر غير قليل من الموظفين الاداريين المحليين على المرشحين غير المرغوب فيهم ، لحملهم على الانسحاب • أما في أيلول ، فلم يظهر من ذلك الا القليل ، لأن الضغط كان يجري في الخفاء • وفي يوم الانتخابات لم تستدع قوات اضافية من الشرطة، وجرى التصويت بهدوء •

وفي صباح يوم الانتخابات كان ١١٦ من المرشحين بدون منافسين ، فلم يجر التصويت الا في عشرة مناطق انتخابية في بغداد والبصرة والسليمانية ، حيث تنافس ٢٥ مرشحا على المقاعد التسعة عشر الباقية • ومعظم الفائزين في الانتخابات كانوا من الاعضاء السابقين في حزب نوري المنحل : حزب الاتحاد الدستوري • ويضاف الى هذه الكتلة عدد من المستقلين من مؤيدي نوري • وانتخب ثمانية من المرشحين الذين كانوا ينتمون الى « حزب الأمة » واثنان من حزب الاستقلال ، ومرشح واحد من الجبهة الشعبية الموحدة ، وقد اشتركوا في الانتخابات مستقلين • ومن هنا لم تكن المعارضة لتستطيع أن تجند أكثر من اثني عشر نائبا • ولما كان هذا المجلس قد استمر ثلاث سنوات تقريبا ، وهي سنوات امتازت بفعاليات غير اعتيادية في حقول السياسة الخارجية والتنمية الاقتصادية ، فمن المفيد معالجة تكوينه بمزيد من التفصيل •

فمن الناحية العنصرية كان المجلس يتألف من ١١٦ عربيا ، و١٩ كرديا • ومن الزاوية الطائفية كان فيه ٧٣ سنيا و٥٦ شيعيا ، وستة مسيحيين • وكان ٨٨ من النواب أعضاء في المجلس السابق ، أو الرابع عشر • ولجميع الاعضاء ــ ما عدا ١٦ منهم ــ خبرة برلمانية سابقة • وكان عدد الملاكين المعروفين ــ من غير شيوخ العشائر ــ تسعة واربعين،

وفيه ٤٢ من رؤساء العشائر ، وثمانية عشر تاجرا • وكانت الطبقة المهنية ممثلة بثلاثة وعشرين محاميا ــ خمسة منهم حكام سابقون ــ وثلاثة أطباء • ونوري لم تكن له أغلبية ساحقة حسب ، ولكن جماعته كان لها نصيب جيد من التمثيل • وكان في امكانه أن يعمل الكثير للعراق في الداخل والخارج •

وعند وصولي الى بغداد في تشرين الأول ، كانت المعارضة منكمشة ، وكان لنوري البرلمان الذي يلائم مزاجه ، ومنهاجه بدأ ينكشف • وفي الميدان الداخلي كان أحد أهدافه العاجلة اكمال أعمال السيطرة على الفيضان ضمن منهاج الاعمار • وفي المجال الخارجي كان مصمما على تقوية موقف العراق لمواجهة أي عدوان محتمل • وفي كلا هذين الحقلين كان من حسن حظي أنني كنت قادرا على الاتصال به متى شئت ، باستمرار • وقد خدمت هذه الغاية جيدا اتفاقية التعاون الفني، والتفاهم الخاص بالمعونة العسكرية بين بلدينا • وكان الجو مكهربا ، ولكنه كان محفّزا ، ومظاهر النشاط في كل مكان •

لقائي مع نوري السعيد

بعد أن قدمت أوراق اعتمادي في ٣ تشرين الثاني ١٩٥٤ بحسب الموعد المقرر ، انتظرت أن يهيىء لي رئيس التشريفات زيارتي الاولى لنوري • ولكن نوري لم يحفل بالمراسيم ، فقد طلب أن يراني على الفور بعد عودته من الشمال ، على أن أكون وحدي • وقد أكد تأكيدا خاصا على أن يقتصر الحديث علينا ــ نحن الاثنين ــ فقط • وكان اللقاء سيتم في داره •

وفي بداية علاقتنا وجدته يفضل القيام بأعماله في داره ، حيث

يكون بمنجى من المقاطعة • وكان في السنين الاخيرة من حياته يعمل وحده ، ويضع ثقته في أشخاص قليلين ، ويستشير نفرا من خاصته • وكان كتوما ، ولم يكن يحب أن يراقــب عن كثب • ولم يستعمــل الوثائق في مباحثاته قط ، ولم يبد أنه يسجل محادثاته • ولم تكن لــه هيأة من الموظفين ، ولم يكن حوله الا عدد من الخدم • ولم يحتج الى الرجوع الى السجلات والوثائق ، ولا الى « سكرتارية » لانجاز مــا يريده ، وكان يعتمد اعتمادا كبيرا على ذاكرته العجيبة •

وقد وجدت التعامل مع نوري في داره مرضيا جدا • وقلما كان رئيسا للوزراء فقط ، اذ كان في معظم الأوقات وكيلا لوزير الدفــاع ووزيرا للخارجية • واذا ما غادر بيته صباحا وعبر دجلة الى قلب بغداد كان مضطرا الى التنقل بين مختلف الوزارات ، وأصبح من الصعب تثبيت المواعيد معه • ولذلك كنت أحاول دائما أن أراه في داره صباحا •

وهناك كان ــ بلا انقطاع ــ منتظرا على الشرفــة للتــرحيب بزواره • وكان دقيقا في مواعيده ، كما كان يتوقع الدقــة من زواره • وكان قليل الصبر أيضا ، وحين يحدد موعدا لمقابلة ، فهو مستعد له قبل دقائق ، حاضر الذهن ، متأهــب ، مفعم نشاطا • وكذلــك كان ينتظرني على باب داره حين زرته زيارتي الاولى •

وكان صغير الجسم نسبيا ، ولكنه كان أكثر امتلاء من تصاويره التي رأيتها ، والتي صورت يوم كان في الخدمة العسكرية الفعلية • وكان وجهه أخاذا ودودا ومبتسما ، وعليه خطوط من آثار حياة شاقة حافلة بالمشكلات ، وعيناه غامقتان متنبهتان دائما وذكيتان ••• وكان محدثا ذا حيوية ، ترافق حديثه طقطقة مستمرة من مسبحته «الكهرب»،

وهي مسبحة الصلاة للمسلمين المتدينين ، ويستعملها العـرب بصورة عامة في أثناء الحديث • وفيما كان يتكلم ويتداول حبات مسبحتـه بانشغال ، كان لا ينسى أن يمد من وقت لآخر علبة صفح صغيرة من الحلويات الملونة كانت على مكتبه دائما • وفي تناقض صـارخ مع مسبحة الزينة والحلويات الملونة ، كان هنالك غير بعيد من متنـاول يده ــ وعادة في محل باد للعيان ــ مسدس في غلاف جلدي ، يذكـر بالخطر الدائم على حياته •

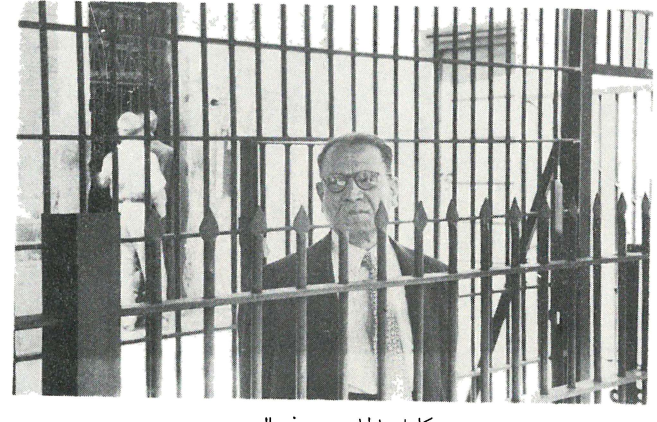
وهنالك ظاهرة جسيمة أخرى تستحق الذكر ، وهي صمم نوري• فلما قابلته للمرة الاولى ، لم يكن ذلك ملحوظا ، لأنه لم يبد أنه يلقى أية صعوبة في تتبع ما يقال • ولكنه خلال السنوات الاخيرة من علاقتنا كان يستعمل سمّاعة في بعض الاحيان • وفي ذلك الوقـت بالضبط أنتجت احدى الشركات الامريكية سماعة كانت من أصغر ما أنتج من سماعات وأقواها • فقرر أصدقاء نوري في السفارة أن يهدوا اليـه واحدة منها ، وكان عليّ أن أقوم بتقديمها • وكنت في البداية مترددا في المشروع ، فلعله يستاء من هذه الهدية مفسرا التفاتتنا كاشارة خفيفة الى أنه ربما كانت تفوته بعض الامور الدقيقة التي أحاول ابلاغه اياها ، ولكن ترددي لم يطل ، فقد كان نوري متفهما ، وقد آقنعت نفسي آنه سيتقبل الهدية بنفس الروح التي قدمت بها • وكذلك فعل • فكان ممتنا لحسن تفكير أصدقائه ، بعيدا عن ابداء أي استياء • وبحماسة الطفل الذي يتلقى لعبة جديدة ، بدأ يجرب هذه الآلة الدقيقة الانيقة أمـامي •

ولم يكن من السهل قط التأكد من مدى صممه ، حتى أنه كان



نوري السعيد مع السفير الامريكي في انقره « وارن »

سنة ١٩٥٧



كامل الجادرجي في السجن
نيسان ١٩٥٧

يبدو وكأنه يستفيد من ذلك أحيانا • اذ لم تكن أيامه متشابهة ،وكانت هنالك أوقات يسمع فيها كل شيء بوضوح ، وأخرى لا يسمع فيها الا قليلا • وكانت هنالك تلك الاوقات التي لا تتلاقى فيها الاذهان بتاتا •

مقابلة الملك وولي العهد مجتمعين

وكانت الحكومة السورية والجيش السوري شغلين شاغلين لحكومة العراق • وتقع سورية في منطقة أنابيب البترول الرئيسية ، فهي حبل الوريد بالنسبة الى العراق • وحكومة سورية معادية تصبح تهديدا مستمرا لعمل الانابيب بصورة طبيعية • وخلال الفترة العصيبة في سنة ١٩٥٥ كانت للدعاية السورية نكهة دعاية القاهرة ، فزاد هذا في قلق نوري وحكومته •

وكانت الاردن أيضا مصدر قلق للقصر ولنوري خلال الشهور الدقيقة الاولى من سنة ١٩٥٥ ، وكان الملك حسين ــ لسوء الحظ ــ خارج البلاد معظم هذه المدة ، وكان نوري مرتابا جدا من وزير خارجية الاردن ، وكان يؤكد أنه يقبض من السعوديين • وفي ١٧ شباط وبعد أن توقف الملك حسين في بغداد وقتا قصيرا أخبرني ولي العهد عبد الآله أنه هو والملك يفهمان الآن لماذا شكا الملك حسين من عدم اخباره بالتطورات التي أدت الى اتخاذ قرار العراق وتركية للدخول في حلف دفاعي • وقال عبد الآله : ان المعلومات التي اعطيت الى ممثلي الاردن في بغداد وأنقرة عن المداولات التركية ــ العراقية لم تبلغ الى حسين •

ولكن الملك وولي العهد ، تلقيا تشجيعا من لبنان وسورية خلال الايام التي كانا فيها قلقين جدا بشأن الاردن • ففي ١٢ شباط ، دعيت الى القصر ، فاستقبلني الملك وولي العهد ، وأرادا اطلاعي على رسالة بعث بها الرئيس شمعون الى عبد الناصر ، وعلى ما دار في مقابلة جرت بين الأتاسي ، رئيس سورية ، وعبد الجليل الراوي وزير العراق المفوض في دمشق •

وقد سبق لي أن قابلت الملك وولي العهد كلا على انفراد ، ولكن هذه هي المرة الاولى التي أقابلهما فيها مجتمعين • وكان حاضرا أيضا رئيس الديوان الملكي [1] ليترجم لي رسالة شمعون ، وتقرير عبد الجليل الراوي عن المقابلة •

وكان موقف الملك الشاب خلال المقابلة هادئا ووقورا ووديا • أما ولي العهد فانه وان كان وديا أيضا ، الا انه كان أميل الى الجفاف • وموقفه من ابن اخته الملك لم يكن موقف عدم الاكتراث ، ولكنني مع ذلك شعرت أنه كان يتعمد أن يعطي انطباعا بانهما يعملان معا ، وعلى قدم المساواة • وقد افتتح الملك المقابلة ببعض المجاملات ، فاستفسرعن صحة زوجتي وصحتي ، وعبر عن أمله أننا سنتحمل حرارة الصيف في بغداد ، ولما ذكّرته أننا كلينا جربنا حر واشنطن ، ضحك وقال انه خلال زيارته للولايات المتحدة ذهب الى واشنطن في شهر آب • وبعد هذا الحديث الخفيف ، تسلم ولي العهد زمام الحديث ، وسيّره بهيمنة واقتدار •

(١) عبد الله بكر

قال انه يعلم أنني مطلع على التطورات التي نشأت بسبب اعلان دخول العراق وتركية في حلف دفاعي ، وان لديه وثيقتين تتعلقان بهذه التطورات ، وانه يريد أن يبلغني فحواهما • ثم نـاول رئيس الديوان الملكي الاوراق وكلفه أن يترجمها ، وبدا رئيس الديوان عصبيا،وكانت ترجمته في البداية بطيئة ومتعثرة • ولم يحاول ولي العهد أن يخفي نفاد صبره ، فكان يذرع الغرفة جيئة وذهوبا ، ويدخن طوال الوقت •وبعد أن يسحب من كل سيكارة نفسين أو ثلاثة ، كان يرميها في الموقد ، ويولع سيكارة جديدة • وكان يحشر كلمات جديدة للاسراع بالترجمة ، فيزيد بذلك من ارتباك رئيس الديوان • وفي مرحلة من الترجمة سحب احدى الوثائق من حجر المترجم قائلا انها تعوقه ، ووضعها على المكتب الذي جلس عليه الملك طوال هذا الوقت مصغيا بهدوء وانتباه • ولما كان رئيس الديوان يواجه صعوبة في ايجاد كلمة من الكلمات ، كان يستدير طالبا العون ، ليس من ولي العهد ، ولكن من الملك الـذي كان يزوّده الكلمة المطلوبة بصبر ولطف •

ولما استأذنت بالانصراف ، كان التباين بين الخال وابن اختـه واضحا مرة أخرى • وكان عبد الآله مجاملا بعض المجاملة ، ولكنه كان جافا في تصرفه ، أما تصرف الملك ، فكان رقيقا وهـادئا ، وفيـه ود متعمـد •

ازمة السويس

في الفترة بين اجتماع مجلس حلف بغداد في طهران ، والاجتماع الذي وليه في كراجي في حزيران سنة ١٩٥٧ ، تعرض نوري ــ ومعه عضوية العراق في الميثاق ــ لاعنف ما تعرضا له من حملات داخـل

البلاد وخارجها . وكانت هذه الحملات بسبب العمليات العسكرية [1] التي قامت بها بريطانية وفرنسة واسرائيل ضد مصر . وقد اوشكت ازمة السويس ان تقضي على نوري .

بدأت اسرائيل الهجوم على مصر في ٢٩ تشرين الاول . وفي الثلاثين منه قدمت الحكومتان البريطانية والفرنسية انذارا الى كل من اسرائيل ومصر بوجوب ابقاء قواتهما على بعد عشرة اميال من قناة السويس . وابلغت الحكومتان ان القوات البريطانية والفرنسية ستحتل منطقة القناة بالقوة عند الضرورة . وقد شرعتا في القيام بذلك، ولكنهما قوبلتا من المصريين بالمقاومة ، وهكذا بدأت الحرب .

ولما زرت نوري في اول تشرين الثاني ، وجدته منهوكا منشغل الذهن اكثر من اي وقت مضى . وقد اعترف بانه لم يكن يعلم سلفا بطبيعة العملية البريطانية ولا مداها ، وقال انه كان يظن ان بريطانية ستقوم فقط بعملية رادعة لاسرائيل ، واوضح قائلا : « كنت احسب ان المعتدي سيعاقب » . وقد هزه تطور الاحداث كثيرا ، وقال انه حائر كيف سيعالج الشعور القوي المتزايد ضد بريطانية .

وفي اليوم نفسه اعلنت الاحكام العرفية ، ووافق عليها مجلس الوزراء ، وتظاهر في بغداد ضحى ذلك اليوم زهاء الف وخمسمئة

(١) يلاحظ في مذكرات «غولمان» باجمعها انه عند الاشارة الى العدوان الثلاثي على مصر لم يستعمل كلمة « العدوان » ، قط ، وانما يسميه « العمليات العسكرية في السويس » او « التدابير العسكرية » او ما اشبه ذلك من عبارات مخففة . اما كلمة « العدوان » او حتى «الهجوم» فقد تحاشاهما حتى في المواضع التي يتحدث فيها عنه بصورة سلبية او انتقادية ، او ينقل ما افضى به اليه غيره من الناس .

(المترجم)

طالب تأييدا لمصر ، ولكنهم فرقوا بسرعة وبصورة سلمية • وكان شعور الرأي العام ضد بريطانية يعلو بسرعة • وكان السبب هو الاعتقاد الشائع بان العملية البريطانية ـ الفرنسية المشتركة كانت جزءا من خطة دبرت سلفا بالاتفاق مع اسرائيل للقضاء على عبد الناصر

وبدا صغار موظفي الحكومة يتساءلون : الم يكن هذا الوقت مناسبا للتخلص من حكومة العراق الموالية لبريطانية ؟ اما كبار الموظفين، فبالرغم من انهم لم يكونوا غير مسرورين بورطة عبد الناصر ، فانهم كانوا قلقين جدا للموقف الحرج الذي وقع فيه العراق • وكانوا يشعرون ان البريطانيين قد خذلوا العالم العربي خذلانا سيئا ، وان العراق كان يجبر على اتخاذ موقف معارض لبريطانية • وكانالعراقيون أيضا يعلمون فعلا بتفوق اسرائيل العسكري على الاردن وسورية ، وقد زاد هذا في قلقهم •

وفي ٣ تشرين الثاني ، غادر نوري الى طهران ، لحضور اجتماع الاعضاء المسلمين في ميثاق بغداد الذي دعا اليه الرئيس الباكستاني اسكندر ميرزا ، وولي ذلك اجتماعان عقدا في بغداد ، في ٩ تشرين الثاني و ١٩ منه ، لمعالجة المشكلات التي خلقها الهجوم البريطاني على مصر •

وفي ١٠ تشرين الثاني ، عقب اجتماع الاعضاء المسلمين في طهران ، واجتماعهم الاول في بغداد ، أصدرت الحكومة العراقية بيانا يتضمن حلا حاذقا لمواجهة الازمة ، تجلت فيه سعة خيال نوري وشجاعته • كان الاجراء تجاه فرنسة هو قطع العلاقات الدبلوماسية معها • وكان العراق ــ بتأييد أصدقائه المسلمين ــ قادرا على اعلان استبعاد بريطانية من مذكرات ميثاق بغداد • وقد أوضح البيان أنه

« بالنظر للظروف الراهنة » فان حضور العراق سيقتصر على الاجتماع بالدول الاسلامية الثلاث الاخرى •

وقد سبب لنا هذا البيان بعض المشكلات ، فاننا لم نكن من أعضاء الميثاق ، ولكننا كنا منضمين الى اللجنة الاقتصادية • فاذا دعي اجتماع نواب الوزراء في الحلف للانعقاد — بينما كان البريطانيون لا يزالون مطرودين — رأيت أنه سيكون من الصواب أن أحضر بصفة مراقب كالعادة • وقد أخبرت وزارة الخارجية (الامريكية) أنني أنوي القيام بذلك • ولكن ، مع ذلك ، اذا دعيت اللجنة الاقتصادية للاجتماع ، فهل يجب أن نقف في صف أصدقائنا المسلمين ، أم تتخلف رعاية لاصدقائنا القدماء البريطانيين ؟ كنت أفضل الطريقة الاولى ، ولكن قبل أن تتمكن وزارة الخارجية من الاجابة ، حلّ البريطانيون المشكلة لنا • فقد أخبروا وزارة الخارجية العراقية انهم سيحضرون اجتماعات اللجان كالعادة ، كما أن الرعايا البريطانيين في سكرتارية الحلف استمروا في أعمالهم •

وبينما كان الاعضاء المسلمون في الميثاق يجتمعون في بغداد ، استدعيت مرتين في ساعة متأخرة من الليل ، للانضمام الى المجتمعين في قصر الزهور •

وكان المشتركون الكبار في الاجتماع : ولي العهد عبد الآله ، ونوري ، والجنرال رفيق عارف رئيس أركان الجيش العراقي ، ومندرس ، والسر مايكل رايت • وقد لاحظت على مندرس خاصة مظهره الهادىء • وكان نوري يبدو شاردا جدا ، والفريق رفيق عارف كان جاد المظهر عابس الوجه والسفير البريطاني مقطبا • فاحاطني مندرس علما بالمحادثات التي دارت بين الاعضاء المسلمين في طهران

قبل مدة قصيرة • وكان الموضوع الرئيس هناك : هل التدخل السوفيتي العسكري ، بالنظر الى الحالة غير المستقرة ، وشيك ؟ وكان الشعور هو أن التدخل السوفيتي احتمال لا يمكن استبعاده • وفي اجتماع طهران كان الاجماع على أن ميثاق بغداد لا يمكن أن يقوم على أسس متينة الا اذا انضمت اليه الولايات المتحدة • وتكلم نوري بعد ذلك فسألني ما آخر الاخبار من واشنطن ؟ فكان جوابي اننا نعمل على تعزيز اسطولنا في البحر المتوسط ، وان رئيس الجمهورية بعث برسالة الى بن غوريون ، فاراح جوابي نوري ، وأزال التوتر من الجميع • وبينما كان المجتمعون على وشك أن ينفضوا ، علمنا أن الاذاعة البريطانية أذاعت ان القوات الاسرائيلية ستنسحب من الاراضي المصرية ، فقال مندرس : « ها هي ذي نتائج اتصال الرئيس ايزنهاور بين غوريون الذي أجرى في وقته المناسب دون تأخر » •

وقبل أن أغادر ، أخبرني مندرس بصورة خاصة أنه كان مسرورا من محادثات طهران ، لانها صفّت الجو الى حد بعيد فيما يتعلق بالعلاقات مع بريطانية •

وعاد مندرس الى انقرة بعد هذا الاجتماع بمدة قصيرة ، ولكنه قدم بغداد ثانية بعد نحو أسبوع • وفي هذه المرة قدم الى بغداد أيضا الرئيس الباكستاني ميرزا مع رئيس الوزراء « سهروردي » ، ووزير خارجية ايران « اردلان » • وطلب مندرس في يوم وصوله أن أزوره ، وقال لي انه قد كلّم كلاً من نوري ، والرئيس الباكستاني ، ورئيس وزرائه ، ووزير خارجية ايران • انه كان يعمل على أن تستأنف بريطانية قريبا دورها الفعّال في الميثاق ، ولكن تدبير هذا لم يكن يسيرا ، وان الاجتماع الحاسم كان سيعقد مساء ذلك اليوم في قصر

الزهور • وفي هذا الصدد وجدت من المفيد أن أذكره بالتصريح الذي أدلى به الرئيس ايزنهاور قبل بضعة أيام ، وأوضح فيه أن الولايات المتحدة تريد الحفاظ على روابطها باصدقائها القدماء في الوقت الذي تعمل فيه ، في الامم المتحدة ، على ايجاد حل للمشكلات الناجمة عن السويس ، والاجراء العسكري ضد مصر •

ولما عدت الى قصر الزهور ، قبيل منتصف الليل ، كان هناك نفس الجماعة الذين حضروا الاجتماع الاول تقريبا ، مع اضافة الباكستانيين والايرانيين • وقد تولى رئيس وزراء الباكستان السهروردي أكثر الحديث ، وكان مدار خطابه الطويل ـ الذي كان معظمه موجها الي ـ هو أن الحاجة الان هي أكثر من أي وقت مضى الى انضمام الولايات المتحدة عضوا كامل العضوية • ولم يكن في وسعي الا أن أذكر المجتمعين أن حكومة الولايات المتحدة قد تعهدت بتدبير حل حول نتائج العمل البريطاني ـ الفرنسي ـ الاسرائيلي في نطاق الامم المتحدة • وأقحم نوري اقتراحا بأنه قد يكون في وقته الآن أن تقوم سفينة أو اثنتان من الاسطول السادس للولايات المتحدة «بزيارة ودية» لبيروت • وأخبرني الرئيس ميرزا أن الجماعة قرروا أن يطلبوا الى ولي العهد عبد الآله أن يذهب الى واشنطن ليعرض القضية • وقد تحققت هذه الزيارة فعلا بعد ذلك بعدة شهور •

وفي ٢١ تشرين الثاني ، طلب مندرس أن أقابله في السفارة التركية ، وقال أن الوفود المسلمة الاربعة تجد صعوبة في وضع مسودة بيان عن مذاكراتها في بغداد • انهم كانوا يريدون أن يقولوا فيه شيئا يدعم موقف نوري ، فهل يمكن أن يذكر شيء حول انضمامنا الى الميثاق ؟ كأن يقال ، على الاقل ، اننا دعينا مرة أخرى الى الانضمام ؟ قلت

له : ما دام انضمامنا في ذلك الوقت أو في المستقبل القريب لم يكن محتملا ، فمن الافضل أن لا يشار الى الولايات المتحدة فيما يتعلق بالميثاق • وفي اليوم التالي زارني ولي العهد ونوري في السفارة لبحث موضوع البيان وعلاقتنا بالميثاق • ولم يرغب نوري أن يذكر شيء من هذا الا اذا كنا مستعدين أن نعقب على البيان بتصريح عن انضمامنا في وقت قريب • فلما قلت ان ذلك غير ممكن ، أجاب بشيء من المرارة انه يأمل أننا سنتجنب على الاقل نشر أية تصريحات أخرى من شأنها أن تثير آمالا كاذبة •

كان أصدقاء نوري المسلمون قلقين ــ وهم محقون في ذلك ــ على مستقبله • والهياج العام حول استقالته كان سائدا طوال تشرين الثاني وكانون الاول حتى في بداية السنة الجديدة •

وخلال تشرين الثاني كانت هنالك اضطرابات خطيرة في بغداد والنجف والموصل ، وأخرى أقل عنفا في الكوت والسماوة وكركوك ، وفي معظم الحالات أشعل جذوتها الطلاب بوحي من الدعاية الشيوعية والبعثية • وكانت تشجعهم اذاعات القاهرة ودمشق المتواصلة •وكانت حوادث القتل واراقة الدماء قد سببتها بصورة رئيسية الاصطدامات بين الشرطة والغوغاء المسلحين • ومع ذلك كان لا بد من استدعاء الجيش في الموصل والنجف لتعزيز الشرطة •

وقد أعلن رسميا أن عدد القتلى في هذه الاضطرابات هو خمسة وعشرون ، وكان الاعتقاد العام بأن العدد الحقيقي أعلى من ذلك •

لما ظهرت أزمة السويس ، كانت قد مضت على نوري في الحكم سنتان • وكان قد توصل الى أسلوب من السيطرة يقوم على طريقة ادارة الشرطة والجيش والصحافة ، وكذلك السيطرة ــ الى حد كبير ــ

على الحياة السياسية في البلاد . وكان قد خطط جيدا لمقاومة الضغط الغوغائي ، وفي بداية الاضطرابات أغلق الكليات والمدارس الثانوية الى أجل غير مسمى ، وفرضت الاحكام العرفية بصرامة ، وفرضت كذلك الرقابة العسكرية على الصحافة ، وأجل البرلمان ، والقي القبض على بعض المعروفين من اليساريين والقوميين المتطرفين ، وحجزوا موقتا [١]. وساعدت صرامة نوري وشجاعته على المحافظة على معنويات من كان أقل ثقة منه بين أعضاء حكومته ، وأن منافسيه السياسيين لم يكونوا راغبين في تولي مسؤوليات الحكم في أحوال غير مستقرة كهذه .

وفي خلال حديث كنت أجريه مع ولي العهد في أواخر تشرين الثاني ، أشار الى ما يوجه الى القصر من ضغط لازاحة نوري . وقال ان « تغييرا في السياسة أمر لا يمكن التفكير فيه » ، فتغيير الحكومة لن يكون معناه الا « تغيير الوجوه » ، فمن الافضل اذن « التمسك بنوري » .

ولما حل كانون الثاني سنة ١٩٥٧ كان واضحا أن نوري قد اجتاز العاصفة . فانه اعاد فتح المدارس ، ولكن بعد أن طرد ثلاثمائة طالب من دراستهم العالية ، وسيقوا الى الجيش لقضاء خدمتهم العسكرية الاعتيادية . وقد زاد هذا في قوة المعارضة لنوري بين طبقة المثقفين ،

(١) اعتقل بعد العدوان الثلاثي كل من : كامل الجادرجي وحسين جميل وفائق السامرائي وصديق شنشل وسامي باش عالم وجعفر الشبيبي ، كما اعتقل عدد آخر من القواعد الحزبية ومن الاشخاص الذين ليسوا معروفين كثيرا .

(المترجم)

بالرغم من أن كثيرا من المدرسين والموظفين رحبوا بعودة النشاط المدرسي الاعتيادي •

وهكذا فان نجاة نوري من الازمة الطويلة قد زادت في اعتباره ومكانته ، ولكنها قللت من شعبيته •

خروج العراق من ميثاق بغداد

في يوم ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ ، ختم مقر ميثاق بغداد ، واحتلته قوات الجيش ، ولم يدخل البناية عضو ما من « السكرتارية » بعد ذلك • ولم يعقد فيه اجتماع ما لنواب الوزراء أو أية هيأة أخرى ذات صلة بالميثاق •

وفي مؤتمر صحفي عقد في ٢٦ تموز سئل عبد الكريم قاسم عن السياسة التي سيتبعها نظامه بخصوص ميثاق بغداد ، فلم يجب اجابة مباشرة ، وانما قال : « ان دول ميثاق بغداد لما تعترف بالنظام الجديد، فليس هذا هو الوقت أو المكان لبحث الموضوع » • ومع ذلك أوضح لي شعور النظام الجديد نحو الميثاق وزير الخارجية (عبد الجبار) الجومرد خلال حديث لي معه في ٢ آب • ادعى الجومرد أن امضاء ميثاق بغداد بالنيابة عن العراق تم بتخويل وعلم ما لا يزيد على عشرين شخصا ، وكان يعوزه التأييد الشعبي ، وان اغلبية العراقيين قد تركوا جاهلين بالالتزامات التي ترتبت على العراق بموجبه •

وصحيح أن الميثاق لم يتمتع بتأييد شعبي واسع ، وأن ملابساته لم توضح للرأي العام ، ولذلك لم يفهمها • ولم تتم حملة مناسبة داخل العراق لمقابلة حملة عبد الناصر القوية والمتواصلة من التفسيرات المشوهة • وان نوري نفسه كان يلام على اخفاقه في تثقيف الرأي العام،

فانه لسؤ الحظ لم يقدّر أهمية العلاقات العامة •

وقد كان الجومرد مصيبا في قوله انالميثاق لم يحظ بتأييد الشعب العراقي ، ولكنه كان مخطئا حين أكد انه وقّع بتخويل وعلم حفنة من العراقيين ، وان الالتزامات التي ترتبت على العراق بقيت خافية على العراقيين • وعلى النقيض من ذلك فان نوري ، بتصريحاته العديدة وخطبه في البرلمان التي ظهرت في الصحف بعد ذلك ، جعل جميع الامور الاساسية التي تتعلق بالمفاوضات التي أدت الى امضاء الميثاق ، والتزامات العراق بموجبه ، أمام أنظار الجميع •

ولكن آراء الوزير الجومرد كانت معتدلة بالقياس الى آراء صديق شنشل ، وزير الاعلام في وزارة قاسم الاولى • فقد كان شنشل يرى أن الميثاق ليس الا أداة يفرض بها الغرب سيطرته على شؤون العراق من غير التفات الى رغبات الشعب • والواقع ان الولايات المتحدة وبريطانية ــ كما كان شنشل يلحّ في القول ــ كانتا قد اتفقتا مع نوريعلى أنه ، لقاء عضوية العراق في ميثاق بغداد ، كان قد سمح لنوري أن يستمر في « هيمنته الفاسدة » على البلاد •

وعلى ضوء هذه الآراء، فليس من الغريب أن يسحب عبد الكريم قاسم العراق من الميثاق • ولكن ، لماذا انتظر حتى مارت سنة ١٩٥٩ قبل أن يقوم بذلك بصورة رسمية ؟ لعله كان مشغولا بدعم سيطرته على البلاد ، ولم يكن لديه الوقت لامر آخر • وقد كان على التأكيد مشغولا بتلك المشكلة ، ولكنني واثق أنه بالرغم من هذا لم يغبالميثاق عن بصره • وأعتقد أنه لمجرد كونه قلقا على مدى سيطرته على البلاد في الاشهر الاولى ، رأى شيئا من الفائدة في البقاء بعيدا في البداية ، وعدم قطع صلته نهائيا• ولعله شعر أن هذه الصلة المستمرة بالميثاق

والدول الاعضاء فيه ، مهما كانت واهية ، كانت فيها مزية « وقائية » مفيدة للعراق في علاقاته بالعالم الخارجي ، في وقت سيطر فيه هذا القدر من عدم الاطمئنان في الداخل •

الانتقـــادات

واجه نوري السعيد المشكلات الدقيقة في تلك الفترة بشجاعـة ونشاط • وكانت المشكلات متنوعة • وقد عولج بعضها بحلول سريعة وعادية • وكان في امكانه قبل موته أن يشير الى عدد من المنجـزات المفيدة في مختلف الميادين • ومع ذلك كانت الانتقادات الموجهة اليه شديدة ومتواصلة حتى النهاية ، وفيما يأتي أمثلة نموذجية منها،صادرة عن شخصية سياسية قديرة جدا ، من اليسار ، كان يميل الى القيـام بدور منفرد ، وعن جماعة من المتحررين واليساريين الذين غالبا مـا عملوا متقاربين ، وعن مصدر أكثر محافظة ، وهو المنافس الاول لنوري في أيامه الاخيرة ، وانتقاد صادر عن مراقب غير سياسي وغير مرتبط بأية جهـة •

كان حزب كامل الجادرجي ــ الحزب الوطنـي الديمقراطي ــ الذي انضم الى الجبهة الوطنية في انتخابات حزيران سنة ١٩٥٤ ، قـد عطّله نوري في آب سنة ١٩٥٤ ، وكذلك عطل جريدته ــ الواسعـة الانتشار ــ « صوت الاهالي » • وفي تشرين الاول التالي (١٩٥٤) قدّم كامل الجادرجي طلبا باعادة تأسيس حزبه ، ولكن طلبه رفض • ومنذ ذلك الوقت كان هو وحزبه مكمومين بصورة مؤثرة • وبينمـا أبقي هو تحت رقابة الشرطة ، ترك في البداية حرا ليمارس حرفتـه في

المحاماة [١] • وخلال السنوات التي كان يعيش فيها معتزلا العمل السياسي اتصلنا به عدة مرات• وفي كل مرة أخبرنا وزارة الداخلية سلفا بنيّتنا في اجراء مقابلة معه ــ تفاديا لاية مشكلة قد تظهر في اللحظة الاخيرة ــ فلم تبد الوزارة اعتراضا •

وقام بأولى هذه الزيارات أحد الموظفين في السفارة صيف سنة ١٩٥٥ • ومن المناسب أن نقول كلمة عن ميول الجادرجي السياسية قبل أن نروي ملاحظاته •

ان الجادرجي ، الذي ينتمي الى احدى الأسر العراقية الغنية المحافظة المعروفة ، كان شخصيا متحررا جدا في آرائه السياسية • وقد حاول بعض الناس نعته بالشيوعية مرارا ، ولكنه نفى ذلك باصرار • وقد صدّقه في قوله كثير من العراقيين ، ولكن هؤلاء العراقيين أنفسهم كانوا يشعرون أنه مكّن الحزب الشيوعي الممنوع ، والذي يعمل في السر ، من استغلاله •

وكانت ملاحظاته تتناول ميدانا واسعا ، وهذه أهم الامور البارزة فيها :

١ ــ حذّر الامريكيين الا يخدعوا ــ كما حدث في السابق ــ بالوعود المجردة في قضية الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي ، وأنه كثيرا ما سمع وعود نوري السابقة من هذا النوع •

٢ ــ ان العراق ، بالرغم من دخله الكبير من النفط ، لا يزال بلدا يعمه الفقر •

(١) لم يمارس كامل الجادرجي المحاماة وان كان متخرجا في كلية الحقوق .

(المترجم)

٣ ــ ان صغار المزارعين لا يزالون مستغلين ، أولا من الشيوخ، ثم من الحكومة نفسها ، بما ألقت على كواهلهم من أعباء الضرائب •

٤ ــ انه ليس شيوعيا ، بل وليس ممن يعطفون على الشيوعية ، وانما هو « اشتراكي تقدمي » ، يؤمن بالاصلاح التدريجي أكثر من التغيير الثوري •

٥ ــ يرى كثير من العراقيين أن الاتحاد السوفيتي الآن هو الدولة الوحيدة التي تؤيد قضية الاصلاح الاجتماعي تأييدا فعّالا •

٦ ــ ان بريطانية والولايات المتحدة اعتادتا بصورة تقليدية تأييد العناصر الرجعية في العراق ، وانهما تلامان معا على عدم تحقق أي اصلاح اجتماعي فيه •

٧ ــ ان السفارة البريطانية ، وشركة النفط العراقية IPC قد دعمتا دائما بعض المصالح فعرقلتا بذلك الاصلاح الاجتماعي • ان دور الولايات المتحدة في هذا غير مباشر ، فهي تؤيد موقف بريطانية فقط •

وكانت الزيارة الثانية لكامل الجادرجي في سنة ١٩٥٦ ، بعد أن مضى على وزارة نوري السعيد ثمانية عشر شهرا تقريبا ، وكانت في داره أيضا • وكان لا يزال تحت مراقبة الشرطة ، ان لم يكن في الاقامة الجبرية فعلا •

واذ كان حزبه غير قادر على العمل ، وعين الشرطة تراقبه باستمرار ، فكان من الطبيعي جدا أن يشن الجادرجي على نوري السعيد هجوما عنيفا خلال هذه الزيارة « لكبته الحريات الشخصية »• ثم انتقل الى الشؤون الخارجية ، فركّز انتقاداته على انضمام العراق الى ميثاق بغداد ، وادعى أن نوري بعمله هذا قد عزل العراق عن

العالم العربي دون أن يحصل على أية منفعة للبلاد • ثم أصدر حكما عاما ، وزعم أن نوري لم يستبق في الحكم الا بتأييد بريطانية ، كما وصف السفير البريطاني في ذلك الوقت [1] بأنه « كورنواليس ثان » ـ (وكانت الاشارة الى السر كينهان كورنواليس السفير البريطاني من سنة ١٩٤١ الى سنة ١٩٤٥ الذي أكد كثير من العراقيين أن تصرفه كان أشبه بتصرف مندوب سام في أيام الحكم البريطاني في العراق بوصفها دولة منتدبة ، منه بتصرف سفير لدى دولة ذات سيادة) •
ولم تفلت الولايات المتحدة من اهتمام الجادرجي ، فقال انها لا تتبنى سياسة خاصة بها ، ولكن تقبل بالمحاولات البريطانية لحكم العراق بواسطة نوري •

أما الاحتجاج الجماعي الذي سبق ذكره ، فكان على صورة عريضة الى الملك تطالب بازاحة نوري • وقد حدث ذلك بعد تأليف نوري وزارته بمدة تزيد على السنة قليلا • وقد وقّع العريضة ثلاثة من زعماء حزب الاستقلال المنحل : محمد مهدي كبة ، وفائق السامرائي ومحمد صدّيق شنشل ، وثلاثة من الاعضاء البارزين في الحزب الوطني الديمقراطي : كامل الجادرجي ، ومحمد حديد ، وحسين جميل • فالتعاون بين زعماء الجماعتين المعارضتين ـ كما يبدو من الاحتجاج ـ لم ينقطع بحل حزبيهما • ويذكر في هذا السياق أن كلا من هؤلاء الستة قاموا ، بعد موت نوري ، بأدوار مهمة في نظام حكم عبد الكريم قاسم ، في أيامه الاولى على الاقل •

وقد شمل الاحتجاج كل شيء تقريبا • وكانت القضايا الرئيسية

(١) هو السر مايكل رايت .

ـ بعبارات الاحتجاج نفسه ـ هي نزعة نوري الى الحكم عن طريق المراسيم ، واخفاقه في توفير حلول ناجعة للعلل الاقتصادية ، وتشجيعه سياسة تعليمية تسيء الى مستقبل البلاد ، وفي الشؤون الخارجية اتباعه سياسة عزلت العراق عن شقيقاته الدول العربية ، وباعدت بينه وبينها ، وورّطت العراق في « تكتلات عسكرية والتزامات خطيرة » [1] .

وبعد تقديم هذا الاحتجاج الجماعي الى الملك بشهر واحد ، قدّم صالح جبر ، رئيس حزب الامة السابق ، مذكرة الى الملك تضمنت انتقادا شديدا لسياسة نوري الداخلية . وهذه المذكرة المؤرخة في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ لم تنشر ، [2] ولكنها نالت شيئا من الانتشار في دوائر بغداد السياسية . وقد حصلنا على نسخة منها من موظف سابق في حزب الامة المنحل . وهذه هي القضايا التي أوردها صالح جبر :

١ ـ ان حكومة نوري قامت على غير أساس دستوري .

٢ ـ ان المجلس النيابي الحالي هو هيأة مزيفة لان جمعه تم بطريقة « التعيين » .

٣ ـ ان حل الاحزاب السياسية كان مخالفا للدستور ، وكذلك كان تعطيل الصحف .

(١) انظر نص الاحتجاج في مذكرات الاستاذ محمد مهدي كبة « في صميم الاحداث » ، بيروت ، ١٩٦٥ ص ٤٢٠ ـ ٤٢٣
(المترجم)

(٢) لم تنشر المذكرة وقت تقديمها ، ولكنها نشرت فيما بعد في « تاريخ الوزارات العراقية » للاستاذ الحسني ، الجزء التاسع الذي صدر سنة ١٩٦٠ ، بينما نشر كتاب السفير غولمان سنة ١٩٦٤
(المترجم)

٤ ــ ان ما يقوم في العراق لم يكن غير « حكم دكتاتوري فردي»
٥ ــ على الملك أن يعيد الى الشعب الحقوق الطبيعية التي ضمنها لهم القانون الاساسي •

على أن أصدق ما اطلعت عليه من الانتقادات التي وجهت الى نوري السعيد ، لم يصدر عن السياسيين أو المشتغلين بالشؤون العامة بل جاء من امرأة عميقة الفهم ذكية ، قضت معظم حياتها محجبة ، ولم يسمح لها زوجها ، وهي في منتصف العمر ، بأكثر من حياة هي شبه عزلة • وكانت زوجة عراقي محترم ، خدم بلاده بكفاية في وظائف كبيرة في مختلف الميادين ، وبينما كان زوجها في مهمة في الخارج بعثت الى زوجتي برسالة تعرب فيها عن رغبتها في مقابلتها ، وان لديها ما تريد أن تسمعه اياها ، وانها كانت ستأتي وحدها ، وتريد أن تقابل زوجتي وحدها أيضا • وقد أبدت أنهما سبق أن تقابلتا في حفلة استقبال كبيرة في السفارة ، في احدى المناسبات النادرة التي اصطحبها فيها زوجها • وكانت تأمل أنه عند عودته من مهمته الطويلة في الخارج أن يتبنى موقفا أكثر تحررا ، فيكثر من اصطحابها معه ، لتتمكن من التمتع بالاتصال الحر باولئك الذين يرافقون التطورات اليومية •

وقد شجعتها زوجتي بحرارة ، وبعد أيام قلائل ظهرت في السفارة فدار بينهما حديث طويل • وقد أبدت أنها تزوجت في الرابعة عشرة من عمرها ، وفرضت عليها عزلة شديدة معظم حياتها ، وانها ربت اسرة كبيرة ، وأذعنت للدور الاسلامي التقليدي للمرأة العربية ، ولكنها لم تكن راغبة فيه قط • وقد استطاعت عن طريق زوجها وابنائها أن تبقى على اطلاع على ما يجري في البلد • وانها فكرت في الامر كثيرا ، وشعرت برغبة لا تقاوم في التحدث الى شخص خارج حلقتها

العائلية • وأضافت أنه قد يكون تطاولا من جانبها ، بعد أن عاشت في مثل تلك العزلة ، أن تعلق على أحداث العالم ، أو تحكم عليها •

وهنا قالت زوجتي : ان هناك حالات كثيرة سجّلها التاريخ العربي لنساء عربيات تابعن القضايا العامة عن كثب ، وان كن محجبات ، ومارسن — عن طريق أزواجهن — نفوذا كبيرا في سير الاحداث • وكأنما كان ابتعادهن عن العالم ، بمشاغله الكثيرة ، سببا في شحذ أفهامهن •

وقد أزالت هذه الكلمات ترددها ، فتدفقت اقتراحاتها لاصلاح العراق في حماسة ووضوح • فالبلاد بها حاجة ماسة الى منهاج لتعليم الجماهير وتوعيتها • وفي هذا المجال ينبغي عدم اهمال التعليم المهني • وكان هنالك عدد من الموظفين يفيض عن الحاجة كثيرا • وقد آن للشعب أن يدرك شرف العمل اليدوي • والشرطة يجب اصلاحها ، وانه لا جدوى في محاولة قمع الشيوعية بالقوة الغاشمة ، بل يجب الاخذ بيد الشعب الى حياة أفضل • وان الابنية العامة الفخمة والمشروعات الهندسية كلها مفيدة طبعا ، ولكن الضرورة العاجلة تقضي بأن يوفر للشعب الامن والطمأنينة ، والامل في حياة أفضل •

وكان هنالك — كما يلاحظ — تشابه في الانتقادات الموجهة الى نوري بغض النظر عن مصدرها ، ومن بين جميع ما اطلعت عليه ،وجدت أن تلك التي جاءت من امرأة عراقية لا تبتغي غير أذن صاغية ، كانت أكثرها دلالة •

ان تصريحات نوري العلنية عن اسرائيل كانت تختلف اختلافا شديدا عما كان يقوله بصورة خاصة • فقد كانت تصريحاته العامة ــ كتصريحات جميع القوميين العرب ــ قاسية وغير متساهلة • ولكنه في السر كان يناقش موضوع اسرائيل بهدوء ، وتعقل ، واعتدال • على أن تصريحاته ، العامة والخاصة ، كانت تظهر انشغاله الدائم بالصهيونية •

وقد ورد ذكر الصهيونية في أول تصريح علني له بعد توليه الحكم في سنة ١٩٥٤ ، وقد يذكر أنه حث على زيادة التعاون بين الدول العربية « لصد الخطر الصهيوني » •

وبعد بضعة أشهر ، وفي أثناء اتصالاته برئيس الوزراء مندرس في استانبول التي أدت أخيرا الى ميثاق بغداد ، كانت الصهيونية أكثر ما يشغل باله • فقد ذكر أن الصهيونية تقف ضد أي تقارب بين تركية والدول العربية ، وأنها في هذا لا تختلف عن الشيوعية • ولذلك كان من الضروري مكافحة الدعايات الصهيونية والشيوعية على حد سواء•

وبالرغم من أن معاهدة التعاون المتبادل بين العراق وتركية لم تذكر اسرائيل والصهيونية بصورة خاصة ، فقد نجح نوري في معالجة الاثنتين بصورة غير مباشرة • وهكذا احتفظ ــ بحسب ظنه ــ بثقة اخوانه العرب • ولقد أوصد الميثاق الباب دون انضمام أية دولة لا تعترف بها العراق وتركية • ولمساعدة نوري أكثر من ذلك تبودل في وقت التوقيع كتابان بينه وبين مندرس • وقد أبدى نوري ، في كتابه ، أنه كان من المفهوم لدى الطرفين أن الميثاق مكنهما من التعاون على مقاومة الاعتداء على أي منهما ، وانهما فضلا عن ذلك سيتعاونان على

تنفيذ مقررات الامم المتحدة بشأن فلسطين • وأبدى مندرس أن حكومته توافق على ما ذكره نوري •

وان مثالا جيدا على كيفية تحدث نوري عن اسرائيل في العلن ، يظهر في خطابه الى الشعب في ١٦ كانون الثاني الاول ١٩٥٦ • ولقد ألقي هذا الخطاب بعد مدة قصيرة من طلب الاردن الى العراق أن يسحب قواته العسكرية التي ذهبت الى الاردن بطلب منه ، حين كانت أزمة السويس على أشدها • وقد وافق العراق ولكن نوري قال عن الانسحاب ما يأتي :

« اننا أضطررنا الى الاستجابة لطلب الاردن بالرغم من قناعتنا بأن الازمة لا تنفرج ، والخطر لا يزول ، الا بزوال اسرائيل من الوجود » (١) •

ويجب أن يقال هنا ان ملاحظات نوري عن اسرائيل في السر ، كانت عادة مبنية على أساس قبوله دوام دولة اسرائيل ، ولم يكن ثمة أي كلام عن « ازالتها من الوجود » •

وهنالك مثال آخر جدير بالذكر لتصريحات نوري العلنية عن اسرائيل ، يتعلق بمحاولته خوض ميدان الصحافة الامريكية • ففي محادثة جرت يوم ٢٤ حزيران سنة ١٩٥٧ أشار نوري الى مقالة كتبها لمجلة (لايف) وكان قد أنجزها قبل عدة أسابيع ، وأقلقه تأخر (لايف) في نشرها ، فتساءل هل يمكن أن يكون تأخيرها مراعاة لصهاينة نيويورك ؟ وكان يأمل أن تكون قد نشرت الآن ، لان تأخرها أكثر

(١) انظر نص الخطاب في جريدة « البلاد » الصادرة في بغداد في ١٩٥٦/١٢/١٧

(المترجم)

من ذلك سيضعف تأثيرها • فهل لي أن أتصل بالمستر دالاس ، وأرى هل في الامكان تعجيل نشرها •

وقد لفت نظر وزارة الخارجية (الامريكية) الى مقال نوري وقلقه لعدم نشره ، ولا أعلم هل قامت الوزارة بأي مسعى في شأنها • والمقال اذا نشر في أثناء حياة نوري فقد فاتني الاطلاع عليه • على أن مجلة (لايف) بعد مرور أكثر من سنة على اشارة نوري الى المقال ، وبعد موته بشهر واحد تقريبا ، نشرت في عددها الصادر في ١٨ آب سنة ١٩٥٨ ما عنونته : « الوصية الاخيرة لرئيس وزراء العراق » • وكانت القطعة تشابه الى حد كبير المقال الذي حدثني عنه نوري في حزيران سنة ١٩٥٧ •

تطرّق نوري في « الوصية » ، على قصرها ، باسلوب انتقادي ، الى أمور عديدة : الدور الذي قامت به الولايات المتحدة في أزمة السويس ، مبدأ أيزنهاور ، مقررات الامم المتحدة لسنة ١٩٤٧ حول تقسيم فلسطين ، جمال عبد الناصر ، نتائج التدخل الامريكي في الشرق الاوسط في سنة ١٩٥٦ • ويجدر بكل من يعني بالعراق في عهد نوري أن يقرأها •

وتضم « الوصية » مقطعين نموذجيين لتصريحات نوري العلنية حول اسرائيل • فهو يبدي ، أولا ، وبصورة غير لبقة نوعا ما ، أنه يفهم ان الامريكيين قد ملوا من عناد العرب حول اسرائيل • ويضيف أن زعماء العرب قد ملوا أيضا من تعامي الامريكيين عن مشكلة اسرائيل • ويتعلق المقطع الثاني بالظلامتين المزدوجتين اللتين طالما شغلتا نوري : اسرائيل والشيوعية ، وهو يقول ان اسرائيل بالنسبة الى العرب هي أعظمهما ، وأقربهما خطرا •

ولكن ملاحظات نوري التي كان يبديها لي بصورة خاصة تعطي صورة أصدق من تصريحاته العامة لما كان يفكر فيه حول اسرائيل •

ومن الطبيعي أن ذكر اسرائيل كان يرد في أحاديثنا كثيرا ،مباشرة أحيانا ، وأحيانا فيما يتعلق بغيرها من المشكلات • وكان معظم مايقوله، من الكلام المعاد • وفيما يأتي خلاصة جامعة للملاحظات الرئيسية والدائمة التي أبداها لي خلال السنين •

ان مقررات الامم المتحدة لسنة ١٩٤٧ الخاصة بتقسيم فلسطين ، كانت نقطة الانطلاق لآمال نوري في اقامة علاقة عملية مع اسرائيل • ولما زار وزير الخارجية (الامريكية) بغداد سنة ١٩٥٣ ، قال له نوري انه يريد تسوية سلمية عن طريق المفاوضات وعلى أساس تلك المقررات، وأوضح انه لم يكن يطلب قبول المقررات حرفيا ، بل قبولها أساسا لمفاوضات تجري بين اسرائيل والدول العربية مباشرة ، أو بواسطة طرف ثالث • وكان يرى أن قبول المقررات أساسا للمفاوضات ، حتى قبل البدء بأية مباحثات ، سيكون له أثر بعيد في تخفيف التوتر • وان هناك مجالا للتساهل • وكان (نوري) يعترف بحق اسرائيل في المنطقة المخصصة لها وفق تلك المقررات ، ولكن المطالبة بما هو أكثر منها كانت غير مشروعة ، وان على اسرائيل أن تكون مستعدة للمساومة على التخلي عن المناطق التي الاضافية الاخرى • والى جانب تسوية تحتمل التساهل حول الارض ، كان من الضروري وضع شرط يتعلق بعودة اللاجئين • وكان يرى أن مجرد اعتراف رسمي من اسرائيل بحق هؤلاء« المشردين » بالعودة ، لن يكون له من الناحية العملية أثر يذكر ، ولن يحاول الاستفادة من ذلك ، والعودة الى بلاده من بين اللاجئين الا القليل ، أو لا احد • ويجب أن يصحب هذا الاعتراف الرسمي بحق اللاجئين المشروع في العودة ، تعويض مادي

تؤديه اسرائيل عن الاضرار التي لحقت باللاجئين ، وان يتوقف هذا على مفاوضات تجري مباشرة ، أو عن طريق طرف ثالث أيضاً . واذا تم التوصل الى اتفاق من حيث المبدأ ــ وانني أرى هذا مهما جدا ــ فأنه (أي نوري) سيفضل رفع المقاطعة الاقتصادية • ان وجود دولة اسرائيل (في رأيه) حقيقة يجب أن تقبل • واذا كانت تلك الدولة مع ذلك ستبقى، فان التوتر العربي ــ الاسرائيلي يجب أن يخفف ، وسينتفع كلا الطرفين حتما من رفع المقاطعة الاقتصادية • ولكن بالرغم من أن اليهود والعرب عاشوا معا ألوف السنين ، وانه لم تكن له خصومة دينية معهم ، فانه كان يخشى أن الطريق الى علاقات أحسن معهم كانت طويلة وشاقة ، فقد كانت الصهيونية أساس الخلاف ، وهي عنصر دخيل يقحم نفسه في المسرح المحلي • وتشترك في هذا الشيوعية والصهيونية • فكما أن كل شيوعي ، بصرف النظر عن مكان اقامته ، كان ولاءه الاول لموسكو ، كذلك كل صهيوني ــ اينما وجد ــ فولاءه الاول لاسرائيل • وان ذلك الاقتحام والتدخل عقّدا الى حد كبير كل محاولة لتسوية عربية ــ اسرائيلية • وكان يكرر القول انه مع ذلك مستعد في أي وقت أن يبدأ البحث عن تسوية ، متخذا مقررات الامم المتحدة لسنة ١٩٤٧ أساسا للتحري والمباحثة •

ولما كان نوري يسأل : لماذا لا يأخذ هو المبادرة في محاولة تحقيق محادثات على هذا الاساس ، كان يجيب انه لو فعل ذلك لشنّع به حالا زعماء العرب الذين سبق أن أتهموه ببيع عروبته للغرب •

وقد مرّت السنون ، ونوري ــ المعتدل بين الساسة العرب

فيما يتعلق باسرائيل ــ يعبر في السر فقط عن أفكاره الحقيقية حول كيفية تخفيف حدة العلاقات العربية ــ الاسرائيلية المتأزمة ووضعها موضع التنفيذ ، وكان الميدان قد خلا للمتطرفين ، والسنون ذهبت هباء . ومما يزيد في الاسف أنه كان هنالك كثير من التشابه بين آراء نوري في هذه المشكلة ، وتلك التي أعرب عنها الوزير «دالاس» في خطابه الذي ألقاه في ٢٦ آب سنة ١٩٥٥ أمام مجلس العلاقات الخارجية . [١] فقد ابتدأ كلاهما مفترضا أن اسرائيل وجدت لتبقى ، وكلاهما لم يعتقد أن مشكلتي اللاجئين والحدود غير قابلتين للحل ، وكلاهما أكد على الحاجة الى التعاون في المجال الاقتصادي بين المجموعتين اذا كان لهما أن ينعما بالسلم والاستقرار في السنين المقبلة.

البريطانيون في العراق

لم يكن من النادر خلال أيامي في العراق سماع العراقيين يتذمرون من تصرف السفير البريطاني الذي كان أشبه بتصرف مندوب سام في عهد الانتداب ، منه بتصرف سفير معتمد لدى دولة ذات سيادة . وبالرغم من أنه كان يصعب على الشعب التدليل على ذلك ، فان التهمة كانت توجه ــ وتصدق بصورة واسعة ــ بأن السفير كان يتدخل في الشؤون الداخلية بالضغط على الملك وعلى ولي العهد وعلى نوري . وقد كلف ذلك نوري شيئا من الاحترام العام .

وكان الشعور السائد في الاوساط التجارية أيضا ان البريطانيين يستغلون مركزهم المنيع للحد من المنافسة ، ولترويج البضائع البريطانية. وقد صدرت هذه الشكاوى عن التجار العراقيين الذين كانوا وكلاء للشركات الاجنبية غير البريطانية ، وكذلك عن الاجانب ــ غير

(١) نص الخطاب في نشرة وزارة الخارجية الامريكية (Department of State Bulletin) المجلد ٣٣ ، ٥ ايلول سنة ١٩٥٥ ص ٣٧٨ ــ ٣٨٠

البريطانيين – الذين يمارسون تجارتهم في البلاد . والحقائق هنا يمكن التوصل اليها بصورة أسهل مما في الميدان السياسي . ان البريطانيين كانوا في البلاد منذ عهد بعيد ، وكان من الطبيعي أن يحاولوا الحصول على كل منفعة ممكنة مما تبقى لهم من المركز الممتاز الذي كانوا يتمتعون به بصفتهم دولة منتدبة . وبالرغم من أنامتيازاتهم قد انحسرت بموجب المعاهدة ، فان السيطرة البريطانية استمرت في ميادين معينة . وقد كان هذا صحيحا في شؤون المواصلات ، ففي خلال الفترة التي أكتب عنها ، كان لا يزال للبريطانيين صوت مسموع في ادارة باصات بغداد ، وفي السكك الحديد العراقية ، وفي ميناء البصرة ، وفي الخطوط الجوية العراقية . وكان هنالك عدد من الرعايا البريطانيين المنتشرين في مختلف الوزارات بوظائف استشارية مختلفة . فهل لاحد أن يشك في استغلال البريطانيين المخلصين الفرص التي تتاح لهم بحكم مركزهم القوي في العراق لترويج مصالح بريطانية التجارية؟ هيهات !

وكان مما يزيد في أعباء نوري أيضا ، ذلك الحرص الذي لم يكن خافيا في الميدان الاقتصادي .

وقد شهدت شخصيا هذا الحرص البريطاني للاحتفاظ بمركز التفوق القديم بطرق زادتني فهما للاعباء التي القتها تصرفات كهذه على ولاء نوري .

وثلاث من التجارب أوضحت هذه النزعة البريطانية ، وهي رد الفعل البريطاني تجاه وجود كثير من الفنيين الامريكيين في البلاد والمحاولات البريطانية للسيطرة على احتفالات تسليم دبابات « سنتوريون » في كانون الثاني سنة ١٩٥٦ ، والتدخل البريطاني –

بعد ذلك بمدة في السنة نفسها ـ للحيلولة دون تجديد عقد « ويسلي نلسن » العضو الامريكي في مجلس الاعمار •

ان البريطانيين في العراق ، وسواء أكانوا من الرسميين أم من المقيمين بصفتهم الخاصة ، لم يكونوا مسرورين جدا ـ اذا استعملنا عبارة مخففة ـ لوجود الفنيين الامريكيين بينهم • وكان موقفهم ـ وهو موقف غير لطيف ولكنه مفهوم ـ هو أن هناك تدخلا من الهواة في مجال بريطاني مغلق لا تصلح له غير الخبرة البريطانية • وهذا الموقف ـ المناقض لنظرة الرأي العام العراقي الى وجود الفنيين الامريكيين ـ تمثله جيدا قضية « نلسن » التي سنتناولها فيما بعد •

وقبيل الجلسة الافتتاحية لميثاق بغداد في تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ ، صادف أن قمنا مع البريطانيين بالتفاتة ذات شأن ، تقديرا لموقف نوري الى جانب العالم الحر ، فأهدينا الى العراق عشر دبابات « سنتوريون ٧ » ، وأهدى اليهم البريطانيون اثنتين منها • وكانت الدبابات العشر التي سنهديها مشتراة من البريطانيين بموجب مشروع (off shore procurment)

ولم يكد خبر هذه الدبابات يصل الى بغداد ، حتى علمنا أن السفارة البريطانية تود أن تجعل من هذه الهدية « مظاهرة كبرى » ، ولكن الذي لم ندركه في وقته هو أن المقصود بذلك كان جعلها « مظاهرة بريطانية » •

وأول ما حاولنا القيام به هو الاتفاق مع البريطانيين والعراقيين على صيغة بيان صحفي وموعد نشره • فاقترح البريطانيون ادراج الصيغة الآتية في البيان :

« ان عشرا من هذه الدبابات ستزود بموجب منهاج المساعدات الامريكية ، واثنتين منها هدية من الحكومة البريطانية » • ولكي يفهم الرأي العام العراقي أن كل ما يأتي الى العراق بموجب منهاج المساعدات هو هدية ، اقترحنا وضع العبارة الآتية :

« ان الحكومة العراقية تحصل على الدبابات الاثنتي عشرة بدون عوض » •

وقد اتفقت الجهات الثلاث كلها على هذه العبارة الاخيرة ، كما اتفقت هذه الجهات على صدور البيان في الاسبوع البادي في ٣٠ تشرين الاول • ولكن حدث أن وقع « تسرّب » لا تفسير له • ففي يوم الاحد ٢٤ تشرين الاول نشر البيان في صحف بغداد ، وكانت صيغته هي الصيغة البريطانية : « ان عشرا من هذه الدبابات ستزود بموجب منهاج المساعدات الامريكية ، واثنتين منها هدية من الحكومة البريطانية » •

ورتّبت السفارة بعد ذلك للمصورين أن يلتقطوا تصاوير الدبابات عند انزالها ، بقصد القيام بدعاية مناسبة لهذه المحاولة المشتركة لمساعدة العراق ، ولنوري بواسطة العراق • وعند وصول الباخرة ــ التي حمّلت في احدى الموانيء البريطانية ــ الى البصرة ، كانت آلات التصوير في محلها تنتظر التفريغ • وفتحت المنافذ ، وبدأت الرافعات تعمل ، وارتفعت دبابتا سنتوريون ، وقد نقشت عليها بأحرف ضخمة : « هدية من صاحبة الجلالة » وبدأت آلات التصوير عملها • وبعد تلك اللقطة بقيت آلات التصوير مستعدة تنتظر العشر الباقية ، هدية الولايات المتحدة ، لترفع وتوضع على الرصيف ، فظلت تنتظر بقية النهار دون عمل • ولامر ما ، كانت الهدايا الامريكية مخزونة في مكان

عميق ، ولم تشهد النور حتى اليوم التالي • وبعد مدة طويلة من احاطة العراق بأجمعه علما بكرم صاحبة الجلالة •

ولكن ، كان لا يزال هنالك المزيد مما ينتظر سفارتنا •

كان يوم ٣ كانون الثاني سنة ١٩٥٦ هو اليوم المحدد لتقديم الدبابات الى العراقيين بصورة رسمية في معسكر الرشيد ببغداد • وكنت قد اتفقت مع السفير البريطاني على تنسيق كلمتينا في الاحتفال، فظهر أن التنسيق كان يعني عند البريطانيين في بغداد شيئا يختلف كل الاختلاف عما يعنيه عند الامريكيين • وقبل موعد الاحتفال الرسمي ببضعة أيام حضر الى سفارتنا أحد موظفي السفارة البريطانية ، وترك نص الخطاب المقترح أن القيه في الاحتفال • وعندئذ قررت على الفور أن أتوسع كثيرا في الملاحظات التي كنت أنوي ابداءها ، وانتهز هذه المناسبة لأوضح علناً طبيعة مساعداتنا الاقتصادية ومداها .

١٤ تموز واعقابه

في صبيحة ١٢ تموز سنة ١٩٥٨ زرت نوري السعيد للتوديع ، اذ تقرر أن يغادر بغداد في ١٤ تموز مع الملك فيصل وولي العهد عبد الآله الى استانبول لاجراء محادثات مع رئيس الوزراء « مندرس » حول اجتماع مجلس ميثاق بغداد الذي كان سيعقد في لندن في أواخر تموز • ولما كان نوري سيغيب بضعة أشهر ، أردت أن أبحث معه الوضع في لبنان وتأثيره في العراق •

ولما كان من المتوقع أن يأتي من عمان طلب ارسال قوات الى الاردن فقد وضعت قوة عراقية على الحدود العراقية ـ الاردنية • وكان نوري منشغل الذهن بلبنان ، ولكن اهتمامه لم يبلغ مبلغا يجعله يؤجل

مغادرته . وكان يرى أن التدابير التي اتخذت كانت كافية ، وانها ــ على أي حال ــ أقصى ما يستطيع العراق أن يتخذه . ومع ذلك كان يزعجه أن يجهل نيات الولايات المتحدة .

سألت نوري عن رد الفعل الذي سيحصل في العراق اذا دخلت القوات العراقية الى الاردن ، فأجاب ان الذين يحتمل أن يثيروا الشغب لا يتجاوزون « بضع مئات من الطلاب والمحامين » ، وأن هؤلاء تمكن مراقبتهم . ولما استفسرت منه عن ولاء الجيش ، اكد لي أن الجيش يمكن الاعتماد عليه في اسناد العرش والحكومة .

وتركت نوري ، وهو مطمئن الى ضميره ، وكان يظن أنه قام بكل ما في استطاعته استعدادا لمغادرته العراق وغيابه في الخارج مدة من الزمن .

وبعيد الساعة الخامسة من صباح ١٤ تموز سمعت أصوات مدافع ، فخرجت الى الحديقة حيث أستطيع مشاهدة الشوارع ،فكان السير اعتياديا ، والمارة المبكرون يمضون دون أن يزعجهم أحد .وكان المنظر في جوار السفارة مطمئنا حتى لقد استنتجت أن هذا الرمي هو جزء من مراسم التوديع الملك وحاشيته . وعلى أثر عودتي الى الداخل ظهر أحد موظفي السفارة ليخبرني أن القوات تطلق النار على القصر الملكي وعلى دار نوري ، وان جماهير الناس تتجمع في المنطقة .ومعظم أهل بغداد ينامون في اشهر الصيف على سطوح الدور ، وكذلك كان يفعل هذا الموظف ، ومن سطحه كان يشرف على القصر وعلى دار نوري .

وكان من حسن الحظ أن أنبّه في ساعات الانقلاب المبكرة . وقبل أن يتمكن بقية الموظفين من الوصول الى السفارة أصابني مقدار ثان

وأخير من حسن الحظ في ذلك اليوم . ففي حوالي الساعة السادسة حضر الى السفارة أحد المقربين من نوري ، طالبا اللجوء. وكان اطلاق النار في الصباح الباكر قد أثار شكوكه . وقد صادف وصوله ، لحسن الحظ ، وقت اذاعة البيانات التي تعلن تأسيس الجمهورية العراقية ، فأخذ يترجمها لنا من العربية على الفور . ولم تحل الساعة السابعة صباحا الا كان النظام الجديد قد ركز نفسه ، فعين مجلس للسيادة من محمد مهدي كبة ، وخالد النقشبندي ، والزعيم نجيب الربيعي ، ليحل محل الاسرة المالكة ، واعلنت أسماء اعضاء الوزارة الجديدة وغيرهم من كبار الموظفين ، والكثيرون منهم كانوا غير معروفين حتى عند ضيفنا . وأذيعت أسماء العسكريين والمدنيين البارزين الذين أحيلوا على التقاعد ، أو اعتقلوا . وقد احيل على التقاعد اربعون ضابطا من ضباط الجيش ، بينهم رفيق عارف رئيس أركان الجيش ، وغازي الداغستاني معاون رئيس أركان الجيش في وقت سابق .وكثير من الذين أعلنت أسماؤهم ، حوكموا أمام محكمة عسكرية خاصة .

وقبل أن ينتهي النهار كان من الواضح أن الجماعة الصغيرة التي خططت للانقلاب بمنتهى الكتمان ، قد نالت نجاحا مذهلا . وفي الاسابيع التالية لم تكن هنالك علائم لاية معارضة منظمة ، لا من العسكريين ولا من المدنيين . وكان واضحا منذ البداية أن النظام الجديد لا يمكن الاطاحة به الا بقوة خاطفة ومتفوقة من الخارج .

وفي صبيحة ١٥ تموز علمت أن انزالا من الاسطول السادس (الامريكي) سيتم في لبنان خلال ذلك اليوم ، وكنت خائفا أن تثير هذه العملية مظاهرات ضد أمريكة ، وقد تحمل الجماهير على اقتحام السفارة . وقد ساورتني هذه المخاوف بالرغم من أن السفارة كانت

محاطة بالدبابات ، والقوات مخيمة في أرض السفارة « لحمايتنا » .
وقد انتابتني الهواجس ، لان هذه القوات لم تتدخل حين علقت على مدخل السفارة لافتةكبيرة معادية لامريكة ،وحين رسمت شعارات معادية لامريكة على أسوار حديقة السفارة . وبدلا من منع أمثال هذه التحريضات ، كان حماتنا منهمكين في تفتيش كل من يدخل الى السفارة أو يغادرها .

وقد اتفق ضيفنا أن الجماهير اذا اقتحمت السفارة ووجدته فيها، فان ذلك سيكون صعبا عليه وعلينا بنفس الدرجة . وقال انه اذا وجدت طريقة لاخراجه من طوق القوات والدبابات العراقية الى الشارع فانه يعرف اين يجد مكانا أمينا .

فدبرنا خطة ، ونفذناها بنجاح . فقد ألبسناه بزة سائق في السفارة ، وأجلسناه وراء عجلة القيادة في احدى سيارات السفارة مع أحد موظفينا في المقعد الخلفي . فمرت السيارة بالحرس واجتازت الدبابات دون أن يتحدّاها أحد ، وذهب خلال الشوارع الى المحل الذي وجده أمينا ، وهنالك نزل ، وعاد موظف السفارة بالسيارة وحده ، فلم يفطن الحرس الى عدم عودة السائق .

مذكرات روبرت مورفي

السفير الامريكي المتجول

عن زيارته العراق عقب ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨

لم يكن السفير الامريكي ، والدمار غولمان ، متحمسا للفكـــرة حين أخبر أنني أعتزم زيارة العراق بعد هذه المدة القصيرة من الانقلاب وانني ــ حتى في اثناء طيراني الى بغداد ــ كنت مقدّرا هــواجس صديقي • وكانت القوة الجوية قد خصصت لسفرتي طائــرة مــن نــوع (C 54) ، ولكننا لم نكد نعبر الحدود حتى أوعز المركز الجوي في بغداد لطائرتنا أن تعود أدراجها ، وتغادر المنطقة • وبالرغم من أن الطيار بعث برسالة قائلا ان بغداد سبق أن سمحت لنا بالسفرة ، لـــم تتلق موافقة • ولكننا مع ذلك قررنا أن نمضي في طريقنا ، ونزلنـــا في جو حار كالبخار ، حيث كانت درجة الحرارة ١١٣ في المطار ، وحيانا هناك سفيرنا الدمث وموظفوه وممثلو الحكومة العراقية الجديدة • وحين كنا نخترق الطرق ــ وكانت خالية ، ولكنها تحـــت حراســـة شديدة ــ متوجهين الى البيت الابيض المصغّر الذي هو سفـــارتنا في بغداد ، أخبرني غولمان ببعض الاهوال التي مرت بالمدينة مؤخـــرا • فقد لقي كثير من الابرياء حتفهم (وسحلتهم) الغوغاء الذيـــن فاقت قسوتهم كل تخمين ، وأفلت الزمام من أيدي الضباط الذين حرّكـــوا الثورة • وكان ثلاثة من رجال الاعمال الامريكيين الذين صادف أن وجدوا في بهو فندق بغداد العصري في أثناء تفتيش البناية ، قـــد احتجزوا مع سائر الاجانب ، وحملوا في (لوريات) عسكرية الـــى وزارة الدفاع • وصادف أن انقطع المرور بسبب اكتضاض الطريق ،

وأدرك الغوغاء السيارات ، فأنزلوا المساجين العاثري الحظوظ الى الشارع ، وقتلوا دون أن تكون باليد حيلة . وكانت جثث الملك فيصل وأسرته قد قطعت اربا اربا ، وقيل ان العظام « الملكية » كانت تباع في الاسواق كقطع تذكارية . (١)

والرجل الذي دبّر هذه الثورة ، الزعيم عبد الكريم قاسم ، قد أصبح الان رئيسا للوزراء ، وقد رتب لنا السفير غولمان موعدا للقيام بزيارة رسمية له في وزارة الدفاع حيث كان يعمل وينام في نفس الغرفة التي يحتلها منذ نشوب الثورة . وكانت الوزارة تعج بالحراس القلقين، ولقاسم رشاشته الخاصة غير بعيدة منه . وكان رئيس الوزراء الجديد نحيف الجرم ، يقظا ، متنبها ، حذرا في كلامه ، لا يلزم نفسه بشيء. وكان من الصعب في البداية الدخول معالرئيس الجديد في بحث مشكلاتنا المشتركة ، ولكن ساعدنا في ذلك وزير الخارجية عبد الجبار الجومرد ، وهو موصلي أشقر الشعر أزرق العينين . وعلمت أن الجومرد ، الذي لم يشترك في المؤامرة لتحطيم الملك فيصل ، قد فوجيء بتعيينه وزيرا للخارجية سماعا من الاذاعة . وقد أخبرني قاسم أنه كان يفكر في الثورة منذ سنوات . وهو قد دبر خطتها بدقة وسرية مع زهاء مئة من زملائه ضباط الجيش ، فلما سنحت الفرصة في تموز ، عند نقل بعض الوحدات العسكرية ، تمكن قاسم والمتآمرون معه من تنفيذ الخطة بخفة واحكام . وكانت المفاجأة تامة . وكان رئيس الوزراء يسوّغ الانقلاب بأنه لم يكن من الممكن لشعب

(١) لم يقع هذا الامر الذي يذكره المؤلف كشائعة بلغته .
(المترجم)

العراق الفقير أن يتخلص من نظامه الملكي الفاسد الا بهذه الطريقة غير الدستورية • وكان قاسم يؤكد على الطابع المحلي للثورة ، ويقول انها دبرت لاسباب وطنية أكثر منها ايديولوجية ــ وهو لم يستنكر القسوة التي نفذت بها •

قلت لقاسم ، منتقلا الى موضوع آخر ، انني حضرت الى بغداد لاساعد حكومتي على مزيد من التفهم لسياسة حكومته التي اعترفت بها الولايات المتحدة فورا • وقد صادف ان تدخلت حكومتي عسكريا في لبنان المجاور في وقت واحد مع الثورة في العراق • وقد سمعت ان المسؤولين العراقيين كانوا يشكّون في نياتنا • قال قاسم : نعم ، انه كان يشك ، لانه يعتقد ان الامريكيين ليست نيتهم أن يقصروا قواتهم على لبنان • وكان يجد نفسه متأكدا أن تدخلنا كان مجرد مقدمة لغزو العراق • وقد أبدى أنه سيقاوم ذلك • أجبته انني كنت أطير مؤخرا فوق جزء كبير من ارض العراق ، وقد لاحظت أنهامتداد واسع لأرضين قاحلة ليس فيها ما يغري من الناحية العسكرية • وذكّرت قاسماً أن لرئيس الولايات المتحدة سجلا طويلا وناجحا كضابط في الجيش • وقلت ان قاسماكان عسكريا أيضا ،وسألته أن يذكر سببا معقولا واحدا يحمل ايزنهاور على الرغبة في ارسال قوات امريكية لغزو فيافي العراق المقفرة • وقد قلت هذا مبتسما ، اذ لم أرغب أن أجعل من قولي هذا نيلا من بلاده • وبعد برهة ابتسم قاسم أيضا ، ويظهر أن هذه الحجة كان لها وقعها الحسن عنده ، وأعرب عن رغبته في العلاقاتالطيبة مع الولايات المتحدة وسائر الدول الغربية •

وذكرت ان الدول الغربية كانت قلقة بعض القلق من وصول بعثة روسية كبيرة الى بغداد ، يبدو انها كانت متعاونة تعاونا وثيقا مع

الحزب الشيوعي العراقي الذي سمح له باستئناف نشاطه ، وبحثنا بصراحة كبيرة تجارب البلدان التي بدأت بقبول المساعدة السوفيتية وانتهت بفقدان الاستقلال • شرح قاسم بلغة العسكري البسيطة أفكاره في الاصلاحات الاجتماعية والعسكرية التي تحتاج لها بلاده ، وأكد لي أنه لم يجازف بالقيام بالثورة بقصد تسليم العراق الى الاتحاد السوفيتي ، وأضاف أنه هو وزملاؤه لم يجازفوا بحياتهم ليجعلوا العراق خاضعا لمصر • وقد أعطاني قاسم انطباعا كرجل يلعب على الحبلين بين موسكو والقاهرة • وصرح أن حكومته تنوي تأييد الجمهورية العربية المتحدة في سياستها ، ولكن العراق سيحترم التزاماته الدولية • وقال ان بلاده تريد زيادة كميات النفط التي تشحنها الى الغرب بنسبة خمسين في المئة على الاقل ، وانه أخبر جمال عبد الناصر انه لن يكون هنالك أي تعرّض لانابيب النفط في العراق ، وكانت هنالك دلائل على تسلل بعض الوكلاء من مصر • وتكلم قاسم بشراسة هادئة • ولم أشك أنه كان مصمما تصميما قاطعا على صيانة استقلال العراق • ولكن قاسما اغتيل بعد أقل من خمس سنوات بيد جماعة من رفاقه السابقين في السلاح ، بقيادة (العقيد) عبد السلام محمد عارف ، وهو متحمس في اعجابه بناصر •

ثبت الكتب التي استقيت منها مواد هذا الكتاب :

1. Friedrich Rosen, *Oriental Memories of a German Diplomatist,* E. P. Dutton and Company Inc., New York, 1930.

2. *British Documents on the Rrigins of War, 1898-1914,* Vol. V (The Near East) Ed. by; G.P. Gooch and Harold Temperly, His Majesty's Stationary Office, London, 1928.

3. Fritz Grobba, *Manner und Machte im Orient* Musterschmidt-Verlag. Gottingen, Zurich. Berlin. Frankfurt 1967.

4. Sir Maurice Peterson, *Both Sides of the Curtain,* Constable. London, 1950.

5. *Ciano's Diary,* Edited by; Malcolm Muggerde. William, Heinemann Ltd. London, 1947.

6. Summer Welles, *The Time for Decision,* Harper & Brothers, New York, 1944.

7. Waldemar J. Gallman, *Iraq under General Nuri,* The Johns Hopkins Press, Baltimore, 1964.

8. Robert Murphy, *Diplomat Among Warriors* Collins, London, 1964.

فهرس الأعلام

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)